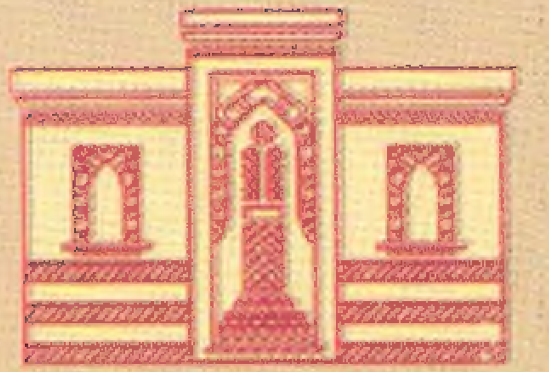


بنك مصر
BANQUE MISR



تاريخ دول العرب والإسلام



تأليف

محمد طلعت حرب

فى تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام

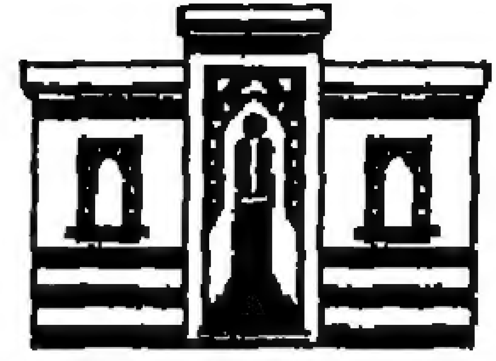
حتى دولة الخلفاء الراشدين

الطبعة الثالثة



مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة
(١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧م)

تاريخ دول العرب والإسلام





بنك مصر
BANQUE MISR

تاريخ دول العرب والإسلام

تأليف
محمد طلعت حرب

الجزء الأول

في تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام حتى
دولة الخلفاء الراشدين

مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة

الطبعة الثالثة (١٤٢٨ هـ - ٢٠٠٧ م)

الهيئة العامة
لدار الكتب والوثائق القومية

رئيس مجلس الإدارة
أ. د. محمد صابر عرب

حرب، محمد طلعت، 1867 - 1941.
تاريخ دول العرب والإسلام/ تأليف محمد طلعت حرب
. ـ ط 3. ـ القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2007.
مج 1 ؛ 24 سم.
المحتويات جـ ١ . فى تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل
الإسلام حتى دولة الخلفاء الراشدين. ـ
تدمك 0 - 0529 - 18 - 977

٩٥٣

إخراج وطباعة:
مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة.

رقم الإيداع بدار الكتب ٢٠٠٧/٢٤٧٤٣

I.S.B.N. 977 - 18 - 0529 - 0

إهداء من بنك مصر

هذا الكتاب يعد أحد مؤلفات محمد طلعت حرب التى توضح تنوع اهتماماته الفكرية التى تتعدى الجانب الاقتصادى إلى الاهتمام بالتاريخ والأدب والقضايا السياسية والاجتماعية العامة. ومن هنا جاء هذا الكتاب «تاريخ دول العرب والإسلام» حيث أشار «طلعت حرب» فى مقدمته إلى أن التاريخ هو نور الحقيقة ومصباح الهداية ومرشد الخلف لأحوال السلف ومدرسة جامعة تقوم الأخلاق والآداب وتثقف عقول أولى الألباب.

ويمثل هذا الكتاب عرضا لتاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام حتى دولة الخلفاء الراشدين فى أسلوب شيق وعبارات سلسلة وجيزة. وقد أصدر «طلعت حرب باشا» هذا الكتاب فى طبعته الأولى عام ١٣١٥ هـ ١٨٩٧م وكان عمره حوالى ثلاثون عاماً ثم أعيد طبعه عام ١٩٠٥م.

ويسعد بنك مصر أن يعيد إصدار هذا الكتاب بمناسبة مرور ٨٧ عاماً على تأسيس البنك ومرور ١٤٠ عاماً على ميلاد طلعت حرب. آملين أن يكون عونا للدارسين والمهتمين بتاريخ العرب والإسلام.

بنك مصر

ذو القعدة ١٤٢٨ هـ نوفمبر ٢٠٠٧ م.

تاريخ دول العرب والإسلام

تأليف
محمد طلعت حرب

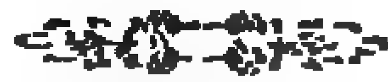
الجزء الأول

في تاريخ العرب وما كانوا عليه قبل الإسلام حتى
دولة الخلفاء الراشدين

الطبعة الثانية (عام ١٣٢٣ هـ - ١٩٠٥ م)



بسم الله الرحمن الرحيم



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد وآله اجمعين

وبعد فانى احمد الله ان وفقنى الى جمع تاريخ دول العرب والاسلام واقدرنى على طبع جزئه الاول من نحو سبع سنين وكنت وقفت عن طبع باقى الاجزاء لاسبر رغبات الناس فى اقتناء اسفار التواريخ ومحبة الاطلاع على الحقائق وقد ظهر لى ان نشئ الامة المصرية ونابتة محبي اللغة العربية والامة الاسلامية نشئ حى له شغف بالوقوف على التواريخ

الصادقة وولع بالعلوم القديمـة والحديثة فاقدمت على اعادة طبع ذلك الجزء بعد ان نفد كل ما عنـدى منه ووردت علىّ الرسائل من الاصدقاء والمحبين بطلب ذلك ونقحت فى الـكتاب مواضع كثيرةوزدتفيه زيادات متممةلفوائده واستخرت الله فى تمثيله للطبع مع دقـة التصحيح حسب الامكان وسأتبع هـذا الجزء بباقى الاجزاء اسعافاًللطالبين واجابة للراغبين سائلاً واهب القـدر والقوى أن يوفقنى لتحقيق أمنية حضرةاستاذىوصديقى الفاضل حفنى بك ناصف فى خطاب ارسله الىّ فكان من أقوى البواعث على التشمير للعمل وبعث روح الامل. اما الخطاب فهو :

قال حفظه الله ؟

صديقى الوفى محمد طلعت حرب (بك)

تطاولت الايام . وتصرمت الاعوام . دون اتمام . كتاب دول العرب والاسلام . ولو كنت تعلم ماعند الطلاب . من الارتقاب. لظهور باقى الـكتاب . لخففت عنهم الم الانتظار . وقصرت عليهم مدى الاصطبار . وانجزت الوعود . وابرزت

باقى الكتاب الى الوجود . ولم تكن هذه الرقبي اقلة من كتب. فى تاريخ العرب. بل لانك جمعت فى اوراق قليلة . ماتفرق فى اسفار جليلة . واقتصرت على اللباب . وانتصرت للصواب . وسهلت على الباحث . تناول المباحث . كمارأيناه. فى الجزء الذى قرأناه . والكتاب كما قيل يعرف من عنوانه. والمرء باصغريه قلبه ولسانه . ولقد تخطف الناس الجزء الاول اثر ظهوره. واصبحوا الآن ينشدونه فلا يجدونه لندوره . فايقنت انك اخلصت النية فى تأليفه . ولم تقصد غير وجه الله فى جمعه وترصيفه . ولم يشب جمعه وطبعه . رياء ولا سمعه. وكم طلب الىّ طالب ان استنهض همتك . واشحذ عزيمتك . لاتمام الجمع . واعادة الطبع . وابراز الكتاب دفعة واحدة . وادناء جناه لمقتطف الفائدة . فلم أر بدا من مكاشفتك باماني الطلاب . وسؤالك إتمام هذا الكتاب . فليس فى عيوب الانام . كنقص القادرين على التمام. وانت تعلم ان التاريخ مربى النفوس ومهذب الاخلاق ومشذب الطباع. وحاجة الارواح اليه حاجة الجسوم الى الاغذية. وذوى الادواء الى الادوية

وقد تهافت على التأليف فيه . كثير من غير عارفيه . فخلطوا وخبطوا . وصعدوا وهبطوا . وكم من حوادث تراها اليوم بعينيك . وتسمعها باذنيك . تذهب فيها الكتاب المذاهب . وتأتي فى حكايتها بالغرائب . والتاريخ مزلة الاقلام . بل مزلقة الاقدام . فيحتاج الكاتب فيه الى قوة تمحيص . وقدرة على التلخيص والتخليص . ومتانة فى التصحيح . ومكانة فى التعديل والتجريح . وبعد عن التشيع والغواية . وتثبت فى النقل والرواية . ونفرة عن الكذب والاختلاق . ووفرة من تهذيب الاخلاق . وكل هذه الشرائط متوفرة والحمد لله لديك . وتحقيق اماني الطلاب سهل عليك . فشمر الساعد للعمل . واربأ بنفسك ان ترعى مع الهمل . وفقك الله . الى ما يحبه ويرضاه»

صديقك

حفنى ناصف

مقدمة الطبعة الاولى



الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خيرة النبيين وخلاصة الهادين المنزل عليه فى محكم الكتاب المبين (وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك وجاءك فى هذه الحق وموعظة وذكرى للمؤمنين)

وبعد فان الواجب على كل فرد من أفراد الامة أن يقوم بما يعود عليها بالنفع العميم والفضل الجسيم وأن يهدى الى أفراد أمته من معلوماته ما يعتقد فيه الخير والمنفعة لحالها ومآلها بقدر ما تصل اليه يد الامكان ويساعد عليه الزمان ولو كان من طفيف المتاع

ولما كان علم التاريخ من أنفس العلوم قدرا وأجلها شأنا وذكرا مدحه عقلاء الشرق وحافظ على مطالعته نبهاء الغرب وحثت عليه أعاظم الحكماء فى كل وقت وبين كل أمة اذ هو نور الحقيقة ومصباح الهداية ومرشد الخلف لاحوال السلف

ومدرسة جامعة تقوم الاخلاق والآداب وتثقف عقول أولى الالباب وقد بلغ من مزيته وفضله أن كل أمة شغفت بمطالعته وأكثرت من التنقيب فى زواياه واظهار خباياه نالت من السعادة قدراً مجيدا ومن السؤدد شأوا بعيدا كما هو ظاهر للعيان ولا يختلف فيه أثنان ومن الادلة على ذلك أن أوروبا وهى القابضة على صولجان المدنية الحاضرة يشتغل كثير من علمائها وفلاسفتها بالتأليف فى هذا الفن الجليل وقد بلغ من اعتنائهم بذلك وتقريبهم هذا العلم من أفهام العامة أن جعلوه فى قالب الروايات والاقاصيص حتى يسهل على الكل ادراك مغزاه وفهم مؤداه فيعرفون أسباب الترقى والفلاح فيأخذون بها وتتشخص أمام اعينهم عوامل التقهقر والانحطاط فيفرون منها ولحسن ظنى بتطلع جمهورنا الى اقتناء فوائد التاريخ واحتياجهم فى هذا الزمن الى معرفة حالة الاسبقين وما كانوا عليه من عرب وعجم وعشائر وأمم ظننت فى نفسى المقدرة — اعتماداً على سجاياهم وان كانت بضاعتى فى ذلك مزجاة — على أن أضع فى هذا الباب تأليفاً

مختصراً شاملا بعد أن راجعت أصحاب الدراية فى هـذا الشأن وعرضت عليهم ما كتبته واقتطفته من أشهر المؤلفات القديمة والحديثة بين عربية وأعجمية وسميته (تاريخ دول العرب والاسلام) وقسمته الى أربعة أجزاء * الاول فى تاريخ العرب وما كانوا عليه وتصاريف أحوالهم قبل الاسلام حتى دولة الخلفاء الراشدين * والثانى يبتدئ بدولة الخلفاء الراشدين وينتهى بسقوط بغداد * والثالث فى الدول التى انشقت من بنى العباس ودول الاسلام بالاندلس * والرابع فى تاريخ الدولة العثمانية

وقد راعيت فى هذا المؤلف ذكر احوال الدول وما كانت عليه بعبارة سلسة وجيزة واستنباطات مفيدة تكميلا للفائدة وقد ذكرت فى أوائل الدول الكبيرة بعض ملحوظات ببيان ما كان عليه العالم وقت ظهور تلك الدولة ليكون المطلع على بصيرة ولا تضل فكرته فى استنتاج الاسباب التى أدت الى ضعف تلك الدولة أو ارتفاعها أو تأخرها أو غير ذلك وليتمكن من المقارنة بين أحوال تلك الدول الغابرة وأحوال الدول

الحاضرة فتحصل له ملكة التاريخ ونعمت المنفعة منفعته التى أهمها اعتبار الحاضرين بما كان للسالفين

والله المسئول أن يجعل عملنا هذا مقرونا بالنجاح انه نعم المجيب

هذا والمأمول ممن يطلع على هذا المؤلف أن يغض الطرف عما يجده فيه من الهفوات أو الابهام ويسبل عليه ستار العفو لان اشتغالى بوظيفتى ربما عاقنى عن استتباع الاخبار واستنتاج النتائج كما يطلبه المتبحرون فى هذا العلم فقد يكبو الجواد ويفوت المرء السداد والله ولى التوفيق

شعبان سنة ١٣١٥ محمد طلعت

حرب

(تمهيد)

« حدود بلاد العرب — مواطن العرب وحاصلات بلادهم ومناخها — مساحتها وعدد سكانها — تشوف الافرنج الى بلاد العرب وذكر أشهر سياحيهم بها »

قبل أن نرخى للقلم العنان فى تاريخ الامة العربية نذكر أشهر المواطن التى كانت تقيم فيها محددين لها من جهاتها الاربع بوصفها الطبيعى من حيث الجبال والنبات وجودة المناخ الى غير ذلك ثم نذكر أصول القبائل ومواطنها الشهيرة وما كانت عليه حالها وحال الامم المجاورة لها فنقول

حدود بلاد العرب — بلاد العرب وتسمى جزيرة العرب هي قطعة أرض متسعة الارجاء مستطيلة الهيئة كثيرة الجبال والسهول والصحارى وهى فى الجنوب الغربى من آسيا محصورة بين البحر الاحمر وبلاد الشام والعراق والخليج الفارسي وخليج عمان والمحيط الهندى وخليج عدن

وبموقعها هذا تكون أقرب البلدان اليها بلاد الحبشة والسودان ومصر وتنفصل عنها بالبحر الاحمر ثم الاقطار الشامية والعراق وهى متصلة بها وبلاد العجم وهى منفصلة

عنها بالخليج الفارسى ويتوصل منها لبلاد الهند بحراً بواسطة المحيط الهندى

مواطن العرب ومواصلات بلادهم ومنافعها

قد قسم علماء الجغرافيا بلاد العرب الحقيقية الى ثمانية أقاليم حسب طبيعة أراضيها وهى الحجاز واليمن وحضرموت ومهرة وعمان والاحساء المسمى ايضاً بالبحرين ونجد والاحقاف

(الاول) اقليم الحجاز — موقعه فى الغرب من بلاد العرب ويمتد على ساحل البحر الاحمر ومن مدنه مكة المشرفة المسماة أيضاً بكة وام القرى وهى فاران المذكورة فى التوراة (١) وبها بيت الله الحرام الذى فرض الله حجه على كل مسلم استطاع اليه سبيلا وهو أول بيت وضع للناس كانت تؤمه الوفود من قديم الزمان للحج والعبادة ومن أماكن مكة الشهيرة فى مناسك الحج الصفا والمروة ومنى وجبل عرفات والمزدلفة والمشعر الحرام

---

(١) فاران اسم لجبال بمكة وسميت مكة به ايضاً ومذكور فى التوراة أنه سيخرج من فاران نبى وهذا تصديق لنبوة النبى محمد صلى الله عليه وسلم

ومن مدن هذا الاقليم أيضاً المدينة وكان اسمها قبل هجرة النبي صلى الله عليه وسلم يثرب فبدله بطيبة كراهة فى التثريب الذى هو العتب واللوم وبها مقامه الشريف

وتصل لهاتين المدينتين الارزاق من مدن أخرى لعدم خصوبة أراضيها فتستمد مكة أرزاقها من جدة التى هى فرضتها على البحر الاحمر وتستمد المدينة من ينبع المعروفة بينبع البحر

ويوجد بوسط هذا الاقليم كثبان وآكام تنبت المراعى وهى مساكن القبائل وحولها قرى وضياع وفى تلك الآكام قلاع يلجؤن اليها عند هجوم الاعداء وبمنحدراتها بعض حبوب وثمار وكلا للمواشى وعيون ماء • وبقرب احدى تلك الآكام مدينة الطائف وهى بستان مكة ومصيف أغنياء أهلها ولفوا كهها شهرة ومياه مكة زعاق لا تسوغ لشارب وأطيبها ماء بئر زمزم

ويلحق بالحجاز أرض تهامة وهى البلاد الممتدة من سفح الجبل الى البحر الاحمر وعلماء الجغرافيا لا يطلقون تهامة الا على الساحل لمقابلته بنجد الذى معناه المحل المرتفع ولذلك

سمي الحجاز حجازاً لوقوعه حاجزاً بين تهامة ونجد. ويسمون أيضاً تهامة (الغور)

(الثانى) **اقليم اليمن** — سمي بذلك ليمنه وبركته ولذا سماه قدماء المؤرخين وعلماء الفرنج « بلاد العرب السعيدة » أو ذات اليمن وقيل سمي بذلك لكونه على يمين الكعبة وقيل غير ذلك . وهو بالجزء الجنوبى من جزيرة العرب فى شمال بلاد العسير آهل من قديم بالعمران ومتوفرة فيه الحضارة وسكانه يسمون عند القدماء بنى حمير خالطوا المصريين والآتيوبين والفرس وجميع الامم التى تسافر فى بحر الهند فانتظمت حكومتهم من عهد بعيد ولهذا الاختلاط ووفرة خيرات هذه البلاد تطلع لها الاجانب من الفرس والروم والحبشة فأغاروا عليها فى أزمنة مختلفة حتى انها فى زمننا هذا لم تسلم من أطماع الاجانب فقد احتل الانكليز بلادا منها كعدن واتخذوها مرفأ لسفنهم الجارية بين الشرق والغرب

وفى كل يوم نسمع بثورة جديدة وفتنة عظيمة تدبرها يد أجنبية وتذكى نارها دولة اوربية. وبينما نحن نكتب هذه

السطور الآن سنة ١٩٠٥ نرى الخلاف قائماً بين الدولة العثمانية والحكومة الانكليزية على تحديد منطقة نفوذ كل منهما فيما وراء عدن والثورة مستعرة نارها بين الجنود العثمانية واهالى اليمن الذين يحاصرون الجنود فى صنعاء لطف الله بالحال (١) ومن مدن هذا الاقليم مخا والحديدة وصنعاء التى بقربها أطلال

(١) كتبت جريدة الاوروبيان التى تصدر فى باريس مقالة بعنوان اللورد كورزون ضد الباب العالى جاء فيها ما مؤداه :

« لايزال اللورد كورزون حاكم الهند يلح فى طلب توسيع منطقة الاملاك الانكليزية فى عدن . وغرضه من ذلك وضع يده على الطرق الداخلية فى بلاد العرب والاستيلاء على ثغر « شيخ سعيد » العديم المثال . ولايزال جلالة السلطان يرفض اجابة انكلترا الى طلبها بكل قوة وشدة . فلما عيل صبر هذه الدولة أمرت أحد الماليين من أبنائها بان يشترى مافوق ثغر « شيخ سعيد » من الاراضى بحيث صارت الجنود التركية المحتلة له فى معزل عن بقية الجهات . وقد كانت « شيخ سعيد » من نحو عشرين عاما تحت رحمة فرنسا فأهملها الضباط الفرنساويون واستولى عليها جلالة السلطان فى الحال وطمعت فيها انكلترا الآن

ونضلا عن ذلك فان أميرا عربيا « ابن سعود » قام يحارب سلطة جلالة السلطان فى نجد ويحاصر « صنعاء » . وفى كل حركة

مأرب وسبأ المذكورة فى القرآن الكريم .

وبمدينة مأرب وجدت الآثار المنقوشة على الصخور بالخط المسند الحميرى الذى حين حلت رموزه وقف المتأخرون بعض الشئ على تاريخ هذه البلاد . وصنعاء المذكورة هى المنافسة لمكة من عدة قرون فى التلقب بعاصمة جزيرة العرب ولذا اتخذها التبابعة ومن خلفهم عليها من عمال الفرس والحبشة دار اقامة وهى الآن مقر أقوى أمراء اليمن شوكة وبها دار واليها واشتهرت بقربها نجران وكان بها قبة عظيمة تسمى بكعبة نجران بناها عبد المسيح بن داوس بن عدى أحد امراء اليمن فى الزمن الاول من انتشار النصرانية بتلك الارجاء وكان اذا نزل بها مستجير أجير او خائف أمن أو جائع أشبع أو طالب حاجة قضيت . وكانت العرب تقصد زيارتها كما تقصد زيارة كعبة بيت الله الحرام بمكه .

ثورية فى نجد أو فى اليمن يجد الانسان ايدى الانكليز عاملة طلبا لمآربهم من العالم الاسلامى . وان الجهات البريطانية تعمل فى تلك الجهات النائية عملا كبيرا كما عملت فى الكويت »

انظر العدد الثانى من جريدة العالم الاسلامى الصادر فى ١٧ مارس سنة ١٩٠٥

ولبلاد اقليم اليمن شهرة عظيمة بزراعة البن وتجارته فينسب اليه فيقال بن مخا وبن عدن الخ ويملك الانكليز على ساحل بلاد اليمن مدينة عدن كما أسلفنا لكونها فى طريق الهند ثم جزيرة قمران بالقرب من الساحل الغربى لبلاد اليمن على البحر الاحمر ثم جزيرة بريم فى بوغاز باب المندب ولا تخفى أهمية مراكز هذه الجهات لدولة تريد ان تكون سيدة البحار وان يكون بيدها مفاتيح بلاد العجم والعرب والهند والسند

الثالث — **اقليم حضرموت** — وهو واقع فى ساحل بحر الهند فى شرق اليمن ومتصل به ومشابه له فى المناخ والمزايا الطبيعية ومنه العود القاقلى ومن مدنه ظفار وشيبان

الرابع — **اقليم مهره** — واقع شرقى حضرموت وهو وان كان متصلا به الا أنه أقل منه خصوبة ولذلك استمد سكانه وسائل تعيشهم من البلاد الاخرى والبحر عندهم كثير السمك يقتاتون به هم ومواشيهم واليه تنسب الابل المهرية

الخامس — **اقليم عمان او شحر عمان** — وهو متصل بالخليج الفارسى وخليج عمان والمحيط الهندى وباقليم مهرة

وهو تجاه الهند وبه قليل من النحاس والرصاص والبقول والثمر ولقلة حاصلاته حرم من المظهر التجارى ولم تجلب اليه تجارة الهند لعدم وجود شئ فيه يصلح للتبادل ومن مدن هذا الاقليم مسقط وصحار .

السادس — **اقليم الاحساء** — ويسمى أيضاً بالبحرين لوقوعه على بحرى عمان والفرس . وجزائر هذه الجهة مشهورة بمغاص اللؤلؤ وقيل ان السفن المشتغلة بالغوص عليه فى موسمه تبلغ الستة آلاف سفينة وأن عدد الاشخاص الذين يشتغلون بذلك نحو سبعين ألف غواص وأن قيمة ما يستخرج من اللؤلؤ فى السنة يساوى ١٢ مليوناً ونصفاً من الفرنكات .(١) ولا يرى هذا الاقليم آهلا بالناس الا فى فصل غوص البحر فترى الناس يفدون اليه أفواجاً من كل صوب حتى اذا أخرجوا اللؤلؤ قفلوا راجعين بمتاجرهم الى أسواق الهند وبلاد الفرس وغيرها ويصبح الاقليم قاعاً صفصفاً. وأشهر مدن هذا الاقليم الهفوف والقطيف على بحر عمان . وحمير هذا الاقليم شهرة

(١) هذا التقدير كان من سنوات ولابد وان يكون قد زاد الآن عن ذلك كثيرا

ولموضع هـذا الاقليم الجغرافى ولتجارة اللؤلؤ الذي يستخرج منه طمع فيه الاجانب واصبحت جزائر البحرين القائمة فى وسط هذه السواحل ملك الهند الانكليزية ! !

السابع — اقليم نجد — وهو فى جنوب صحارى الشام شاغل جميع الجزء الاوسط من جزيرة العرب وهو ما بين الحجاز والاحساء والاحقاف الذى كان به مدينة هجر وأغلبه هضاب رملية ويتصل ببلاد العراق شرقاً

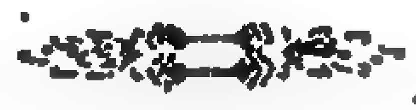
وبه كثير من الواحات التى تنبت الكلأ والنباتات النفيسة مثل العرار — وهو النرجس البرى — والشيح والقيصوم

وبه أرض العالية التى حماها كليب بن ربيعة وأفضى ذلك الى قتله وانتشاب حرب البسوس كما سيجئ

ولخيل هذا الاقليم وابله شهرة فائقة وكانت العرب تسميه بلاد الابل ومن مدنه مدينة الرياض وهى عاصمة الوهابيين الذين سنتكلم عليهم فيما بعد

الثامن — اقليم الاحقاف — هو صحراء مقفرة فى قلب جزيرة العرب تلحق به فى بعض الكتب أرض اليمامة وحاله

مجهول وهو واقع بين عمان والاحساء ونجد وحضر موت ومهرة



ويخترق بلاد العرب كما قدمنا فى معظم جهاتها جبال وهضاب كثيرة وصحار واسعة أشهرها صحراء الاحقاف وصحراء النفود جهة الشمال والربع الخالى جهة الجنوب ولا يعلم بها بحيرات ولا أنهار ولكن فيها شئ من الجداول والعيون والآبار وهى شهيرة بنباتاتها الثمينة العطرية ومن محصولاتها البن والزيتون والتمر وكثير من الفواكه والمشمومات وبها كثير من الحيوانات المستأنسة والوحوش الكاسرة ولظبائها وحميرها وخيولها وابلها شهرة عظيمة وبها كثير من الطيور والحشرات

ومناخ هذه البلاد حار على الوجه العام معتدل فوق النجود العالية حيث تكثر النباتات والمياه

وقد بدئ من بضع سنوات فى مد سكة حديدية تصل الشام بهذه البلاد ولا تخفى اهميتها الاقتصادية والعسكرية والدينية فتسهل الحج على المسلمين كما تسهل وسائل الدفاع عن البلاد وكبح جماح الثائرين . وقد تم جزء عظيم من هذا الخط وافتتح رسمياً من شهور

مساحة جزيرة العرب وعدد سكانها — قد اختلفت أقوال الجغرافيين فى مقدار مساحتها فبعضهم قال انها نحو ١٢٦ ألف فرسخ مربع أى ضعف مسطح بلاد فرنسا وقال البعض الآخر ان مساحة بلاد العرب أكثر من مساحة بلاد فرنسا بنحو خمس مرات وقال آخرون انها أكبر منها بست مرات(١) كما اختلفت أيضاً أقوالهم فى مقدار عدد سكانها فمن قائل انها تبلغ اثنى عشر مليوناً من النفوس. وقائل بنصف ذلك وقائل انها تبلغ ثمانية ملايين منها خمسة خاضعة لحكم الدولة العلية وهى فى الحجاز واليمن والاحساء والباقى مستقل بحكمه

(١) مساحة القطر المصرى نحو ٦٠٠ الف كيلو مترا مربعا بما فيه الصحارى اى نحو ١٥٠ مليون فدان ومن غير الصحارى نحو ٢٦ الف كيلو مترا مربعا اي نحو ٦١٥٨٠٧٧ فدانا ومساحة بلاد فرنسا كيلو مترا ٥٣٧ الف كيلو مترا مربعا ومساحة انكلترا ٣١٥ الف كيلو مترا مربعا ومساحة جزيرة العرب ٢٥٠٧٤٠٠ كيلو مترا حسب قول ايليزيه ريكلى Elisée Reclus و ٢٨٥٠٠٠٠ كيلو مترا كما جاء بدائرة المعارف الفرنساوية و ٣١٠٠٠٠٠ حسب قول الجغرافى شرادر و ٢٧٠٠٠٠٠ كيلو مترا حسب كتاب التحفة الازهرية لحضرة اسماعيل افندى على .

أئمة من العرب فى نجد وتهامة واليمامة ومسقط وعمان وحضرموت

ولعمر الحق ما هذا الاختلاف بالامر الغريب لتعلقه ببلاد قلما دخلها اوربى او عالم اجنبي لشدة حرارتها ووعورة مسالكها وجهل لغات اهلها وعوائدهم وتمسكهم بدينهم وشدة ابائهم دخول الاجنبي بلادهم

تشوف الافرنج الى بلاد العرب وذكر اشهر سياحيهم بها

من تصفح كتب الغربيين علم انهم متطلعون من زمن غير قريب لمعرفة تلك البلاد طامعون فيها متشوفون للوقوف على حقيقة احوالها حيث لم تشف غلتهم ما ذكره عن بعضها جماعة من مؤرخى اليونان والروم الاقدمين مما لا يخلو من النقص فى مواضع والحشو والرجم بالغيب فى غيرها. ولا يخفى على القارئ اللبيب دواعى هذه الاطماع فلكل دين وطباع وعوائد وتجارة وصوالح يتمنى ان تسود على ما سواها وان يتلاشى ما عداها ولنا فى خروج أمير الكويت الآن عن طاعة السلطان وتسابق الدول لبسط نفوذها على تلك البلاد

وقيام الفتنة فى اليمن وتوسيع الخرق بين مبارك بن الصباح شيخ الكويت وابن سعود وابن رشيد وغيرهم اعظم عبرة لمن يعتبر

ومن اراد ان يعرف ماوصلت اليه الحال هناك فليقرأ ما كتبه المسيو الكسندر أولار الكاتب الفرنساوى الشهير من ضمن مقالة نشرتها المجلة الفرنساوية فى عددها الصادر فى اول فبراير سنة ١٩٠٥ على «الهند والمنافسة بين انكلترا والروسيا» وعربتها عنها جريدة العالم الاسلامى فى عددها الاول الصادر فى ١٠ مارس سنة ١٩٠٥ . قال :

«ان الحوادث الجارية فى قلب بلاد العرب تخدم السياسة البريطانية أكثر مما يقع فى سواحل البحر الاحمر . فمما لا يجهله القراء أن فى نجد بجنوب البلاد العربية حزبا كبيراً اسمه « الوهابيون » قام من منتصف القرن الثامن عشر بتأسيس أمارة مستقلة حاربتها تركيا وقبائل شمال العرب وقد تحالف اؤلئك الوهابيون من مدة مع شيخ الكويت لينالوا بواسطته الاسلحة اللازمة لهم من الخليج الفارسى . ولما أعلن مشروع سكة حديد بغداد فى عام ١٩٠١ وصرح بأن

فى النية جعل الكويت آخر محطة له استولت انكلترا بغتة على هذه النقطة المهمة . وأخذت الحادثة دورا كبيراً واضطر الانكليز للانسحاب. ولكنهم منحوا الشيخ مبارك امتيازات جعلته يرضى بالسيادة البريطانية ويقاوم مولاه التركى وانتهى الحال بان قبل فى صيف عام ١٩٠٤ اقامة معتمد انكليزي فى بلاده . وهو لا يزال بها وسيبقى الى الابد . فمبارك الصباح بمحالفته لابن سعود صار آلة الهند الانكليزية ضد حلفاء جلالة السلطان من العرب والبدو . وقد قام زعيمهم ابن الرشيد بمحاربة ابن سعود حتى نفدت ذخائر الفريقين وانهكت الحرب قواهما . وكانت الحرب بينهما حربا بين انكلترا والروسيا فى الحقيقة ! وبينما كان الوهابيون يأخذون ما يحتاجون اليه من الاسلحة من الكويت كان ابن الرشيد واصحابه يأخذون بطرق لا يعرفها احد مقذوفات روسية ! ! وقد كان النصر فى آخر الامر للوهابيين واضطر محاربوهم لان يخلوا من شهر أغسطس الماضى البلاد العربية ويقيموا فى جنوب نهر الفرات وبذلك تغلبت انكلترا على جلالتى السلطان والقيصر مجتمعين

ومن المؤكد ان العلائق ليست بوطيدة بين الهند الانكليزية والوهابيين . ولكن مبارك الصباح يتكفل بتقويتها . وعلى كل حال فان اميالهم لحليفهم البعيد محققة . وهذه النتيجة كافية لانها تسمح للانكليز متى سنحت الفرصة بان يضيفوا الى الخطوط التي ذكرناها قبلا خطا جديداً خطير الشأن يمتد من بور سعيد الى الخليج الفارسى مخترقا اراضى الشام....»

. . . .

وقال ايضاً: «ان انكلترا تريد أن تجعل الخليج الفارسى أو « البحر الابيض للشرق الاوسط » بحيرة انكليزية . وترى فى اقامة قاعدة بحرية فى هذه الجهات لاية دولة اجنبية اعلان حرب عليها . ولذلك كانت مسئلة الخليج الفارسى دقيقة للغاية . وقد تمكن الانكليز من توطيد سيادتهم فى الكويت ومسقط . أما البلاد الواقعة بينهما فان أصحابها يتأثرون بسياسة شيخ الكويت وسلطان مسقط . وقد زاد احترامهم للانكليز من عهد زيارة اللورد كورزون [1] للشواطئ العربية فى عام ١٩٠٣

(١) حاكم عموم الهند حالا .

وفضلا عن ذلك فان جزائر البحرين القائمة فى وسط هذه السواحل هى ملك للهند الانكليزية ولكن الامر بخلاف ذلك بشأن الشواطئ الفارسية . وان مسئلتها مرتبطة تمام الارتباط بمستقبل المملكة الايرانية . وهذا المستقبل هو أهم أمر فى السياسة العامة يخشى وقوع حرب بين انكلترا والروسيا بسببه ....»

وكان معظم اهتمام الفرنج باكتشاف تلك البلاد فى القرن الماضى وجاء فى كتاب الجغرافى الفرنساوى لانييه Lanier عندكلامه على بلاد العرب ان اول من باشر البحث عن هذه البلاد من الاوروبيين هوالالمانى نيوبهر المشهور Niebuhr رئيس الارسالية الدانيمركية سنة ١٧٦٢ — ١٧٦٣ وكانت رحلته لبلاد اليمن لاكتشافات علمية على ما يؤكدون وبعد ذلك بنحو نصف قرن توصل الاسبانى باديا Badia بواسطة تغيير زيه واسمه ملقباً نفسه «على بك العباسى» الى مدينة مكة المكرمة وكان اتى مصر اولا وتظاهر بالاسلام ومنها ذهب

لبلاد العرب بالصفة السابقة في سنة ١٨٠٧ بعد ان تحصل فى حلب على اوراق رسمية تثبت نسبته الى الاشراف

وفى سنة ١٨١٠ ذهب الالمانى سيتزن Seetzen لبلاد اليمن وقتل هناك وفى سنة ١٨١٤ وسنة ١٨١٥ احتال السائح الانكليزى بورك هارد Burckhard حتى دخل مكة والمدينة ورجع مستمداً بعض معلومات عن حالة البلاد الجغرافية وعن أهاليها وتظاهر فى آخر أمره بالاسلام وعليه مات وقبره بمصر واسمه عليه هكذا « عبدالله بوركهارد » ومشهور عند العامة باسم الشيخ بركات.

ثم حمل المصريون فى هذا الوقت على الوهابيين فسهلوا بعض التسهيل دخول الاجانب بلاد العرب فتمكن بعض الفرنساويين من وصف مكة والمدينة المشرفتين وضواحيهما وأول من اجتاز الطريق من الخليج الفارسى للبحر الاحمر كما ورد بكتاب لانييه المذكور هو الضابط الانكليزى سادليه Sadlier بأمر من حكومة الهند . والالمانى رابيل Rappel عبر بلاد الحجاز فى سنة ١٨٢٦ والجهات المجاورة لخليج العقبة

وفى هذا الوقت بينما كان بعض الضباط البحريين من الانكليز مكلفين من قبل حكومتهم بعمل خريطات لسواحل البحر الاحمر تطرف أحدهم وهو الملازم ويلستيد Wellsted وذهب الى بلادعمان فى سـنة ١٨٢٨ وفى سنتى ١٨٣٧ و ١٨٤٢ قام الطبيعى بوتا Bota والملازم باساما Bassama باقام به من قبل نيوبهر الالمانى ونجحا بعض النجاح فى اكتشافاتهما العلمية وفى ذلك الحين زار الفرنساويان أرنو Arnaud وفولجانس فرينسل Fulgence fresnel شواطئ بلاد العرب الغربية والقبلية فزار أولهما مدينة سبأ وآثار مأرب ونقل صور كتابات كثيرة حميرية ودخل الثاني بلاد العرب وكان قنصلا لفرنسا فى جدة وله علاقة بشريف مكة محمد بن عون الذى كان يسميه « الشيخ فرنايل » وفى ذلك الوقت ايضاً اى فى سنة ١٨٤١ — ١٨٤٢ دخل الفرنساوي ليون روش Léon Roche فى بلاد الحجاز وزار المدينة ومكة المشرفتين لغاية فى نفسه يريد قضاءها ونزل على شريف مكة محمد بن عون بتوصية من فرينسل سالف الذكر فاكرمه الشريف وخلصه من الموت الذى كاديذوقه

من العرب حينما اكتشفوا امره وفضحه بعض الحجاج المغاربة

وقد حكى روش المذكور عن نفسه « فى كتابه الذى وضعه بالفرنساوية بعنوان عشر سنوات فى الاسلام « Dixans à travers l'Islam » انه ولد بمدينة جرينوبل Grenoble من اعمال فرنسا سنة ١٨٠٩ ودرس الحقوق على غير ميل منه لها ثم سافر الى بلاد الجزائر فى سنة ١٨٣٢ ليستعمر مع والده ارضاً بتلك الجهات التى فتح الفرنساويون فى ذلك العهد بعضها وصادف ان لمح فتاه مغربية كانت تسكن بجانبه فعشقها وعشقته على مايقول وولع بها ولعا شديداً دعاه الى تعلم العربية

وكان الفرنساويون فى ذلك العهد فى هدنة مع الامير عبدالقادر الجزائرى فاحتال روش على الامير ودخل فى خدمته وادعى الاسلام وحاز ثقة الامير حتى أهله بمسلمة واطلعه على كل سرائره ودخائله واتخذه كاتب سره حتى اذا ما قامت الحرب بين الفرنساويين والامير فر روش الى اهله وخان الامير وكان عينا عليه فى جيش الفرنساويين وهذا جزاء من يغتر بالظواهر ومن يستسلم لكل دخيل فى الدين !!

ثم رأى الفرنساويون ان لا ترسخ لهم قدم فى بلاد الجزائر الا اذا افهموا الجزائريين أن الدين لا يمنعهـم من الخضوع للفرنساويين ومسالمتهم ماداموا هم اصحاب القوة ولا يكون ذلك الا اذا حصلوا على فتوى من علماء المسلمين يتوكئون عليها ويؤثرون بها فى عقولهم فقام روش بهذه المهمة وجاء القيروان ومصر وحصل من علمائهما على الفتوى المقصودة والضالة المنشودة بطرق وحيل أماط اللثام عنها فى كتابه وكان للدينار وبغض امراء المسلمين لبعضهم القدح المعلى وسافر الى الحجاز ليذكى تلك الفتوى من علماء مكة والمدينة فاكرمه الشريف كما اسلفنا وانطلت عليه حيلته كما انطلت على عبد القادر من قبل فلمحه بعض المغاربة فى نزولهم من جبل عرفات فعرفوا انه ذلك الخائن الهارب فقاموا عليه وارادوا التنكيل به لولا ان تداخل الشريف فخلصه وآمنه على نفســه وحباه بنقود يستعين بها على سفره واشخصه الى جدة ورجع منها الى بلاده مسروراً بفوزه ضاحكا على لحى المسلمين الذين لعب على عقولهم فى الشرق والغرب ولله فى خلقه شئون . ! !

وفى العهد المذكور ايضاً اجترأ العالم الالمانى البارون وريد Wrède على التوغل حتى بلاد حضرموت التى لم يسبقه ولم يلحقه اليها أحد من الاجانب كما قال لانييه السابق ذكره وفى سنة ١٨٤٥ دخل العالم الفنلاندي أوجستوس والين Augustus wallin فى الجوف وجبل شمر بزى مسلم واجتاز بلاد العرب من الغرب للشرق وفى سنة ١٨٥٣ رافق الحج المسيو ريشار برتون Richard Burton بزى مسلم أيضاً ووصل الى مكة والمدينة المكرمتين

وفى سنة ١٨٦٢ و ١٨٦٣ تمكن ويليام بلجراف William Palgrave الانكليزى من زيارة بلاد العرب من جهة الشام وشواطئ عمان وملخص ترجمته وقصته على ماجاء فى الكتاب السالف الذكر هو أنه ولد بوستمنستر من أعمال انكلترا سنة ١٨٢٢ وكان أبوه متشرعاً ومؤرخاً انكليزياً شهيراً وتخرج على مدرسة أوكسفورد ثم خدم فى الجيش الهندى وأقام بعدها عدة سنين فى الشام تعلم فى أثنائها العربية وتعرف ببعض الاباء اليسوعيين بها ثم حدثته نفسه بالرحيل لبلاد العرب وساعده

هؤلآء الآباء على انماء هـذه الفكرة وحصلوا على تعضيد نابليون الثالث أمبراطور فرنسا وقتئذ له وصبغوا رحلته بصبغة دينية سياسية سرية نفقاتها دفعت من جيب الامبراطور الخاص فسافر بلجراف مؤملا الوصول الى تحريك ذلك الدم العربى الراكد حسب زعمه وتمدين بلاد العرب بواسطة تسهيله طرق اختلاطهم بالغربيين ومضمراً انتهاز فرصة الشقاق الذى كان بين أهالى نجد لاحداث ثورة دينية سياسية عله يستفيد منها أن يبدلوا دينهم بالدين المسيحى كما هجس بخاطره فتزيا بزى أحد أغنياء العرب وادّعى أنه حكيم واستصحب معه بعض أهل البادية يحرسونه ومسيحياً شامياً جعله تلميذاً له وكان يحمل معه على ظهر ركائبه بعض أدوية وعقاقير تدل على صنعة الطب التى انتحلها لنفسه ولما وصل الى نجد أقام مدّة بالرياض عاصمة الوهابيين وكان يحكم عليها وقتها الامير فيصل وقد كاد هـذا المخاطر بنفسه يلقى منيته هناك من يد ابن هذا الامير الذى أوجس منه الخيفة وقد افتضح بعض أمره لولا ركونه الى الفرار فاجتاز النفود الشرقية وأقام بالهفوف من أعمال الاحساء

وزار القطيف وجزائر البحرين وتوجه لعمان مارّا على هرمز ومسقط ثم قفل راجعاً الى الشام عن طريق البصرة والموصل وماردين وديار بكر

وفى سنة ١٨٦٤ رسم الايطالى كارلو جوارمانى Carlo Guarmani قطعة من بلاد العرب على حدود الشام ثم ن الالمانى وتزتين Wetztein قنصل بروسيا بدمشق اذ ذاك وضع كتاباً فى جغرافية بلاد العرب حسب ما التقطه من أفواه بعض الحجاج ورؤساء القوافل التجارية

وفى سنتى ١٨٦٩ و ١٨٧٠ ساح الالمانى مالتزان De Maltzan والسويسرى مونزنجر Munzinger والفرنساوى هالفى Halevy منفردين بالجهة القبلية الغربية من جزيرة العرب وحصلوا كما يقولون على بعض معلومات مهمة

وفى سنة ١٨٧٩ اجتاز الانكليزى بلونت وامرأته[١]

---

(١) مستعرب شهير من اغنياء انكلترا وزوجته من اعظم عائلات الانكليز وهى حفيدة اللورد بيرون شاعرهم المشهور الذى مات وهو يقاتل متطوعا مع اليونان فى حربها الاول ضد الدولة

بلاد الاردن ومنها الى Mr. et Mme. Anna Blunt الفرات ثم وصل الى الحائل من بلاد نجد واقاما بضع شهور عند ابن الرشيد

وفى سنة ١٨٨١ اخترق هوبر Huber صحارى بلاد العرب البحرية والغربية ومن سنة ١٨٨٢ الى سنة ١٨٨٧ جعل الفلكى النمساوى جلازر Glaser بلاد اليمن موضع بحثه

هذا ولا زلنا نسمع كل يوم بالجرائد وغيرها أن بعضاً من الفرنج قد بارح بلاده قاصداً السياحة والتروح ببلاد العرب والله أعلم بما يضمرون وما يلاقون هناك وما يكتشفون وكذلك كل يوم نقرأ اخبار دسيسة جديدة وفتنة حديثة ولنترك للمستقبل كشف الستار عن هذه الاطماع ونتيجة تلك الغايات

العلمية . والمستر بلونت المذكور وامرأته مشهوران بزيهما العربى وولعهما بالمعيشة البدوية . وكان له شأن فى الحوادث العرابية وصداقة بعرابى زعيمها وله كتابات فى ذلك طبعت بالانكليزية كما ان لزوجته رحلة فى نجد والبلاد التى زاراها مترجمة الى الفرنساوية وقد ترجما المعلقات الى الانكليزية وفى كل عام يقضيان فصل الشتاء بتحاهما المعروف فى عين شمس بضواحى القاهرة . . .

واتماماً للفائدة نثبت هنا رسالة لمكاتب جريدة «جرنال دى سان بطرسبورج» الروسية فى البصرة عربتها عنها جريدة العالم الاسلامى فى عددها الثالث الصادر فى ٢٤ مارس سنة ١٩٠٥ قال المكاتب المذكور:

« لقد علمت من اخبار الكويت انه يوجد بها ثلاثة قناصل من الانكليز. أولهم الذى عين فى شهر اغسطس الماضى والذى كان موظفا فى قنصلاتو انكلترا ببوشهير وثانيهم قنصل البحرين. وثالثهم الرئيس الاكبر وهو قنصل بوشهير الذى بيده قيادة قلم المخابرات ونشر المنشورات فى دائرة الخليج الفارسى. ومعهم بارجة حربية يشتغل بحارتها باختبار حالة الميناء وأخذ مقاييسها. وقد وضعوا رسومات لتشييد برجين ليرفع على كل منهما فنار. وانى لست محتاجا لان اقول ان موظفى هذين الفنارين لا يكونون عثمانيين بل يكونون انكليزاً كالقنصل ومساعديه وخدامه والطبيب والحاجب وعمال التلغراف وعامل شركة الملاحة وبائع نسخ التوراة — ذلك الذى لا أفهم له وجودا فى مدينة اسلامية محضة —

«وان عمل البحارة واضح وظاهر . ولـكن عمل القناصل غامض . الا ان الجهات التي ترسل اليهـا الرسائل وأمورا أخرى دلتني على ان الحـكومة الهندية الانكليزية غيرت خطتهـا الاولى التي كانت ترمى الى الاستفادة من الشقاق المرفوعة أعلامه فوق أهالى بلاد العرب الداخلية والانقسام السائد بين الزعيمين الـكبيرين ابن الرشيد وابن سعود حيث كانت تعضـد هذا الاخير الذى كان ضعيفاً ومعادياً للسلطة التركية ومحالفاً لشيخ الـكويت وقد صار الآن قويا بفضل المساعدات المـالية والاسلحة الحربيـة التي جاءته من الـكويت . ويقال انه انتصر على ابن الرشيد وجمع تحت امرته كافة القبائل فى تلك الجهات وفتح بلاد الجزيرة كلها

«ولـكن ابن سعود أفلح بدون مساعدة انكلترا وأخذ ١٢ مدفعاً من الامدادات التركية التى أرسلت من بغداد أولا ومن المدينة ثانيا . وضمها الى المدافع الاربعة التى أعطتهـا انكلترا لشيخ الـكويت . ويقال انه استولى كذلك على ثلاث رايات تركية أرسل من رجاله من عرضها على كافة القبائل

وأصبح بذلك فى غنى عن الانكليز

«وعندئذ أخذ القناصل الانكليز يخابرون خصمه. ولكن نظرا لكون حكومة الهند الانكليزية ارتبطت من قبل مع ابن سعود ارتباطا فاضحا ولكون القناصل الانكليز هم ضيوف مبارك الصباح فقد جعلوا وجهتهم فى مخابراتهم مع ابن الرشيد عقد الصلح بينه وبين عدوية وأرسلوا اليه يقولون: «اذا قبلت تداخلنا حفظنا لك البقية الباقية من بلادك وتركناك أميرا على حايل وشمر الجنوبية كما كان آباؤك من قبل. وجعلنا ابن سعود اميرا على بلاد الوهابيين ومنعناه من التقدم الى الامام. واذا دعت الحاجة نقدم لك الاسلحة والعدد لمقاومته ونحميك حماية أفضل وأنفع من حماية سلطانك لك!»

«ولكن أهم ما فى الموضوع معرفة مصلحة مبارك الصباح فيه لان نجاح الامر مرتبط به دون سواه. فلننظر فى ذلك:

«انه لو نجحت خطة القناصل الانكليز لصارت بلاد العرب الشرقية خاضعة للسيادة الانكليزية وكانت مؤلفة من ثلاث امارات قواعدها «الرياض» وأميرها ابن سعود و «حايل»

وأميرها ابن الرشيد و « الكويت » واميرها ابن الصباح . وهذه المدائن الثلاث تحكم بلاد العرب في الحقيقة ووقوعها تحت السيطرة البريطانية يعرض سيادة الدولة العلية لخطر جسيم . ولما كانت قوة الاتراك عظيمة في كل الثغور الا في الكويت فان هذا الثغر يكون مصدرا للاسلحة والذخائر الواردة من مسقط والهند . وفضلا عن ذلك فان ابن الصباح يعطي يومئذ دائرة واسعة لنفوذه تمتد من العراق لغاية « شط العرب » وتصل في الشمال الى أخصب منطقة لوادى الفرات حيث ينتظر هناك صديقه « سعدون » اقل إشارة لاشعال نيران الفتنة .

«هذا مايريده القناصل الانكليز . وهو في الحقيقة هدم اركان السيادة التركية في كل البلاد العربية . وقد يستفيد الامراء الثلاثة من ذلك (١) وخصوصاً ابن الصباح . ولكن طلب القناصل جاء متأخرا اذا صح ان دواتلو مصطفى نورى باشا والى البصرة السابق — الذى عزل بسبب الدسائس ووصل الى الاستانة في آخر اكتوبر اى خمسة أسابيع قبل

احتجاج تركيا على تعيين قنصل انكليزى فى الكويت — توصل الى اقناع حكومة جلالة السلطان بوجوب العفو عن الامراء الثائرين واستمالتهم اليها وكان حقا ماقال من ان جلالته عفا فعلا عن ابن السعود وابن الصباح وأمر ابن الرشيد بأن يبقى ساكناً فى بلاده . ولكن هل قبل الامراء ذلك ؟ ان الامر مختص فى الحقيقة بمبارك الصباح لانه الواسطة الى ابن سعود

«ومما لاشك فيه ان هذا الشيخ شعر الآن بعجزه عن نيل الاستقلال وباضطراره للاختيار بين أحد امرين . اما تبعيته لسيادة تركية مركزها بعيد عن بلاده . واما خضوعه لسيطرة بريطانية يستقضى حتما باستعباده . وان الهند مع امرائها الخاضعين المستعبدين ليست ببعيدة عنه . وكثير من رعاياه يذهبون اليها فى كل عام ليلتقطوا اللؤلؤ فى البحرين . وهذه جزائر البحرين على مقربة منه . وقد عرف كيف صار سلطانها فى أتعس حال بتغلب الهنود عليه واستيلائهم على الثروة كلها : ولكنه يعلم من جهة أخرى أن الموظفين العثمانيين يستطيعون يوما ما الهجوم على أرضه ومحو آثار اماراته . وهو

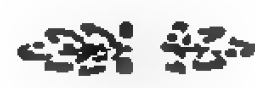
يخاف بنوع خاص — وكم قال له الانكليز ذلك؟ — أن تصدر ارادة سلطانية بجعل الكويت آخر محطة لسكة حديد بغداد وترتعد فرائصه لهذا التداخل المخيف

«غير ان أحد أصدقائه من الاوروبيين اقترح عليه حلا بسيطاً « ويقال انه قبله » . وهو ان تضمن له الروسيا وفرنسا بالاتفاق مع انكلترا استقلاله الداخلي تحت سيادة الباب العالي . وقد استطلع رأى هذه الحكومات بصفة غير رسمية ولم تأته النتيجة بعد . ولكن عمال الحكومة الهندية الذين يسبقون على الدوام الحكومة الانكليزية يحاولون عقد اتفاق يقضى بسيادة انكلترا على اتحاد الامارات العربية ».

هذا هو مجمل حال جزيرة العرب في الوقت الحاضر فالدسائس تلعب بها وبامرائها ولا يعلم غير الله ماسيكون من امرها ولا يسعنا الا ان نسأله سبحانه وتعالى ان ينير بصائر القوم حتى يعرفوا الضار والنافع لهم ويتجسم لنظرهم الخطر المحدق بهم المهدد لبلادهم فيعملون الى تلافيه ويعتبرون بما حصل لغيرهم !!

الباب الاول

فيما كان عليه العرب قبل الاسلام



﴿ الفصل الاول ﴾

نسب العرب وطبقاتهم — طبائعهم وأحوالهم وصفاتهم وذكر بعض عاداتهم الزواج والطلاق عندهم وكيفية أحكامهم — معتقداتهم الدينية وحروبهم وأسلحتهم وثقويمهم — لغتهم وأشعارهم وشعراؤهم وأسواقهم والكتابة عندهم آدابهم وعلومهم وتجارتهم وصناعتهم ونقودهم

العرب أمة قديمة الرياسة على الامم طائرة الصيت فى الآفاق نالت من العز والمنعة امداً بعيداً حتى بلغت من العظمة وسموّ المنزلة مالم يبلغه غيرها من الامم المضروب بها الامثال

نسب العرب وطبقاتهم — وخلاصة ماورد فى الكتب عن نسبها أنه يتصل بسام أحد أولاد نوح الذين نجوا معه من الطوفان وهى تنقسم الى طبقة بادت ودرست أخبارها ولم يرد فى التواريخ منها الا القليل ومع ذلك فانه مشوب بالخلط لا يعلم فاسده من صحيحه وسنذكر فيما يأتى طرفاً من ذكر بعض قبائلها مثل عاد وثمود وطسم وجديس ٠ والى طبقة

باقية وعربها يرجعون كلهم الى قحطان أبى العرب كلهم كما سيجئ والى عدنان ولد اسمعيل عليه السلام ولهذه الطبقة حالان حال الجاهلية وحال الاسلام وعرب الطبقتين متحدون. فى الطبائع والعادات على اختلاف طبقاتهم الست التى هى الشعوب والقبائل والعمائر والبطون والافخاذ والفصائل. وبنو قحطان يسمون العرب العاربة وبنو اسمعيل العرب المستعربة نسبة الى أبيهم اسماعيل الذى كان عبرانياً اعجمى اللهجة وانما استعرب لمخالطة العرب العرباء ومصاهرته لهم كما سيأتى والعرب العاربة يسمون أيضاً القحطانيين والسبئيين والحميريين والكهلانيين واليمنيين والكلبيين نسبة الى بعض أولاد قحطان. وتعرف بنو عدنان بالاسماعيليين والمعدّيين والمضريين والقيسيين

وفى تسمية هذه الامة بالعرب أقوال أشهرها انها سميت بذلك نسبة الى لغتها أى لفصاحة لسان أهلها وعدم لحنهم فى الاعراب وقيل نسبة الى يعرب بن قحطان أبى اليمن كلهم وقيل غير ذلك

وجاء في كتاب موسوعات العلوم الفرنساوى المطبوع بباريس أن قحطان المذكور هو يقطان بن عابر بن سام المذكور في التوراة

طبائع العرب وأحوالهم وصفاتهم وبعض عاداتهم —

ومن عهد التاريخ القديم الذى تكوّنت فيه الممالك القديمة والدول العظيمة كدول مصر ودول اليونان ودول الفرس الاولى كانت أمة العرب عريقة في القدم قائمة الملك على ساق وقدم وان لم تكن لها دولة تضبطها ولا روابط سياسية تربطها. حريتها فطرية تأنف الخضوع والذل. فلهذا لم تكن في الاحقاب الخالية تحت استرعاء دولة من الدول واذا غالبها جيش قوى بالقوة أو الكثرة لا يكاد يتمكن من ادخالها تحت الطاعة ولا يستطيع أن يغير أخلاق أهلها ولا طباعهم ولا يمكنه أن يبدل صفاتهم المميزة لهم . فان كانت لهم طاعة اقتضتها صروف الحدثان فهى طاعة صورية يتنصلون منها عند الامكان

وكان لهم من الحرية والعزة أعلى مزيه فلهذا بقيت

أخلاقهم على تداول الدهر واحدة اذا خرجوا الى النجعة قبل أن يعزموا على الرجعة

ولما تغلب قيروش ملك الفرس على مصر والشام وخلفه على تلك البلاد ابنه قامبيز طمع لقربه من بلاد العرب فى أن يسترعيهم كما استرعى من بجوارهم فلم يستطع وخاب أمله حيث استمروا على الحرية ولم يذوقوا طعم ذل التابعية وكذلك لما تغلب الاسكندر الاكبر على بلاد المشرق والمغرب لم ترض العرب أن تنتظم تحت لوائه ولا حلت تحت حكمه وولائه ولما حكم الرومانيون جميع بلاد الدنيا وصارت دولتهم فى أيامهم هى العليا ولم يسلم من حكمهم الإماندر من البلاد ولا خلا من أسرهم الا قليل من العباد بقيت جزيرة العرب فى دولتهم مستبدة بأمرها مستقلة بنفسها يحكمها شيوخها وأمراؤها وملوكها وكبراؤها ولم تنقد للدولة الرومانية طرفة عين ولا دخلت تحت استعبادها . نعم كان للرومانيين والفرس بعض ولاء على طرف من بلاد العرب القريبة للسواحل ولكن لم يستطع أحدمنهم أن يمس استقلال باقيها وحريته

ولم يدع من تطاولت عليهم يد الاجانب أيّ فرصة بدون أن ينتهزوها للخلاص من ذلك الاسر ورفع نير الاسترقاق والذل. على أنه لم تملكهم الاجانب الا بنفس الوسائل والدسائس التي ضاع بها كثير من البلدان في كل الازمان حتى في عصرنا هذا كما رأيت وسترى فيما بعد

والعرب على اختلاف طبقاتهم وفي كل أجيالهم اما حضريون يأون القرى والضياع ويسكنون الدور والمساكن وهم أهل الامصار والمدن وهؤلاء يصح في بعضهم الآن ما قاله عنهم ابن خلدون منذ سنين من « أنهم تلوثت أنفسهم بكثير من مذمومات الخلق والشر وبعدت عليهم طرق الخير ومسالكه بقدر ما حصل لهم من فنون الملاذ وعوائد الترف والاقبال على الدنيا والعكوف على حب المال والكذب والشهوات حتى لقد ذهبت عنهم مذاهب الحشمة في أحوالهم فتجد الكثير منهم يقذعون في أقوال الفحشاء في مجالسهم وبين كبرائهم وأهل محارمهم لا يصدّهم عنه وازع الحشمة لما أخذتهم به عوائد السوء من التظاهر بالفواحش،

قولاً وعملاً وبالجملة فهم اهل غدر ومكر وخديعة ونقض عهد اهـ . على أن هـذا الوصف لا ينطبق على كل أهل المدن والامصار فان منهم من هو على غير ما ذكر فهو ذو صفات حميدة منها أنه كثير الصدقات والزكاة مواظب على العمل عفيف النفس طاهر الذيل قائم بشعار دينه الذى ينهاه عن الفحشاء والمنكر ويأمره بالمعروف والعدل والاحسان وبأن يعمل لدنياه كأنه لا يموت أبداً ولآخرته كأنه يموت غداً وان كان عدد اولئك قليلاً

واما رحالة اضطروا لسكنى البادية لأنهم وجدوا فى أرض قفرة تراكمت عليها الرمال المحرقة لا تنبت لهم حباً ولا بقلاً آبارهم تجف فى حرارة القيظ وتبخل بالماء على بعد قاعها فيظعنون لورود غيرها من المناهل. وفى خلق الابل لهم نعمة كبرى: فهم يعيشون من ألبانها ولحومها ويرتادون المسارح بها ويتطلبون المرعى والكلأ لها ولا يزالون فى حل وترحال فى طلب العشب وابتغاء المياه: ذلك دأبهم زمان الصيف والربيع فاذا جاء الشتاء واقشعرت الارض انكمشوا الى بلاد الحضر

فشتوا هناك مقاسين جهد الزمان مصطبرين على بؤس العيش.
وسكناهم فى البادية امر طبيعى. وهم وان نزلوا الامصار ورفعوا بيوتهم من الحجارة لما اتسعت من حولهم المزارع والمسارح لحيواناتهم لكنهم يحتسبون المدن محبسا لا صبر لهم عليه لان الحرية عندهم من أفضل ما منحهم الله وهم يبذلون نفوسهم ونفائسهم فى استبقائها فيهم

ويمتاز أهل البدو منهم بقسوتهم ومع كونهم أصعب الامم انقيادا للغلظة والانفة وبعد الهمة والمنافسة فى الرياسة حتى قلما تجتمع اهواؤهم هم أسرع الناس قبولا للحق والهدى لسلامة طباعهم. وهم كما قال العلامة ابن خلدون «أهل انتهاب وعيث ينتهبون ماقدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر ويفرون الى منتجعهم بالقفر ورئيسهم محتاج اليهم غالبا للعصبية التى بها المدافعة فكان مضطرا الى احسان ملكتهم وترك مراغمتهم لئلا يختل عليه شأن عصبيته فيكون فيها هلاكه وهلاكهم»

وقال العلامة المذكور: «ولما كانت سياسة الملك تقضى

ان يكون السائس وازعا بالقهر والا لم تستقر سياسته وكانت طبيعة العرب أخذ ما فى أيدى الناس خاصة والتجافى عما سوى ذلك من الاحكام بينهم بعدت طباعهم عن سياسة الملك وانما صارت اليها بعد انقلاب طباعهم وتبدلها بصبغة دينية مسخت ذلك منهم وجعلت الوازع لهم من أنفسهم وحملتهم على دفاع الناس بعضهم عن بعض وعلمتهم مكارم الاخلاق والآداب ونهتهم عن السلب والنهب والاثم والعدوان»

وأول صفة من صفات العرب حب المحمدة والشهامة والحرص على ما يوجب الذكر الجميل من العظائم والثناء الحميد من المكارم وهذه الصفة كعلو الهمة والحمية والنجدة من أركان الشجاعة التى هى صفة جامعة لذلك فكانوا يحبون المحامد والمفاخر وبعد الصيت بما يعدونه عندهم من الفعل الجميل كانتصارهم على الاعداء وكسب الغنائم فكانت النصرة عندهم تقوم مقام الحقوق المدنية عند الاجانب لما يترتب عليها من المزايا الاجتماعية أو هى عين حقوق الحرب والصلح عند الامم المتمدنة وانما كان يتولاها صاحب الحق بنفسه أو بقبيلته لان

افراد العرب جميعهم كانوا كما قدمنا يسوسون انفسهم بأنفسهم وكانوا ينتقمون من العدو بأخذ الثار فكان القصاص عندهم يستوى فيه سائر العشائر والقبائل فلا قبيلة الا وتأخذ ثارها من القبيلة الاخرى ولا عشيرة الا وتستوفى ثارها وتتقى عارها فكانت المحمدة على الخير والشر باعثة لهم على كسب المحامد أو المثالب كما يحكى أن بعض العرب وقف على قبر عامر بن الطفيل بن مالك العامرى فقال يرثيه: «أنعم ظلاما أبا على فلقد كنت تشن الغارة. وتحمى الجارة. سريعا الى المولى بوعدك بطيئا عنه بوعيدك. وكنت لا تضل حتى يضل النجم. ولا تهاب حتى يهاب السيف. ولا تعطش حتى يعطش البعير. وكنت خير ما تكون حيث لا تظن نفس بنفس خيرا.» فقدمدحه بأحسن ما يوصف به عربى

وقد كان بقاء ذكر الانسان بعد الموت يعد بمنزلة الحياة:

قال بعضهم

فأثنوا علينا لا أبا لأبيكم ... بافعالنا ان الثناء هو الخالد

وقال آخر

فان يك اغنته الليالى فأوشكت فان له ذكرا سيغنى اللياليا

ومن صفاتهم ايضا النجدة وعدم الجزع عند المخاوف فكانوا منها على مكانة علية فكانت احلامهم تحمل اجسامهم مالا يطاق وسواء فى ذلك الشخص او القبيلة كما قيل فى الاول

أكر على الكتيبة لا أبالى أفيها كان حتفى ام سواها
ولى نفس تتوق الى المعالى ستتلف او ابلغها مناها

وقيل فى الثانى

وكفى تستقل بحمل سيفى وبى ممن يهضمنى امتناع
وحولى من بنى قحطان شيب وشبان الى الهيجا سراع
اذا فزعوا فأمرهمو جميع وان لاقوا فايديهم شعاع

فكان اذا خطر بقبيلة منهم ذات يوم فكرة اقتحام خطر من الاخطار لقضاء وطر من الاوطار اتحد أفراد القبيلة وصاروا على تاب رجل واحد وهموا بانجاز ما أضمروه وقل ان يفوتهم نجازه كما قيل

كانوا على الاعداء نارا تلتظى واقومهم حرما من الاحرام

وكان طريق وصولهم الى مقصودهم بشيئين متوفرين

عندهم وهما : اتحاد القبيلة فى اللغة واتحادها فى الدين اذ كان لكل قبيلة لغة ودين خاصين بها . ولو كانت القبائل العربية فى تلك الازمان الاولية يجمعها لسان واحد ولهجة واحدة مع التمسك بدين واحد لما ساواها غيرها من الامم فى السطوة والبأس ولا خلص من الدخول فى دولتها أمة من الامم ولا احد من الناس ولا بقيت مجهولة مدة من الزمان وا كبر شاهد واعظم دليل على ذلك وعلى فضل الاتحاد ومزاياه التى لا تنكر ماوقع من العرب بعد ان اتحدوا فى المعتقد وجمعتهم جامعة دين واحد فى الاسلام فكم فتحوا أمصاراً ودوّخوا أمماً واقطاراً حتى اكبرتهم كل الأمم وصارت لهم هيبةً فى كل القلوب

ومن صفات العرب كذلك الحمية والغيرة على العرض وشرفه وحفظ ناموسه وهذه الصفة بعينها هى التى بعثتهم جميعاً مع اختلاف قبائلهم على علوّ الهمة وكمال الشجاعة وكرم النفس وقد تغالى بعضهم فى شرف المحافظة على العرض حتى ادّاهم الغلو فيه الى صفات ذميمة كوأد البنات الا انهم كانوا يرون الباعث عليه حميداً وهو دفع العار او خشية الاملاق

المترتب عليه عــدم وجود الـكفء للزواج فيخشى عليهن التفريط فى العرض او الميل لغير الـكفء للعجز عن التكسب ولما اعتنق العرب الدين الاسلامىّ الحنيف تخلصوا من كثير من العادات الذميمة والاخلاق الفاسدة ومنها هذه العادة: قال الله تعالى « ولا تقتلوا أولادكم خشية املاق: نحن نرزقكم واياهم »

وكان صعصعة جدّ الفرزدق يشترى البنات ويخلصهن من القتل كما قال الفرزدق مفتخراً

ومنا الذى منع الوائدات   وأحيا الوئيـدة لم توأد

والظاهر ان الوأد لم يكن مع ذلك كثيراً وان كان واقعاً فان العرب كغيرها من الأمم تحرص على النسل حيث هو أمر طبيعى. بل كان نادراً فقد عهد عندهم زواج الفقيرة لابناء المـلوك وزواج امرئ القيس وبحثه فى احياء العرب عن ذات عقل يؤيد ذلك كما يؤيده ايضاً قصة بنات المحلق الـكلابى

وقد كان كذلك لدى الامة العربية كثير من الصفات التى تبرهن على ميلها للسعادة والارتقاء الى درجـة الامم

العظيمة وان كانت بقيت محتاجة لاحكام الرابطة وتوحيد الكلمة الى زمن ظهور الاسلام واقبالها عليه . فمن تلك الصفات الشريفة ما امتازت به عن سائر الأمم من علوّ الهمة وشرف النفس وحفظ حرمة الجوار والمحاماة عن المظلوم والوفاء بالوعد وصدق العهد والجرأة والاقدام وحب عظائم الامور والكرم والجود. وحسب الانسان ترديد نظراته فى ديوان تاريخها ومفاخرها يجد اشعارها مشحونة بكل ما ذكر

فمن نظر فى أقوال شعراء العرب وخطبائهم عرف مقدار ما كانوا عليه من الصفات الممدوحة والسجايا الفاضلة واستدل على شؤنهم وأحوالهم

وأىّ شئ أدل على الوفاء وعلوّ النفس والتفاخر من قصيدة السموأل التى مطلعها

اذا المرء لم يدنس من اللؤم عرضه

فكل رداء يرتديه جميل

وعلى الكرم وحفظ الجوار من قول عمرو بن الايهم التغلبى

ونكرم جارنا مادام فينا ونتبعه الكرامة حيث مالا

وعلى الجود وعلوّ الهمة وشرف النفس من قول حاتم طى

أماوى ان المال غاد ورائح ويبقى من المال الاحاديث والذكر
وقد علم الاقوام لو ان حاتما أراد ثراء المال كان له وفر
يفك به العانى ويأكل طيبا ويحفظ عرضا ان هذا هو الفخر

والشواهد كثيرة على تلك الصفات الجميلة التى كانت تعقد لها المفاخرات وتقام لاجلها المنافرات بأسواقهم الشهيرة كعكاظ وذى المجاز وغيرها تنشدفيها قصائدهم الغرر المتضمنة للفخر والحماسة وذكرى الحوادث والحروب والمدح والقدح مما سنذكر طرفا منها حين التكلم على الشعر والشعراء

والعرب الآن على حالتهم الاصلية لكون علائق المعايش بينهم مستمرة على ما هى عليه ولم يخالطوا أنسابهم بالاجانب فتراهم أكثر أهل المشرق سفكاً للدماء وكرماوأشد الناس انتقاما وايواء للضيوف وأكثرهم كبرا ومعروفا واذا ساغ تشبيه الناس بكرائم الحيوانات — وهو تشبيه لا يغضب البدو فكم رأينا منهم من يبكون على فرسهم كانهم يبكون اعز أصحابهم — صح أن يقال فى العرب: ان لهم حمية وقناعة وصبرا كابلهم

وقد اصاب السائح بورك هارت فى وصفه البدو اذ قال : يمتاز البدوى بحب الضيافة والكرم وحفظ الذمام ورعاية الغريب والشهامة والحماسة والذكاء وخفة الروح والقناعة وحب البدوى للحرية يحمله على احتقار أهل الحضر فانه بمعاملتهم قد عرف منهم الخداع والمكر اه

ومن محاسنهم التى يحسن ان يقلدوا فيها غض الطرف عن عورة الجار وعدم التعرّض لحرمه فقد كان الرجل منهم يسافر ويترك زوجته فى بيته فيدونها جاره وهو أنزه الناس عن التعرّض لها بسوء بل انه يكون عليها أكثر غيرة من زوجها لكونها فى رعايته حتى يعود كما قال فى ذلك عنتر العبسى :

واغض طرفى حين انظر جارتى حتى يوارى جارتى مأواها

ومن صفات العرب أيضا الفصاحة والمشهورون بها كثيرون لا يحصون. والحكمة ومن مشاهيرهم فيها لقمان ابن عاد كان من حكماء العرب ودهاتهم. والخطابة وممن اشتهر فيها سحبان وائل. ومن عوائدهم ايضاً التى حفظتهم وحفظت أنسابهم وقوتهم انهم كانوا لا يخالطون غير جنسهم الا لمخالطة التجارة

ولا يدخلون فى أنسابهم دخيلاً من غيرهم لا من جهة العصب ولا من جهة الرحم ويستنكرون ذلك استنكاراً عظيماً حتى ان ذلك اذا كان فى خيلهم وابلهم استنكروه واستنكفوا منه(١) وبجانب هذه الصفات الحميدة كان لدى العرب من العوائد

(١) كان اسماعيل أول دخيل من العجم فى ولد قحطان الذين هم العرب ثم كانوا بعد ذلك يتحاشون غاية التحاشى من مداخلة العجم ومع ذلك فربما كان بعض الوضعاء أو من غلبت عليه البهيمية داخل غير العرب وكان منه نسل. فاذا كان الفحل عربيا والانثى غير عربية سمي النسل الحاصل هجينا ومنه اشتقاق الهجنة وهجنه أى قبح أمره. واذا كانت الانثى عربية والفحل غير عربى سمي النسل مقرفا فالعرب كانوا يتحاشون الهجنة والاقراف بل كان بعض القبائل يحافظون على انفسهم ولا يخالطون غيرهم من العرب كما سبق ايضاحه حتى ان ايادا أحد شعوبهم لما ساكنت الفرس وخالطتهم سقطت منزلتهم بين العرب واحتقروا احتقاراً شديداً وعدوا من العجم واتقيت مداخلتهم يرشدك الى تحقيق ذلك ان قبيلتى تغلب وبكر اللتين يجمعهما وائل ابن ربيعة قوى امرها وعزا فى العرب وقهراً كثيراً من الناس وفى بعض الايام نزل منهم رجل بناحية قريبة من بلاد الفرس من منازل اياد ومعه ابنته وكانت من اجمل نساء العالم فوشى بها رجل من اياد لدى ملك الفرس فاغتصبها من ابيها ثم عرض عليها جميع المشتهيات وخوفها بجميع

القبيحة التى تقشعت غيومها بظهور أنوار الديانة الاسلامية مانذكر بعضاً منه فمن ذلك الاشتغال بالخمر والميسر والانصاب والازلام المحرمة فى قوله تعالى (يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم

العقوبات ومسها بكثير من المؤلمات ليرى وجهها فابت وخيرته بين أن يقتلها أو يعيدها لابيها فلما يئس منها اسكنها فى موضع وأجرى عليها الوظائف الترفهية واكتفى برؤية قامتها تحت ملابسها فى بعض الاحيان وبسبب ذلك نشبت حروب بين العرب والفرس وانقضى الامر بقتل ملك الفرس وتخليص الفتاة ومن كلامها (وكان اسمها ليلى بنت لكيز) فى أثناء ماحصل لها تحت أهلها والعرب على تخليصها ونفى العار عنهم

ليت للبراق عينا فترى ما ألاقى من بلاء وعنا
يا كليبا وعقيلا اخوتى ياجنيدا اسعدونى بالبكا
عذبت أختكمو ياويلكم بعذاب النكر صبحا ومسا
غللونى قيدونى ضربوا ملمس العفة منى بالعصا
يكذب الاعجم مايقربنى ومعى بعض حشاشات الحيا
قيدونى غللونى وافعلوا كل ماشئتم جميعا من بلا
فأنا كارهة بغيكم ويقين الموت شئ يرتجى
يابنى كهلان يااهل العلا أتدلون علىّ الاعجما

تفلحون) أما الخمر فقد كانت لهم مغالاة فى شربها ومفاخراتهم مشحونة بذكرها وأوصافها وأسمائها وكان شربهم لها فى معظم أوقات اليوم وكانوا يسمون الشرب فى كل وقت باسم خاص به ولا يخفى ما فى شربها من المضار البدنية والعقلية والمالية وما تنتج من وخيم العواقب

أما الميسر فمن الامور التى قادهم اليها حب الظهور بالثروة والغنى وحيث كانت هذه العادة قبيحة جالبة للشر مسببة للحقد والضغائن والشح ممن لم يكن لهم حظ فى الغنم وكان من نصيبهم الغرم حظرها الاسلام

يا لبادا خسرت ايديكمو ... خالط المنظر من بردعمى
فاصطبارا وعزاء حسنا ... كل نصر بعد ضر يرتجى
أصبحت ليلى يغلل كفها ... مثل تغليل الملوك العظما
وتقيد وتكبل جهرة ... وتطالب بقبيحات العنا
قل لعدنان هديتم شمروا ... لبنى مبغوض تشمير الوفا
واعقدوا الرايات فى اقطارها ... واشهروا البيض وسيروا الى ضحى
يابنى تغلب سيروا وانصروا ... وذروا الغفلة عنكم والكرى
احذروا العار على اعقابكم ... وعليكم مابقيتم فى الدنا

أما الانصاب فكانت حجارة أو قطعا من الصخر يقيمونها على أشكال مختلفة ويتقربون اليها بأنواع القرابين زاعمين انها تشهد لهم بأعمالهم عند الله وتشفع لهم ولا يخفى ما فى ذلك من الشرك والضلال أما الازلام فكانت على جملة اشكال منها اجالة القداح ومنها ما هو عبارة عن ثلاث قطع من الخشب واحدها زلم وتسمى ازلام الاستخارة وازلام الاستقسام كان يكتب على أحدها آمر وعلى الثانى ناه والثالث يبقى غفلا ثم يخلطها الرجل عند ما يعقد عزيمته على أمر ثم يخرج منها واحدا فان كان الآمر أقدم على ما عزم عليه وان كان الناهى احجم وان كان الغفل استأنف الخلط وغير خاف ما فى ذلك من البعد عن الحق والضلال فى الاعتقاد بنسبة الامور لغير فاعلها المختار فنهى الاسلام عنه كما نهى عن غيره من المعتقدات الفاسدة

وكان من عوائدهم كذلك الاستسقاء بالعشر وذلك انهم كانوا يخرجون فى أوقات الجدب واحتباس المطر لطلب السقيا فيجمعون حزم النبات المسمى بالعشر والسلع ويربطونها فى اذناب البقر ثم يشعلونها بالنار ويصعدون البقر على هذه

الحال الى الجبال والربوات المرتفعة مفرقين بينها وبين أولادها.
هذا وقد جرب بعض علماء الفرنج حديثا انزال المطر باطلاق الدخان الكثير المتكاثف فنجحت بعض التجارب بامريكا وهو المسمى بالامطار الصناعى

ومن عوائدهم القبيحة أيضاً معاملتهم للمرأة معاملة الرقيق وهى من العوائد التى أبطلها الاسلام باعطائه للمرأة حقوقا وامتيازات لا توجد لها فى قانون آخر كما يعلمه كل من له المام بعلم الحقوق والشريعة الاسلامية الغراء كما كانوا لا يورثون النساء والاطفال ويقولون لا يرث الا من طاعن بالرماح وذاد عن الحوزة وحاز الغنيمة فلما جاء الاسلام جعل لهن نصيبا مفروضاً كما قال تعالى (للرجال نصيب مما ترك الوالدان والاقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والاقربون مما قل منه أو كثر نصيبا مفروضاً)

وكانوا يتجرون بالرقيق ويقتنون كثيرا من الجوارى ويعدون أولادهم منهن عبيدا ويعاملونهم معاملة الارقاء الا اذا اظهر أحدهم نجابة أو بسالة أو مكرومة مما يفتخر به العرب

فحينذاك يعترفون بهم ويخولونهم حقوق البنوّة كما وقع ذلك لعنترة العبسى فلما جاء الاسلام قيد الاسترقاق بقيود جعلته نادرا وأوصى بالرفق بالرقيق وحسن معاملته وحث على العتق كما لا يخفى على كل مطلع غير ذى غرض

وكانت العرب فى الجاهلية تفعل أشياء اقرّ الاسلام كثيرا منها فكانوا يحجون البيت ويعتمرون ويطوفون ويسعون ويقفون المواقف كلها ويرمون الجمار ويغتسلون من الجنابة ويداومون على المضمضة والاستنشاق وفرق الرأس والسواك والاستنجاء وتقليم الاظافر ونتف الابط وحلق العانة والختان. قال صلى الله عليه وسلم: خمس من الفطرة: الختان والاستحداد وقص الشارب وتقليم الاظافر ونتف الابط وكذلك فى حديث البخارى المتعلق برسول ملك غسان الى هرقل ما يدل دلالة صريحة على انه كان من عادة العرب الختان. وكان من عادتهم أيضاً قطع يد السارق اليمنى فأبقاها الاسلام وكانوا يقتلون أسرى الحرب الا اذا أكل الاسير أو شرب من مال من أسره فانه يأمن القتل فاذا أمنوه

أطلقوه وجزوا ناصيته وكان الشريف اذا أسر فدى بالمئين من الابل .

ولما جاء الاسلام ابطل الاسر بين العرب وجعل لذلك شروطا وحدودا وحاثا على العتق والتحرير واحسان معاملة الاسير .

ويحسن بنا بعد ذكر صفات الرجال وعاداتهم ان نتفكه بوصف البدويات: فهن فى البادية أكثر من الرجال عددا وبالطبع ألين جانباً وأرق طبعا ولسن مع ذلك دون الرجال نخوة وشهامة : يطقن التعب وتحمل المشاق وتجشم المصاعب ويشاطرن رجالهن كل أنواع المتاعب فيقمن بكل ادارة بيوتهن ويساعدنهم حتى فى غزواتهم ولهن بهم تعلق شديد . وهن أشد تعلقا بالبداوة من الرجال ينفرن من الحضارة أى نفور وعندهن من الاحكام السائرة : أنه اذا طلبت احدى بناتهم لرجل من الحضر أن تقول « صكاك باب ما أريدنه » أى إنه إذا نام أغلق بابه فهو اذاً جبان لا يليق بها . ولهن عدا ذلك مهارة وطرق لطيفة فى نقد الرجال . وزى الملابس عندهن على نمط واحد يكاد لا يتغير فالبنات البكر فى اكثر الاوقات

يقصصن الغرة أو الطرة ويبرزن شعورهن فوق الجبين الى قرب قمة الرأس واذا تزوجن أرخينها وسترن شعورهن بالمنديل وهى علامة فارقة بين البكر والثيب. ويستعملن بلا تكلف أموراً كثيرة لو خطرت ببال نساء الفرنج لعقدن لها مجلساً وصفقن لها بالايدى وأذعنها بصحف الاخبار ومادرين ان البدويات سبقتهن اليها ولم يباهيهن بها والفرق بين الزيين ان تلك ثابتة وهذه متقلبة فتراها كل يوم فى شان. فزى البدو اذاً حضرى مألوف وزى الحضر بدوى مخلوف. فالاردان المتسعة المهملة عند نساء الفرنج مستعملة فى البادية وكذلك الاردان الضيقة المستعملة الآن ووجه ذلك أن يجمعن بين الهيئتين. والنساء المثريات يلبسن الثوب الضيق الاردان ويتردين فوقه بكساء متسع الاردان ضافى الحواشى. أما الذيول الطويلة المنحصر استعمالها بين بنات التمدن فى ملابس العرس او الاثواب البيتية فلها استعمال شائع فى كل بادية العرب. وجر الذيل فى كلام الشعراء لا يكاد يخلو منه كلام منظوم وعندهن أيضاً المشد المستعمل لدى نساء الفرنج المعروف

« بالكورساچ » (Corsage) فقد اتخذن نوعا منه يصنع من نسيج خام فهو أكثر ليونة وألطف بنية من مشدات الحديد والفولاذ ولا يستعمل الا قليلاً بحيث لا يضايقهن .. ولهن نوع آخر منه لتعظيم الصدر فى النساء الضئيلات .. وغير ذلك . ومع أن الذوق العصرى يغالى بجمال الملابس المذكورة ويدعى الاسبقية فى استنباطها فهى معروفة فى البادية منذ عشرات المئات من السنين تفنن فيها بدو العرب وحضرهم منذ القدم ودعوها العظامة والمرتد والعجيزة وقالوا فيها غير ذلك . فقط لم يصلوا بشىء من تفننهم الى انمائها وترقيتها الى حد مقتضيات النمو والارتقاء فى الزمن الحالى . وجملة ما يقال: ان ملابسهن سهلة المنال لا تكلفهن مالاً جزيلاً ولا وقتاً طويلاً وهن وان تزين بأفخر ما عندهن رشيقات القد خفيفات الحركة لا يلجئهن ضغط الملابس الى التكلف والتضرر والاستثقال . والمخدرات منهن يتبرقعن خارج الخدر ويسدلن على وجوههن المنديل الاسود ويؤثرن فى الملابس كثرة الالوان وأحسنها الاحمر ويلبسن من الحلى الضخم الثقيل

كالخلاخل والحجول الكبيرة ذهبا وفضة كلٌ على ما وسعته حاله ويعلقن الخزامات المتسعة بأنوفهن وأكثرها مصوغ من الذهب مرصع بالحجارة القليلة الثمن كفصوص الفيروزج الصغيرة . ولهن أقراط طويلة عريضة قد تبلغ القيراطين طولا بعرض قيراط واحد. ويصغن الذهب والفضة عقوداً وقلادات طويلة على ضروب شتى . ولهن من أنواع التزين الحناء فهي شائعة الاستعمال فيصغن بها الاكف والاصابع والاظافر وأخامص الاقدام واصابع الارجل . والخضاب الاحمر على الشفاه . وتكحيل العيون بالأثمد. وقد يزججن حواجبهن ويطلين شعورهن بالدهن المصفى .ولهن ولع خاص بالوشم. ويحلين بالصبغة الزرقاء والسوداء جلود أيديهن بنقوش مختلفة ويجعلن نقطاً صغيرة فى منتصف الجبهة ومارن الانف والذقن وربما وشمن الشفاه السفلى والوجنات والسواعد والاقدام

أما أخلاقهن فهى بالجملة حسنة وخير ما يزينهن عزة النفس وشدة التعلق بالاهل والازواج وقيامهن مقامهم فى

اكثر الاعمال ولا يقوم الرجال بشيء من أعمالهن. فاشتغال البدوى مقصور على الغارات والغزوات والمرأة دفينة ومعينة له فى كثير منها وجميع مابقى مفروض على المرأة بحيث لو انقطع الرجل مدة فى طلب السلب والدفاع كانت هى ربة البيت مكلفة بكل ما تستلزمه ادارة المعيشة والتربية فاعتماده عليها تام أو يكاد واعتمادها عليه ناقص. وهى مع ذلك راضية وهو غير راض وذلك أمر حتمى فى كل هيئة غير عريقة فى التمدن. ومما كان ولا يزال شائعاً بين العرب العشق والهيام المؤدّى فى أغلب الاحيان الى الجنون ولكن فى الغالب كان عشقهم مع العفة التى لم يسمع بمثلها فى البلاد ولذا كثيراً ما رأينا أشعارهم مشحونة بالغزل والتشبيب ولكن يندر فيهم ما امكن الخيانة وعدم العفة

أقضية العرب وترتيب حكوماتهم — سبق القول بان من العرب من كانوا يقسمون الى دول عظيمة يتوارثها ملوك والباقى كانوا قبائل شتى والاحكام فى البادية موكولة الى الشيوخ والامراء وهى بكل فروعها وملحقاتها تمثل مبادئ الحكم الفطرى. فالقوة لمن غلب وتتبعها السلطة والثروة والنفوذ المطلق

وقد مرّ بنا أن البدو هم دائما بين عدو وصديق ونزيد الآن ان التضاغن والتصافى قد يبلغان عندهم حدّ التحالف الفعلى وقد يتطرفان الى ما وراء ذلك بأن تتحالف قبائل كثيرة تحت لواء واحد فمن ثم يصبح صاحب ذلك اللواء متسلطا عليها جميعا. وقد ينفرد بين جماعة من الشيوخ رجل واحد فيتسلط إما بقوته وإما بحزمه وإما بدسائسه. ولا يفضل عندهم الامير على الشيخ ولا الشيخ على الامير الا بنسبة مقامه وللشيوخ والامراء الحكم المطلق والنفوذ المفرد فسلطتهم اذاً نافذة فى كل شيء: يقضون بما يشاؤن معتمدين على الشرع المعروف والعرف المشروع وما من شافع لديهم الا ذمتهم وما حملت. والبدو من حيث الطمع والاذعان جامعون بين الضدين فاذا غلت أيديهم عن التحامل وضاقت بهم الحيل قنعوا باليسير وأخلدوا وان تبينوا سبيلاً الى الاستطالة هبطوا اليه ويطلق هذا الحكم على الرفيع منهم والوضيع وهو نتيجة كل سلطة مطلقة ولهذا لم يكن الشيوخ فى مأمن من فتك أقاربهم الا اذا استتب لهم كل الامر. والحكم عندهم وراثىّ

للأرشد ولكنهم لا يراعون ذلك الا حيث غلبت قوة الراشد فيهم وليس لهم قوانين مكتوبة ومجالس معقودة ومع ذلك يقوم العرف أحيانا مقام القانون النافذ فيرجعون بالتقاضى اليه فالقتيل مثلا يقوم أهله وأقاربه للاخذ بثاره. وان كان القاتل من عشيرة حليفة فبينهم الدية توزع على العاقلة (أى على أقارب القاتل) وتدفع لاهل المقتول وان اختلفوا فى أمر أشكل عليهم ولم يشاؤا أن يحكموا السيف رفعوا امرهم الى العارفين والعارف عندهم بمقام القاضى يحكم بما اكتسبه من الاختبار مما جرى عليه العرب فى كل زمن وهو بمقام الفيصل أو الفاروق فى العهد القديم وله عندهم منزلة كبرى[1] وكانوا اذا اعتدى فرد من قبيلة على آخر من قبيلة أخرى يرفع المظلوم منهما ظلامته الى رئيس القبيلة التى منها خصمه

(١) وقد عرفت اوروبا حديثا فضل التحكيم ومزاياه فشكلوا محكمة مخصوصة بمدينة لاهاى عاصمة هولاندا للتحكيم تفصل فيما يشجر بين الدول وبعضها مما لا يمس بالشرف ولا يسقط الكرامة وعقدت معاهدات بين كثير منها عدوها منتهى المدنية واثرا من آثار اوروبا ونبتا من مبتكرات افكارها ! !

فان أنصفه فيها والا قامت الحرب بين القبيلتين وسفكت الدماء أشهرا وربما دامت الحروب سنوات حتى تنفر إحدى القبيلتين بالاخرى أو يتوسط أحد بينهما فى الصلح وينتهى الحرب .

فمما ذكر يتضح جليا أن العرب لم يكن لهم طبيعة الانتظام فان ارواحهم الوطنية قد منيت من فطرتهم بسوس قبيح أبقاها مأكلاً للشقاق ومرتعاً للانقسام وقد تشابه العرب واليونان القدماء فى هذا الداء — داء الاستبداد — تشابها غريبا فان من أكبر الرذائل والادواء التى اودت باليونان حبهم الاستفراد أو القيام بالذات أى رغبة كل مدينة من مدنهم فى الاستئثار بالامر والسلطة مما جعلهم كالسمك يتآكلون ويفنى بعضهم بعضاً . حتى ان من يطالع تاريخ حروبهم — خصوصاً حروب اسبرطه (Sparte) واثينا (Athènes) — لا يسعه الا استغراب تلك الرغبة الشديدة التى كانت لكل من المدينتين المذكورتين فى التغلب على اختها . ولعل هذا الخلق نتيجة لازمة لقوة النفس وشدة حب التسلط وقد فطر العرب على مثل ذلك فكان دأبهم التقاطع وغزو بعضهم بعضاً قبل

تألفهم والانقسام والخروج عن طاعة الدولة الحاكمة بعده .
فدلوا بذلك على انهم لا يحسنون سياسة الملك وان احسنوا
تأسيسه كما قال ابن خلدون وبين الامرين فرق واضح .
فالتأسيس يقتضى القوّة والبسالة العسكرية والصبر على الشدائد .
اما السياسة فأوّل ما تستوجبه اتحاد الكلمة والثبات والخضوع
لصاحب الامر وقابلية الانتظام وهذا الذى كان ناقصاً فى
الأخلاق العربية ومن الأسف أن قد سرى هذا الداء فى
جميع دول الاسلام بعد ذلك فنخر عظام المسلمين حتى تداعت
كل الأعضاء او كادت وتفرقت أجزاء الجسم الواحد فصارت
هدفاً للأعداء ولقمة سهل عليهم ازدرادها .

أحكام العرب فى الجاهلية — ان حكم العرب فى القصاص
كان مختلفاً فتارة يوجبون القتل وتارة اخذ الدية وتارة ينفذون
الحكمين فاذا كان المقتول شريفاً فى قومه كانوا يقتلون به
عدداً أو يأخذون ديته أضعاف دية الوضيع بل ربما تناهى
أولياء الدم فى طلباتهم وطلبوا المستحيل تعجيزا فيكون لا
مناص من القصاص

ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم اوجب الله رعاية العدل وساوى بين عباده فى حكم القصاص فأنزل « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم القصاص فى القتلى : الحرّ بالحرّ والعبد بالعبد والانثى بالانثى » وكان القصاص فى يد أولياء الدم فجعله الاسلام فى يد الحاكم ينتقم عدلاً من الجانى على جنايته بوجب أحكام الشريعة الغراء . واذا اختلف فى شأن قتيل بأن وجد فى محلة ولم يعلم قاتله رجعوا للقسامة وهى ايمان يحلفها خمسون رجلا من المحلة او الخط يتخيرهم ولى الدم كل واحد يقول بالله ماقتلت ولا علمت له قاتلا . وكانوا اذا سرق واحدمنهم شيئاً يقطعون يده اليمنى واذا لم يعرف الجانى يقصون أثره ولا تزال هذه العادة موجودة عند البدو الحاليين ولهم فيها شهرة عظيمة

حروب العرب وتعرف بأيام العرب — ينسب العرب هذه الحروب الى الامكنة التى وقعت فيها وايامهم كثيرة لا تحصى فان ابا الفرج الاصبهانى وضع فيها كتاباً جمع فيه ألفا وتسعمائة يوم . واشهر حروب العرب وأيامهم هى يوم

عويرض بين بكر وتغلب وكذلك يوم النهى ويوم عنيزة وفيه قتل مرة أبو جساس . ويوم العقبة وفيه وقع المهلهل فى أسر الحرث بن عباد اليشكرى . ويوم واردات وفيه قتل همام بن مرة . ويوم الجند . ويوم شعب الذنائب وهي أيام حرب البسوس الشهيرة التى مكثت اربعين عاماً من سنة ٤٠٩ الى سنة ٥٣٠ مسيحية وسببها قتل ناقة وسيأتى خبرها فيما بعد ؛ ويوم شعواء . ويوم الهباءة . ويوم المرتقب . ويوم قطن . ويوم حسى . ويوم الفروق بين عبس وفزارة وهى أيام حرب سباق الخيل المعروف بحرب داحس وغبراء وهما فرسان الاول لقيس بن زهير سيد بنى عبس والثانية لحذيفة بن بدر سيد بنى فزارة وهذه الحروب هى من أشهر المواقع التى شهدها عنترة وقد ذكرها ابن الأثير فى خبر طويل لا محل له هنا وزبدته أن قيس بن زهير العبسى عقد بينه وبين حذيفة الفزارى رهناً على سباق هذين الفرسين ثم ارساوهما فى المضمار ولكن حذيفة أضمر الخيانة وانفذ رجلا يقف فى مكمن على طريقهما حتى اذا سبق داحس ينفره لتسبق الغبراء وكان كذلك فوقع الخلاف بين الحيين

ثم انتشبت الحرب وقتل خلق كثير من الفريقين ودامت الحرب بينهم من سنة ٥٦٨ لسنة ٦٠٨ مسيحية ثم اصطلحت عبس وفزارة وانفرد قيس عن بني عبس وساح في الارض حتى انتهى الى عمان فتنصر بها ومات. وتكفينا هاتان الحربان دليلاً على ان العرب كانوا سريعي الغضب ألفوا القتال يخلقون الشر من لا شيء.

وكان اسفار العرب للغزوات والحروب بظعونهم وسائر حلالهم وأحيائهم من الاهل والولد. وكان الشعر في حروب الجاهلية يقوم مقام الآلات الموسيقية فكانوا في خروجهم للغزوات يتغنون بالشعر في مواكبهم فيطربون ويجيش همم الابطال ويسارعون الى مجال الحرب. وكانوا ينصبون الرايات على أبواب بيوتهم لتعرف بها ويفتخرون بالراية الصفراء لانها راية لملوك اليمن وأما الرايات الحمر فهي لأهل الحجاز وكانوا يقاتلون بالكر والفر ولا يعتبرون قتال الزحف صفوفا وهو المعتبر عند سواهم من الاعاجم (١). ويلبسون

(١) لما شرع العرب في مقاتلة الفرس والروم وغيرهم اضطروا الى

فى حروبهم الدروع السلوقية ويعتقلون الرماح ويتنكبون القسى ويضربون بالسيوف المشرفية والرماح السمهرية والردينية وكان من سلاحهم أيضاً النبال والتروس والدرق والمجانيق وعرادات لرمى الحجارة مرمى بعيداً الخ

الزواج والطلاق فى الجاهلية — قد كانت الانكحة فى الجاهلية مختلفة فمنها ان يتفق ولى الزوج والزوجة على مهر فيتم النكاح بايجاب وقبول كما يحصل الآن ومنها نكاح السفاح وهو أن تباضع المرأة رجلاً ثم اذا أعجبته وأعجبها عقد عليها ومنها نكاح البغايا وهو أن يطأ البغى جماعة متفرقون واحد بعد واحد فاذا حملت وولدت ألحقت الولد بمن غلب عليه شبهه منهم. ونكاح الاستبضاع وذلك ان المرأة اذا طهرت

مقاتلتهم زحفا بمثل قتالهم فجعلوا يعبؤن الجيوش تعبية الروم والفرس. فيقسمون العساكر أقساما يسمونها كراديس ويسوون فى كل كردوس صفوفهم ويرتبون الكراديس حتى اذا تم هذا الترتيب يكون الزحف من بعد هذه التعبية وحروبهم فى صدر الاسلام تدل على مهارتهم فى فن الحرب وسياسته

من حيضها يقول لها زوجها أرسلي الى فلان استبضعي منه ويعتزلها زوجها ولا يمسها حتى يتبين حملها فاذا حملت أصابها زوجها اذا أحب. ومنها نكاح الجمع وهو ان تجتمع جماعة دون العشرة ويدخلون على امرأة من البغايا وكلهم يطؤها فاذا حملت ووضعت ومرت عليها ليال بعد ان تضع حملها أرسلت اليهم فلم يستطع رجل منهم ان يمتنع حتى يجتمعوا عندها فتقول لهم: «قد عرفتم ما كان من أمركم وقد ولدت فهو ابنك يا فلان» وتسمي من أحبت منهم فيلحق به. وكان الرجل في الجاهلية يتزوّج بكثيرات وربما كان في عصمته عشر نساء أو اكثر فحظر الاسلام ذلك واباح الاربع فما دونها بالكتاب والشروط التي اجازها الشرع الشريف

وفضلاً عما سبق من أمر الزواج عند العرب واتساع دائرته قد كان فيهم من لا يستقبح مزاحمة أبيه في زوجته ويسمونه الضيزن . ونكاح المقت وهو اذا مات الرجل وترك زوجته قام ولده الأكبر وألقى ثوبه عليها فيرث بذلك نكاحها فان لم يكن له بها حاجة زوجها لبعض إخوته بمهر جديد. وكان

هذا الزواج — زواج امرأة الأب — عند القليل من العرب وكان أكثرهم يستقبحه ولا ينكح الامهات ولا البنات ولا يجمعون بين الاختين . وكان بينهم ايضاً من يتزوج بابنته كما يفعل المجوس . وكان من عوائدهم فى الزواج الذى بايجاب وقبول ان تعرض الآباء على بناتهم أمر الزواج قبل العقد عليهن وبعد قبولهن يمدّ يده الى الخاطب أو إلى أبيه أو لمن يكون وكيلاً عنه فى الطلب ويجيب سؤاله بعد ان يتفقا على مهر معلوم للزوجة ثم يتواعدان على يوم معين للزفاف بحضرة شهود عدول فاذا كان اليوم المعلوم أولموا الولائم احتفالا بزفاف العروسين ثم تضرب لهم قبة فيدخل عليها بها وينثر على الحاضرين النثار . ونثار العرب فى أعراسهم التمر . أما الصداق للمرأة فكان لا بد منه فى الجاهلية وربما بلغ مبلغاً عظيماً ولذلك كانت العرب تقول اذا ولدت لاحدهم بنت «هنيئاً لك النافجة» أى المعظمة لمالك لانك تأخذ مهرها فتضمه لمالك فينتفج . فلا يمكن الرجل أن يتزوج بدون اصداق الزوجة شيئاً يعطيها بعضه قبل دخوله عليها وبعضه يبقى ديناً عليه

تستوفيه منه متى طلقها أو من تركته بعد موته

واما الطلاق فكان اذا لم تحسن المعاشرة بين الزوجين فيكون للمرأة الحق فى ان تطلق كما ان للرجل كذلك بقوله لها « الحقى بأهلك » وعلامة طلاق المرأة هو ان تحول بيتها المصنوع من الشعر او الوبر مثلاً الى جهة مخالفة لجهته الاصلية.

ولما جاءت الشريعة الاسلامية أبطلت تلك الانكحة العربية القبيحة. ولو نظرنا اشرائع الأمم الاخرى التى كانت معاصرة للعرب قبل ظهور الاسلام كالروم وهم أصحاب النفوذ على المسكونة فى ذلك الوقت مثلا لوجدنا عندهم انكحة تشبه ما كان منها لدى العرب بل ربما فاقتها شناعة وقباحة وكذلك كان الحال عند الفرس واليونان

تقويم العرب فى الجاهلية — كانت الأمم السالفة تؤرخ بالحوادث العظام وبملك الملوك أما بنو اسماعيل فأرخوا ببناء الكعبة ولم يزالوا يؤرخون بها حتى تفرقت معد وكان كلما خرج قوم من تهامة ارخوا بخروجهم ثم ارخوا بعام الفيل وبيوم الفجار وكانت معد بن عدنان تؤرخ بغلبة جرهم العماليق

واخراجهم اياهم من الحرم ثم أرخوا بأيام الحروب كحرب البسوس وحرب داحس وكانت حمير وكهلان تؤرخان بملوكهم التبابعة وأرخوا بنار غرار: نار كانت تظهر ببعض حرات اليمن. وارخوا بسيل العرم ثم أرخوا بظهور الحبشة على اليمن. وكانت العرب الى عهد رسالة النبي تؤرخ بعام الفيل وبيوم الفجار وبقي التاريخ كذلك الى أن ولي عمر بن الخطاب فتقرر الامر على ان يؤرخوا بهجرة النبي عليه الصلاة والسلام الى المدينة وتركه ارض الشرك فجعلوا التاريخ من المحرم اوّل عام الهجرة وكان هذا التقرير في سنة سبع عشرة او ثماني عشرة من الهجرة بعد ان قدموا التاريخ على الهجرة شهرين وجعلوه من المحرم وأثبت المرحوم محمود باشا الفلكي ان دخول النبي صلى الله عليه وسلم المدينة المنوّرة كان يوم الاثنين ٢٠ سبتمبر سنة ٦٢٢ من الميلاد وهذا اليوم يوافق ١٠ تشري عند اليهود وهو يوم عاشوراء عندهم

وأجمع المؤرخون على أن الوثنيين من العرب كانوا يحسبون أوقاتهم بالسنة القمرية والشمسية ولكن ظواهر

عبارات المفسرين وشراح الحديث الشريف وأئمة اللغة تفيد أن العرب لم يستعملوا البتة سوى السنوات القمرية المبهمة وقد وقع هذا الخلاف بعينه بين علماء الفرنج ولقد أثبت فقيد مصر المرحوم محمود باشا الفلكى فى كتابه « نتائج الافهام فى تقويم العرب قبل الاسلام» الذى ترجمه للعربية حضرة معاصرنا الفاضل احمد بك زكى ان العرب لم يستعملوا سوى السنين القمرية المحضة قبل ظهور الاسلام وانهم كانوا يحسبون أشهرهم بمقتضى سير القمر وأن الشهر عندهم إما ٣٠ يوماً او ٢٩ يوماً

والاسماء التى كانت الجاهلية تطلقها على شهورها هى عين التى نستعملها نحن الآن (١) وكانوا يعتبرون أربعة منها

---

(١) ان أسماء الشهور المعلومة الآن وضعت فى عهد كلاب بن مرة أحد اجداد النبي صلى الله عليه وسلم وكان ذلك قبل الاسلام بقرنين تقريباً واما اسماؤها القديمة فليست معروفة بكيفية معينة مضبوطة . قال الخطيب خير الدين المدنى فى تذكرته: «ان المحرم كان يقال له عند الجاهلية المؤتمر لانه أول السنة فكل شئ من أقضيتها يؤتمر فيه . وصفر الناجر من النجر أى شدة الحر . والربيع الاول الخوان من الخيانة. والثانى الصوان من الصيانة. وجمادى الاولى الزباء

محرمة ويسمونها الاشهر الحرم لاعتقادهم حرمة القتال فيها من قبل ظهور الدين المحمدى بمدة طويلة وهى رجب وذو القعدة وذو الحجة ومحرم فكانوا يرغبون فيها السلام ويكفون عن الحرب والكفاح وتحسم الخصومات وتزول العداوات وتهد

وهى الداهية الكبيرة. والاخرى البائد لكثرة القتال والقتل فيه. ورجب الاصم لانهم كانوا يكفون فيه عن القتال فلا تسمع فيه أصوات السلاح. وشعبان الواغل وهو الداخل على قوم ولم يدعوه لهجومه على رمضان. ورمضان الباطل وهو كوزيكال به الخمر. وشوال العاذل لانه من أشهر الحج فكان يثنيهم عن غير مهماته. وذو القعدة رنة لان الانعام كانت ترن فيه لقرب النحر. وذو الحجة ترك لانهم كانوا يتركون الابل فيه.»
وتختلف أسماء هذه الشهور القديمة فى روايات أخرى كما اختلفوا أيضا فى تعليل تسميتها بتلك الاسماء. فقال المرحوم محمود باشا الفلكى: «ان العرب أطلقت على الاشهر أسماء تناسب الحوادث الجوية أو غيرها التى وقعت فى سنة التسمية فقط ولم يرسلوا أنظارهم الى ما وراء ذلك لجهلهم بأنه بعد مضى سبع عشرة سنة تنتقل شهور الصيف فى الشتاء وبالعكس وكذلك لما غيروا الاسماء القديمة واستبدلوها بالاسماء المستعملة الآن لم يراعوا الا الاحوال التى كانت جارية فى وقت التسمية فأول شهورهم المحرم سمى بذلك لان من شهورهم أربعة حرما واحد فرد وثلاثة سرد فالثلاثة السرد ذو القعدة وذو

قال المسيو كوسان دوبرسوال فى هذا الصدد ما معرّبه « ان ذلك نوع من الهدنة جعلها الله تعالى لحكمة بالغة فى فى أمة دأبها شن الغارات وديدنها تحريك الفتن لكونها اعتادت السلب والنهب فانه يترتب على هذه الهدنة منع القبائل ابادة بعضها وتحديد أوقات معينة يأمن فيها الانسان على نفسه ونفيسه فتروق سوق التجارة حيث تكون آمنة

الحجة والمحرم ورجب وكانوا يحرمون القتال فى هذه الشهور كما أسلفنا ولا يتعرضون لاحد فيها بالقتل والدم وان كان عنده دم . ثم صفر سمي به لما كان يعتريهم من مرض يصفر الوانهم ثم شهر ربيع الاول وشهر ربيع الآخر سميا بالربيع لانهما كانا يأتيان فى الخريف وكانت العرب تسمي الخريف ربيعا ثم جمادى الاولى وجمادى الثانية سميا بذلك لاتيانهما فى أيام الشتاء عند جمود الماء ووقع الجليد ثم رجب وسمى بذلك لانه يقال فيه ارجبوا أى كفوا عن القتال ثم شعبان سمي به لانشعاب القبائل فيه الى طلب المياه والغارات ثم رمضان سمي به لانه كان يأتى حين برء الحر ورمض الارض ثم شوال لقولهم شولوا أي ارتحلوا وقيل بل سمي به لان الابل كانت تشول فيه بأذنابها لشهوة الضراب ولذلك لا تجوز العرب فيه التزويج ثم ذوالقعدة لقعودهم فيه عن القتال وذو الحجة لاقامتهم الحج فيه . اهـ

مطمئنة » ومما سبق يعرف انه كان للعرب فى كل سنة وقتان تزول فيهما الضغائن وتذهب الاحقاد أحدهما مدة شهر واحد والثاني مــدة ثلاثة شهور متواليات ولــكن تحريم القتال فى الثلاثة شهور المتواليات شق على قوم ألفوا الحروب واتخذوها وسيلة للتعيش فلم يستطيعوا مقاومة أهوائهم الغريزية فلاجل أن تقضى العرب وطرها من الغزو اذا انفتحت أبوابه ولا يفوتها مغنم من تهيئات اسبابه سنوا النسىء الذى هو تأخير حرمة شهر محرم الى شهر غير محرم ليوفقوا بين أهوائهم الحربية وفرائضهم الدينية فــكانوا من وقت الى آخر يؤخرون تحريم شهر محرم الى الشهر الذى يتلوه بحيث كانوا يلتزمون مراعاة شهرين محرمين متتابعين بدلا من ثلاثة ولما ظهر الاسلام ابطل النسىء وأخبر الله عز وجل عنهم بذلك بقوله « انما النسىء زيادة فى الــكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاما ويحرمونه عاما »

وكانت الجاهلية تستعمل قديما الاسماء الآتية للدلالة على ايام الاسبوع وهى أول « الاحد » وأهون « اى الاثنين »

وجبار « اى الثلاثاء » ودبار « اى الاربعاء » ومؤنس « اى الخميس » وعروبة « اى الجمعة » وسنان « اى السبت » وذهب المرحوم محمود باشا الفلكى الى أن العرب كانوا يجهلون بالكلية تقسيم اليوم الى ٢٤ ساعة

خرافات العرب ومعتقداتهم — وكان العرب يعتقدون بالجن والغول والسحر والهواتف والكهانة والعرافة والطيرة والزجر والقيافة والعيافة والفراسة والتنجيم وصدق تخطيط الرمل ويعتقدون أن من خرج فى سفر لو التفت وراءه لا يتم سفره وان من علق عليه كعب ارنب لم تصبه عين ولا سحر ويزعمون أن الحية تهرب من الارنب لكونها تحيض وان المرأة اذا أحبت رجلا وأحبها ثم لم يشق عليها رداءه وتشق عليه برقعها فسد حبهما وان الرجل اذا قدم قرية خاف وباءها فوقف على بابها قبل أن يدخلها ونهق كما ينهق الحمار لم يصبه وباؤها وان الرجل اذا ضل فى سفر وقلب ثيابه اهتدى وان الناقة اذا نفرت وذكر اسم أمها سكنت وكانت لهم خرزة اسمها السلوان لو حكها عاشق وشرب ما يخرج منها سلى

وتصبر وكانت النساء لا يبكين على مقتول حتى يؤخذ بثاره.
وأن الغلام اذا سقط سنه فرمى به فى عين الشمس بسبابته
وابهامه وقال أبدلى أحسن منها فانه يأمن على نفسـه الفلج
والعرج والجدر وكانوا اذا ارسلوا الخيل على الصيد فسبق
واحد منها خضبوا صدره بدم الصيد الذى يصيدونه علامة
على ذلك وكان فيهم ايضاً من المعتقدات الفاسدة الرتم وهو
اذا أراد أحدهم سـفراً عمد الى شجرة فيعقد غصناً منها فاذا
عاد من سفره فوجده قد انحل قال قد خانتنى امرأتى وان
وجده على حاله قال لم تخنى. والرتيمة وهى اذا مات أحدهم عقلوا
ناقة عند قبره حتى تموت ويزعمون انه اذا بعث ركبها والتفقئة
والتعمية وهى ان الرجل اذا بلغت إبله ألفا قلع عين الفحل
ويزعمون أن ذلك يدفع عنهـا العين فاذا زادت على الالف
فقأ عينه الاخرى وكانوا اذا أصيبت الابل بالجرب أو بالعر
— وهو داء يشبهه — يكوون السليمة ويزعمون ان ذلك يبرئ
السقيمة وكانت البقر اذا امتنعت عن الشرب يضربون الثيران
زاعمين ان الجنّ يركبون الثيران فيصدون البقر عن الشرب

ويزعمون ان الحية تموت من أول ضربة فاذا ثنيت عاشت ويزعمون أن الانسان اذا قتل ولم يؤخذ بثاره يخرج من رأسه طائر يسمى بالهامة ولا يزال يصيح على قبره ويقول اسقوني الى ان يؤخذ بثاره ويقولون ايضاً انها تخبره بما يكون بعده وقال بعضهم

هامي تخبرني بما تستشعروا فتجنبوا الشنعاء والمكروها

وكانوا يزعمون ان في البطن حية تسمى الصفر تعض الانسان اذا جاع فلما جاء الاسلام قال النبي صلى الله عليه وسلم لا هامة ولا صفر

معتقدات العرب ودياناتهم — وقد دخل بلاد العرب جميع أديان المشركين فكان اقدم أديانهم المجوسية وعبادة الاوثان (١) التي تسلطنت في بلادهم مدّة من الزمان وكان

---

(١) اساس المجوسية عبادة الاجرام السماوية وعبادة العرب لها في ايام جاهليتها ضرورية لانهم أكثر الناس حاجة الى تلك الاجرام فهي تهديهم لاسفارهم وتدلهم على جهات مسيرهم ولا يزالون يستعينون بها على ذلك للآن فضلا عن تفاؤلهم ببعض الاجرام وتشاؤمهم بالبعض الآخر . واشهر من تدين بالمجوسية في العالم أمة الفرس وعنهم أخذ

يخالطها القول بالاصلين : الخير والشر ثم أدخل فيها مجوس الفرس مذهب زرادشت ومن وقتئذ مزجوا عقائدهم الاصلية بعبادة الشمس والنجوم ثم سرت اليهم بعض عقائد اليهود

الناس عبادة الاجرام وفى جملتهم العرب فانهم قلدوهم بعبادتها وبنوا لها الهياكل على مثال هياكل الفرس وحجوا اليها فقد كان بجزيرة العرب سبعة هياكل للسيارات السبعة تسمى البيوت . وما لبثت المجوسية ان تحولت من بعض وجوهها الى عبادة الاصنام واضمحلت من جهة أخرى امام الديانتين اليهودية والنصرانية فجاء الاسلام وليس من المجوس الا جماعة قليلة أكثرهم من بنى تميم من العدنانية وكانت منازلهم بأرض نجد وما والاها الى اليمامة ومنهم زرارة ابن عديمة وابنه . ومن آثار العرب الآن من المجوسية اعتقادهم بالانواء ونسبة التغيرات الجوية الى طلوع بعض النجوم او غيابها

أما الوثنية فالعرب اقتبسوها من الامم القديمة كالكلدان والفنيقيين والمصريين وغيرهم فى اقدم الازمنة فكانت كل قبيلة تتخذ صنما تنصبه فى ارضها فتعبده وتستخيره حتى انتشرت تلك العبادة وغلبت على المجوسية فجعلوا الكعبة هيكلاً عموميا لها ونصبوا فيه التماثيل التى بلغ عددها عدد أيام السنة على ما قيل ولما جاء الاسلام انمحت كلها وكسرها النبى صلى الله عليه وسلم عند فتح مكة

الذين كانوا يحكمون على سواحل البحر الاحمر من زمن داود وسليمان عليهما السلام حتى أن بعض قبائل من تجار بنى اسرائيل نزلت بسواحل الحجاز واليمن[١] فلما ظهر دين

---

(١) يظهر ان اليهودية قديمة العهد فى جزيرة العرب لان اليهود ما برحوا منذ أول عهدهم ينزحون الى بلاد العرب مما يلى بلادهم اما فراراً من القتل أو التماساً للرزق

ويؤخذ مما رواه أبو الفرج الاصبهانى فى كتاب الاغانى اثناء كلامه عن السموءل بن عاديا اليهودى أن اليهود سكنوا يثرب فى القرن الخامس عشر قبل الميلاد والظاهر أن بعضهم بقى على ما تعلمه من عبادة الاصنام بمصر ومنهم اقتبس الاوس والخزرج عبادة الصنم

وقال المقريزى فى كتابه عن كبس الشهور ان العرب تعلموه من اليهود الذين نزلوا يثرب على عهد صموئيل النبي (فى القرن الحادى عشر قبل الميلاد) ولما خربت اورشليم على عهد طيطوس (Titus) فى القرن الاول للميلاد هاجرت جماعة كثيرة من اليهود الى بلاد العرب واقاموا فيها وأخذوا فى نشر ديانتهم بين أهلها فلم يأت القرن الثانى للميلاد حتى أصبحت الديانة اليهودية شائعة فى كثير من بلاد العرب . وفى رواية ان أسعد أبا كرب ملك اليمن هو الذى أدخل اليهودية بلاد اليمن حوالى القرن الاول قبل الميلاد . ويقول ابن خلدون ان أول من أدخلها بين العرب ذونواس أحد التبابعة ملوك

النصرانية وبث رسل الحواريين هذا الدين فى بلاد الهند لم يجتازوا بلاد العرب من غير أن يتركوا بها شيئاً من آثار الانجيل (١) فبذلك كانت السيادة فى بلادهم لاربعة أديان الا أن عبادة الاوثان كانت أكثر انتشاراً من غيرها. هذا وقد

اليمن وكان اسمه يوسف فتهود معه أهل اليمن فى أواخر القرن الخامس للميلاد وفى رواية أخرى ان أهل اليمن تهودوا فى القرن الرابع وبالجملة لم يأت القرن السادس للميلاد حتى أصبحت الديانة اليهودية منتشرة فى القبائل وأشهر يهود العرب بنو نمير وبنو كنانة وبنو الحرث بن كعب وبنو كندة . اه

(١) يعلم من تقاليد الكنيسة الشرقية القديمة أن القديس توما أول من بشر بالنصرانية فى بلاد اليمن أثناء مسيره الى الهند وان يولس الرسول بشر بها فى الشام فاعتنقها كثيرون من عربها الذين خلفتهم دولة الغساسنة . ولا يبعد أن قوافل العرب التى كانت تفد الى الشام والعراق في الاجيال الاولى للميلاد كانت تقتبس بعض العقائد النصرانية وتؤثرها على الوثنية . على أن الاضطهادات النصرانية فى القرنين الثالث والرابع حملت النصارى على المهاجرة الى بلاد العرب والاقامة فيها ونشر تعاليمهم بين أهلها وهناك روايات كثيرة عن اصل تنصر بعض قبائل العرب وأول من تنصر منهم وبالجملة فان النصرانية كانت منتشرة فى جزيرة العرب قبل الاسلام وأشهر من تدين به

كان بين بعض قبائل العرب من يدين بدين التوحيد وهو دين إبراهيم عليه السلام وابنه اسماعيل

وكان عبدة الاوثان يحجون الى الكعبة المشرفة ويوجهون اليها أمانيهم وعباداتهم وكانت قريش تصوم عاشوراء(١) وكان كثير من العرب يقول بالطبيعة الواحدة للمسيح وهو اعتقاد اليعاقبة وكان فيهم من يقول بالمعاد ويعتقد أن من نحرت ناقته على قبره حشر راكباً ومن لم يفعل

ربيعة وغسان وتنوخ وحمير وتغلب وبعض قضاعة وطي وسكان نجران وعرب الحيرة ولتنصر عرب الحيرة حكاية مشهورة حدثت للنعمان لا محل لها هنا

(١) قيل ان عاشوراء عبراني معرب لفظ عاشور وهو العاشر من تشرى اليهود الذي صومه صوم الكبور وانه اعتبر في شهور العرب فجعل في اليوم العاشر من أول شهورهم كما هو اليوم العاشر من أول شهور اليهود وقد فرض في التوراة صوم هذا اليوم ولا يزال اليهود الى هذا العهد يحافظون على صيامه ويتقربون باكرامه وقد دخل النبي صلى الله عليه وسلم المدينة يوم عاشوراء اليهود كما سبق ايضاحه

ذلك حشر ماشياً ومنهم من كان ينكر ذلك وبقوا فى غيابة جهلهم يعمهون حتى سطع النور الاسلامى فى أفق العالم فانكشفت غيوم الشرك وآب الكل لعبادة إله فرد صمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد

فى لغة العرب وآدابهم وأشعارهم وشعرائهم وأسواقهم وكتابتهم — لما كانت العرب تعمل على غرائزها الفطرية كانت الملكة الاصلية الجبلية فيهم على حد سواء واتحدت ألسنتهم وأفكارهم وحماستهم وبلاغة مقالهم وانما اختلفت فيهم لغات الاحياء والقبائل ومخاطبات البطون والعشائر (١)

(١) لما ظهر الاسلام كان العرب قبائل متفرقة ولكل قبيلة منهم لغة أو لهجة خاصة بها وكان الاختلاف بين هذه اللهجات قليلا الا فى أطراف البلاد حيث خالط العرب الحبش والقبط والروم والنبط وفى بلاد اليمن لان لغة اليمن الحميرية كانت قد صارت بعيدة عن بقية لغات العرب لاسباب سياسية ومحلية . وسبب قلة الاختلاف بين لغات العرب فى الحجاز وما جاورها كثرة ارتحال العرب واختلاطهم بداعى الغزو والاسر وعكوفهم على زيارة البيت الحرام وانشادهم الاشعار التى تحفظ وتسير بها الركبان الى كل الاحياء فتقوم مقام الكتب

يعنى اتحد اللسان الذى به التفهم والتفهيم واختلف متعلقه وأحوال التلفظ به فى التأدية وأسماء المسميات وكيفيات الحركات والسكنات ومع ذلك فاللسان واحد وعلى قاعدة واحدة تكاد أن تكون عمومية لا يعتريها تغيير والا لكان لحناً وغلطاً ولا يجوز أن يتوهم فى العربى البدوى أن يغلط فى نطقه ويلحن فيه وان تعمد ذلك لا يطاوعه لسانه فالعرب معصومون من لحن اللسان واطلاق الالفاظ على غير معانيها وانما يجوز أن يخطئوا فى وضع بعض الالفاظ ولتوضيح ذلك نقول كما ورد فى كتاب مميزات العرب للفاضل حننى بك ناصف إن اللغة العربية وان كانت فى ذاتها لغة واحدة مغايرة للغة الفرنسيس والانكليز والالمان وبقية الأمم إلا أنها تتعدد بالنسبة

والجرائد فى حفظ اللغة ونشرها . فلو كانت بلادهم خصبة وطرق المعيشة فيها ميسورة وهم قبائل متفرقة لا تجمعهم جامعة الملك ولا الدين لاشتد الفرق بين لهجاتهم حتى صارت لغات متفرقة كما حدث لزنوج أفريقية وهنود أمريكا . فلم يبعد عن لغات العرب الا الحميرية بسبب استقلال أهلها وقيامهم فى المدن واتصالهم بالاحباش وقيام الملك فيهم أزمانا طويلة

للاختلافات التي توجد في ألسنة المتكلمين بها فلغة هذيل غير لغة عقيل وكلاهما غير لغة قيس وكل منها غير لغة أسد والاربع تميز عن لغة تميم ويغاير الجميع لغة الحجاز وهلم جرا

فالاتحاد والتعدد من جهتين مختلفتين فلا تناقض في الكلام ويمكن تشبيه ذلك بافراد بني آدم فانهم يتحدون جميعاً في الحيوانيـة الناطقية بحيث يطلق على كل فرد منهم لفظ انسان ولكنهم يختلفون بمميزات أخرى مثل الطول والقصر والسمن والنحافة والبياض والسمرة على أن ذلك أمر موجود في كل اللغات كما قدمنا فالخبير بلغة الفرنسيس مثلاً يمكن أنه يميز الباريسي من المارسيلي والأثيني من المونبيلي بمجرد ما يسمع كلامهم مع أن كلا منهم يتكلم باللغة الفرنساوية

ولما كانت لغات العرب لابد من تداولها في المحاورات والمخاطبات والمحاضرات وكان أهل نجد والحجاز مثلاً لا يفهمون لغة اليمن وحمير بل ربما كانت قبائل أقليم لا تكاد تتكلم بلغة واحدة أي لا تستعمل كلمات واحدة في تأديه المعنى الواحد كما قدمنا وكانوا جميعاً مولعين بقول الشعر ونثره

بينهم بدون يأس ممن أبطأ فى قوله ثم نطق كالنابغة الذى نبغ فيه مرة واحدة ولقب بذلك. اجتمع الشعراء وأجمعوا رأيهم على تحسين اللسان العام الذى يكون به التفاهم عند جميعهم لما فى توحيد اللغة من المزايا والفوائد وانجزوا ذلك وتغلبت لغة قريش على كل اللغات الأخرى انزولهم مكة المشرفة وتوليهم سدانة الكعبة فلما نزل القرآن الشريف بلغة قريش انتشر التمدن العربى بها وانضمت قبائل العرب تحت لواء الاسلام وتألفت العربية من مجموع هذه اللغات أو اللهجات ولما شمل الفتح الاسلامى البلاد واختلط العرب بالعجم ودخل كثير من الكلمات الاعجمية واساليب الاعاجم فى صور كلامهم العربى وخيف من وقوع اللحن فى لسانهم وضع ابو الاسود الدؤلى ومن تبعه من الافاضل العلماء علوم اللسان العربى لحفظ اللغة ثم أصاب العربية فى هذه الاعصر ما أصاب غيرها من اللغات الشهيرة من قبلها كاليونانية واللاتينية أى ان العلم انحصر فى فئة من الخاصة فحافظت على اللغة وقواعدها وسار الجمهور فى طريق التغيير والتبديل والتحريف

لقلة انتشار العلوم بينهم ففسدت ألسنتهم بذلك وباختلاطهم مع من جاورهم من الشعوب صارت اللغة لغتين لغة الكتابة ولغة التكلم كما هي الى هذا العهد . ولا يخفى ما في إهمال أمر اللغة من المضار أدبياً ودينياً وعلمياً فقد قيل إن ضياع اللغة تسليم الذات. ولذلك اجتهدت كل أمة في المحافظة على لغتها فبقيت محفوظة فيها الا الامة الاسلامية فقد اهملت لغتها العربية وهي لغة دينها الذي يجمعها كلها فهل لها من لبيب يتدبر ويعتبر بما فات على غيره

والكيفية التي توصل بها شعراء الجاهلية لتحسين اللسان العام وتوحيد اللغة هي أنهم كانوا في أواخر أمرهم اذا نظموا قصائدهم حاولوا ان تكون ألفاظها مألوفة للجميع متعارفة بحيث تفهم معانيها المقصودة منها لجميع أحياء العرب وقبائلهم فتكوّن من ذلك لسان عربي مشترك بين العرب على اختلاف أحيائهم ولا شك أنه لم يكن في استطاعة أحد غير الشعراء القيام بهذه المهمة لان العرب لم يكونوا أصحاب كتب يرجعون اليها ولم توجد طرق النشر وقتئذ كما هي

الآن وانما كانوا يرجعون الى تلقي كل طبقة عمن فوقها ما تواتر من الأخبار والآثار فيتناقلون تواريخ احسابهم ويحفظونها محافظة على صفاء انسابهم ولا يهملون معرفة مآثر قدمائهم واسلافهم ووقائعهم وحوادث حروبهم وخطوبهم وعلاقاتهم مع من جاورهم وكل هذا بطريق الروايات خلفا عن سلف وقد دلت أشعار العرب على وقائعهم التاريخية وايام حروبهم وعلى ما كان عندهم من الاخلاق والعوائد دلالة كافية فى الوضوح وبممارسة قرض الشعر على هذا الوجه المنسجم تنقحت اللغة العربية وتخلصت من شوائب الركاكة واللكنة واستعمال الالفاظ الوحشية والغريبة وأثمر قرض الشعر بهذا الوجه المقبول فوائد جمة منها انه كان يدعو الى المروءة وعلو الهمة ويحمل على الشجاعة والاقدام على عظائم الأمور فلذلك كان لشعراء العرب فى ذلك العهد نفوذ تام ورسوخ أقدام واعتماد عليهم ووثوق بهم فكان كلامهم حجة به يستشهد وعليه يعتمد

للسادة الشعراء فضل ثابت ولهم مقام شامخ ومكان

وهمو سلاطين الكلام اما ترى كل امرئ منهم له ديوان

وكان الشعراء دون غيرهم هم المؤرخون والنسابون والناقلون للحوادث فى جزيرة العرب بتمامها لاشتمال قصائدهم على الوقائع والمآثر والنوازل والمفاخر وتحول الاحوال من مكان الى مكان وتنقل الحوادث من زمان الى زمان فكانوا بدون شك ولا شبهة أمراء الكلام وأهل الحل والابرام ولما كانوا هم المحسّنين والمقبّحين والمادحين والقادحين والمغرين والمحذرين كانوا يرفعون القبائل ويخفضونها ويشرفونها ويضعونها كما يشاؤن مدحاً وهجواً تلويحاً وتصريحاً تعريضاً وكناية

وللشعراء ألسنة حداد على العوراء ما برحت دليلة
ولكن السعيد من اتقاها وداراها مداراة جميلة

ولذا كان يخشى بأسهم ويحترم جنابهم وكثيراً ما كانت تجتمع العرب تحت خيامهم وقبابهم يتناشدون الاشعار ويتغنون بها بالانغام والايقاعات فتطرب المسامع وتحلو على لسان منشدها وناظمها كما تلذ بها أذن السامع فكأنما البدوى من العرب مخلوق من أصل الفطرة لقرض الشعر وابتكار

المعانى البديعة والتفنن فى انحاء الـكلام

وقد أنشأ العرب جمعيات احتفاليـة فى أسواق دورية ذات ميادين شعرية كسوق عكاظ وسوق مجنة وسوق ذى المجاز ولـكن سوق عكاظ هو المتميز منها بالسباق فى الشعر وعكاظ قرية بصحراء بين مكة والطائف على ثلاث مراحل من مكة المشرفة وكان فيهـا سوق أسـبوعية يوم الاحد وسوق سـنوية وهى المقصودة هنا كانت تقوم هلال ذى القعدة ويستمر موسمها عشرين يوما تجتمع فيها قبائل العرب فيتعاكظون أى يتفاخرون ويتناشدون وكان من فوائدهـا ان العرب يتعارفون فيها ويتحابون وكانت فرسان العرب اذا كان أيام عكاظ فى الشهر الحـرام وأمن بعضهم بعضاً يتقنعون حتى لا يعرفوا . وان كانت هـذه السوق تؤذن بالتعامل والاخذ والعطاء الا انه كان فى الحقيقة جل الغرض منها اجتماع فحول الشعراء والفصحاء والبلغاء من أهل العربية لابداء نتائج افـكارهم واظهار محاسن فصـاحتهم وبلاغتهم وكان يجتمع بها سادات العرب وملوكهم وقبائلهم ورؤسـاء

العشائر وعرفاؤها ومثـل عكاظ فى ذلك سوق ذى المجاز خلف جبل عرفات وأسواق أخر وكانت هذه الاسواق ساذجة بسيطة مجردة عن الزينة والزخرفة لـكنها مهيبة يزدحم فيها الشعراء من جميع جهات العرب ويقوم الشاعر ويبرز فى حومة الميدان وأرباب المجالس ثابتون فى مكانهم فينشد الاشعار من قريضه وهم يصغون الى سماعها منه ويحرصون على التقاطها من فمه بمجرد النطق بهـا ويحفظونها عن ظهر قلب فيكتب فى المحفل العام مايستحسن من القصائد بحروف الذهب على منسوج الحرير ويعلق على الـكعبة المشرفـة ليخلد اسم صاحبه ويبقى على مدى الايام رسمه ولا يزال فى الخلف بقايا مآثر السلف ولهذا بقيت شهرة المعلقات السبع محفوظة الى عهدنا هذا وقد اعتنى علماء الاسلام بشرحها لمـا اشتملت من البلاغة والفصاحة والصـناعة الشعرية وكانت العرب اذا أتت فى الموسم يضعون سلاحهم عند أهل السدانة من قريش قبل الدخول فى السوق ومن لم يضع سـلاحه عندهم عرض نفسه للقتل

وكما كانت هذه السوق مجمع الفصاحة والفروسية كانت مجمع مكارم الاخلاق أيضا حتى كان بعض أشراف الشعراء كعامر بن الطفيل العامرى ينادى مناديه فى هذه السوق « هل من راجل فنحمله أو جائع فنطعمه أو خائف فنؤمنه » وكانت ايضاً هذه السوق كديوان ملوك العرب فكان بعضهم يأخذ ماله من الاتاوة والمرتبات على القبائل كل سنة بالموسم وكانت العرب تنتقل من سوق عكاظ بعد انفضاضها الى سوق مجنة وتقيم فيها عشرين يوما ثم تنتقل منها الى سوق ذى المجاز فتقيم فيها الى أيام الحج وكان سوق عكاظ الذى هو مجمع المفاخرة قد يتسبب عنه المقاتلة والحرب وممن اشتهر بالخطابة فيه قس بن ساعدة وهو أول من قال « أما بعد » فى كلامه وهو القائل

لقد علم الحى اليمانون أننى اذا قلت أما بعد أنى خطيبها

وقد آمن برسول الله صلى الله عليه وسلم قبل بعثته ولم يره وخطب خطبة فى سوق عكاظ حث فيه على اتباع دينه وكان مقرا بالبعث والعقاب فصيحا اذا خطب عمر عمرا طويلا

وكان مقرا لله تعالى بالوحدانية تضرب بحكمته الامثال ومن خطبه خطبة شهيرة قالها وهو على جمل له أحمر بالسوق: «أيها الناس اجتمعوا واسمعوا وعوا: ان من عاش مات ومن مات فات وكل ماهو آت آت. مطر ونبات. وارزاق واقوات. جمع واشتات. وآيات بعد آيات. ان فى السماء لخبرا. وان فى الارض لعبرا. نجوم تمور. وبحار تغور. وسقف مرفوع. ومهاد موضوع. اقسم بالله قسما لاحانثا ولا آثما ان لله دينا احب من دينكم الذى أنتم عليه. ونبيا قدا ظلكم اوانه. وادرككم إبانه. فطوبى لمن ادركه فآمن به وهداه. وويل لمن خالفه وعصاه.» ثم قال: «مالى أرى الناس يذهبون ولا يرجعون؟ أرضوا بالمقام فأقاموا؟ ام تركوا هناك فناموا؟ يامعشر بنى آدم أين الآباء والاجداد؟ وأين المرضى والعواد؟ طحنهم الثرى بكلكله ومزقهم بتطاوله؟ كلا بل هو الله الواحد المعبود ليس بوالد ولا مولود!. وانشد

فى الذاهبين الاولـ ـين من القرون لنا بصائر
لما رأيت مواردا للقوم ليس لها مصادر

ورأيت قومي نحوها تمضي الاصاغر والاكابر
لا يرجع الماضي الـــــيّ ولا من الباقين غابر
ايقنت اني لا محا لة حيث صار القوم صائر

ولما قدم الجارود بن عبد الله على النبي صلى الله عليه وسلم سأله عن قس فقال: هلك. فقال« رحم الله قسا اني لارجو «أن يبعثه الله أمة وحده»

وبالجملة فقد كان محفل عكاظ معدن المفاخر التليدة والطارفة ولم يكن وحده في جزيرة العرب بل كانت أسواق اليمن ايضاً مركزا للمفاخر الظاهرية والمنافع العمومية والزينة والزخرفة فكانت بضاعتها هي النافقة

شعراء العرب والمعلقات السبع — قد اتفق الكل على ان المعلقات السبع هي من أجود اشعار العرب واشهرها وقال صاحب تذكرة الحكم في طبقات الامم: « ان العرب بقيت تسجد لهذه المعلقات مدة طويلة لفصاحتها الى أن ظهر الاسلام وابطل القرآن بسطوة فصاحته اعتبار العرب لهذه المعلقات »واصحابها هم:

(١) امرؤ القيس بن حجر الكندى وكان موته قبل الهجرة بنحو اثنين وثمانين سنة ومطلع معلقته

فقانبك من ذكرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الدخول فحومل

وقد اشتهرت هذه المعلقة حتى صار يضرب بها المثل فى الامر الواضح فيقال: اشهر من قفانبك. وسنأتى فى الفصول الآتية على ترجمة هذا الشاعر عند التكلم على ملوك كندة

(٢) طرفة بن العبد البكرى وكانت وفاته قبل الهجرة بثمان وخمسين سنة ومطلع معلقته

لخولة اطلال ببرقة ثهمد تلوح كباقى الوشم فى ظاهر اليد

وكان طرفة فى حسب كريم وعدد كثير من قومه البكريين وكان شاعراً جريئاً على الشعر بلغ مع حداثة سنه ما بلغ القوم مع طول اعمارهم. مات أبوه وهو صغير ومن شعره:

وأعلم علما ليس بالظن أنه اذا ذل مولى المرء فهو ذليل
وان لسان المرء مالم تكن له حصاة على عوراته لدليل

وله أيضاً

ولا أغير على الاشعار اسرقها   غنيت عنها وشر الناس من سرقا

وان أحسن بيت أنت قائله   بيت يقال اذا انشدته صدقا

وقد مات مقتولا ولم يناهز العشرين من عمره وقصة قتله مشهورة فى كتب الادب

(٣) عمرو بن كلثوم التغلبي وكانت وفاته فى السنة الاولى من الهجرة ومطلع معلقته

ألا هبي بصحنك فاصبحينا   ولا تبقي خمور الاندرينا

وهو من أجود العرب شعراً واعزهم نفساً وأكثرهم امتناعا فى شعره حتى قال بعضهم: «لله درّ عمرو بن كلثوم لو أنه رغب فيما رغب فيه اصحابه من كثرة الشعر ولكن واحدته أجود من مئاتهم» ويذكرون أنه عاش مائة وخمسين سنة وسبب موته مشهور ايضاً

(٤) الحرث بن حلزة اليشكرى ومولده قبل الهجرة باثنتين وثلاثين سنة وهو من اهل العراق ومشاهير الشعراء ومطلع معلقته

آذنتنا ببينها أسماء   رب ثاوٍ يمل منه الثواء

ومنها

لا يقيم العزيز بالبلد السـ ـهل ولا ينفع الذليل النجاء
ليس ينجى الذى يوائل منا رأس طود وحرة رجلاء

ومن شعره

عش بالجدود فما يضـ ـر الجهل ما أوتيت جدا
والعيش خير فى ظلا ل النوك ممن عاش كدا
ولقد رأيت معاشرا جمعوا لهم مالا وولدا
وهمو ذباب طائر لا يسمع الآذان رعدا

(٥) لبيد بن ربيعة العامرى ويكنى بأبى عقيل وكان مولده قبل الهجرة باربعين سنة وهو من اهل العراق أيضاً أدرك الاسلام واسلم ومطلع معلقته

عفت الديار محلها فمقامها بمنى تأبد غولها فرجامها

ومن شعره فى الجاهلية

بلينا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديار بعدنا والمصانع
فلا جزع ان فرق الدهر بيننا فكل امرئ يوما به الدهر فاجع
وما المرء الا كالشهاب وضوئه يحور رمادا بعد ما هو ساطع

وما المال والاهلون الا ودائع ولا بد يوما ان تردّ الودائع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقى بالمعيشة قانع

وقد عاش عمرا طويلا والى ذلك يشير بقوله

ولقد سئمت من الحياة وطولها وسؤال هذا الناس كيف لبيد

روى أنه لم يقل شعرا منذ أسلم وكان يقول: ابدلني الله به القرآن. وله في الكرم آثار مشهورة: حكى انه كان عليه نذر من قديم ان لا تهب ريح الصبا الا وينحر ويطعم فهبت يوما وهو فقير لا يملك شيئاً فعلم بذلك امير العراق وقتئذ الوليد بن عقبة فخطب الناس وقال: انكم تعرفون نذر أبي عقيل على نفسه وقد أصبح اليوم فقيرا فأعينوه. ثم نزل فبعث اليه بمائة ناقة وكتب اليه يقول

أرى الجزار يشحذ مديتيه اذا هبت رياح بني عقيل
طويل الباع ابلغ جعفرى كريم النفس كالسيف الصقيل
يهش اذا الضيوف تداولته فيقرى بالبعير وبالفصيل

وكان للبيد بنت فقال لها اجيبي الامير لانى تركت قول الشعر فقالت :

اذا هبت رياح بنى عقيل دعونا عند هبتها الوليدا
بامثال الهضاب كأن قوما عليها من بنى حام قعودا
أبا وهب جزاك الله خيرا نحرناها واطعمنا الثريدا
فعد ان الكريم له معاد وظنى فى ابن عقبة ان يعودا

فقال لها : أحسنت يابنية لولا المسألة. فقالت : ياأبى ان مثل هذا لا يستحى من مسألته. ومات لبيد وله من العمر مائة وأربعون سنة.

(٦) زهير بن أبى سلمى المزنى كان شاعراً مشهوراً فى الجاهلية من أهل نجد مات قبل البعثة بسنة ومطلع معلقته

أمن أم أوفى[١] دمنة لم تكلم بحومانة الدراج فالمتثلم

ومن أبياتها الجارية مجرى الحكم قوله

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش ثمانين حولا لا أبالك يسأم

(١) ذكر ابن الاعرابى أن زهيرا تزوّج امرأتين الاولى اسمها أم أوفى وهى التى ذكرها فى البيت الاول من معلقته ولدت له أولادا ماتوا ثم تزوّج غيرها وهى أم ابنيه كعب وبجير فغارت من ذلك فطلقها ثم ندم

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب تمته ومن تخطئ يعمر فيهرم
رأيت سفاه الشيخ لا حلم بعده وان الفتى بعد السفاهة يحلم
واعلم ما فى اليوم والامس قبله ولكننى عن علم ما فى غد عمى
ومن لم يصانع فى أمور كثيرة يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم
ومن يجعل المعروف من دون عرضه يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم
ومن يك ذا فضل ويبخل بفضله على قومه يستغن عنه ويذمم
ومن هاب أسباب المنايا ينلنه وان يرق أسباب السماء بسلم
ومن يجعل المعروف فى غير أهله يكن حمده ذما عليه ويندم
ومن لم يذد عن حوضه بسلاحه يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم
ومن يغترب يحسب عدوا صديقه ومن لا يكرم نفسه لا يكرم
ومهما تكن عند امرئ من خليقة وان خالها تخفى على الناس تعلم
وكائن ترى من معجب لك شخصه زيادته او نقصه فى التكلم
لسان الفتى نصف ونصف فؤاده فلم يبق الا صورة اللحم والدم
سألنا فأعطيتم وعدنا فعدتم ومن أكثر التسآل يوما سيحرم

ويقال انه رآى قبل موته بسنة فى نومه كأنه رفع الى السماء حتى كاد أن يمسها بيده ثم انقطعت الحبال فدعى بنيه

وقص عليهم رؤياه وقال لهم: انه سيكون بعدى أمر يعلو من اتبعه ويفلح فخذوا بحظكم منه. ثم لم يعش الا يسيرا حتى مات فلم يحل الحول حتى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أسلم بجير بن زهير وحسن اسلامه فلامه اخوه كعب بن زهير بقوله

ألا بلغا عنى بجيرا رسالة فهل لك فيما قلت ويحك هل لكا

سقاك بها المأمون كأسا روية فأنهلك المأمون منها وعلكا

فلما بلغ النبي صلى الله عليه وسلم هجو كعب له اهدر دمه فكتب إليه أخوه بجير يعلمه بذلك فضاقت بكعب الارض ولم يدر فيم النجاة فأتى أبا بكر فاستجاره فقال: أكره أن اجير على رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد اهدر دمك. فأتى عمر فقال مثل ذلك فأتى عليا فقال: « ادلك على امر تنجو به: هو أن تصلى مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فاذا انصرف فقم خلفه وقل مد يدك يارسول الله أبايعك فانه سيناولك يده من خلفه فخذ يده فاستجره فانى ارجو أن يرحمك. » ففعل فلما ناوله رسول الله يده استجاره وأنشد قصيدته التى مطلعها « بانت سعاد فقلبي اليوم متبول » إلى آخرها فأجازه عليها

ببردته الشريفة . ولابيه زهير قصائد غير المعلقة كانت تلقب بالحوليات وكان ينظم الواحدة منها فى أربعة أشهر ويهذبها بنفسه فى أربعة أشهر ويعرضها على أرباب الشعر فى مثلها فلا يشهرها حتى يأتى عليها حول وكان زهير منقطعا الى خاله بشامة بن الغدير معجبا بشعره وكان بشامة رجلا مقعدا ليس له ولد حازم الرأى كثير الأدب وكان يستشيره قومه « بنو غطفان » اذا أرادوا أن يغزوا واذا رجعوا قسموا له مثل ما يقسمون لافضلهم فلذلك كثر ماله وكان أسعد غطفان فى زمانه فلما حضره الموت جعل يقسم ماله فى أهل بيته وبنى اخوته فأتاه زهير فقال ياخالاه لو قسمت لى من مالك فقال له: يا ابن أختى لقد قسمت لك افضل من ذلك وأجزل. قال وما هو ؟ قال شعرى .

(٧) عنترة بن عمرو بن معاوية بن شداد العبسى شاعر بنى عبس وفارسهم ولد سنة ٥٢٥ مسيحية وتوفى سنة ٦١٥ ويقال له عنترة الفوارس ويكنى بأبى المغلس [١] وكانت أمه

---

(١) لم يشتهر أحد من الجاهلية أو الاسلام بين عامة الناس

جارية حبشــية اسمها زبيبة سباها أبوه فى بعض مغازيه فاستولدها عنترة وكان ابوه ينكره اوّلاً ولا يدعوه ابناً له لكون امه جارية فلما شب وترعرع وتعلم الفروسية وصار شجاعا مشهورا يردّ العدوّ وشاع ذكره بين العرب دعاه ابوه ابنا له وكان عنترة يهوى ابنــة عمه عبلة بنت مالك بن قراد وكثيرا مايذكرها فى شعره وكان ابوها يمنعه من زواجها فهام بها واشــتد وجده واخيرا تزوّجها بعد جهد طويل ثم مات عنها مقتولا ومطلع معلقته

هل غادر الشعراء من متردم   ام هل عرفت الدار بعد توسم

ومنها

وخاصتهم اشتهار عنترة فلا تكاد ترى رجلا ولا امرأة ولا صبياً ولا ابنة سواء كان من الجهلاء أو العلماء من الفقراء أو الاغنياء الا وقد عرف اسمه أو سمع شيئاً عنه وسبب اشتهاره قصته المشهورة التى لم يعب أحد من عامة القراء تلاوتها أو سماعها . وهذه القصة هى عبارة عن رواية تاريخية وضعت فى أوائل الاســلام وغير معروف تماما واضعها ولكنهم ينسبونهــا الى الاصمعى « فى أوائل القرن الثالث للهجرة » لورود اسمه فيها بمنزلة الراوى

فاذا ظلمت فان ظلمي باسل ... مر مذاقته كطعم العلقم
فاذا شربت فانني مستهلك ... مالي وعرضي وافر لم يكلم
واذا صحوت فما اقصر عن ندى ... وكما علمت شمائلي وتكرمي

وكان عنترة مع شدة بطشه لين العريكة حليما سهل الاخلاق لطيف الحاضرة رقيق الشعر لا يأخذ مأخذ الجاهلية في ضخامة الالفاظ وخشونة المعاني ومن ذلك قوله في عبلة

ياعبل لا أخشى الحمام وانما ... أخشى على عينيك وقت بكاك

وكانت له اليد الطولى في الحماسة ومن ذلك قوله

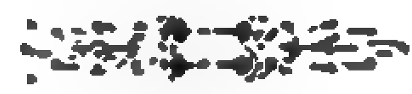
إني لأعجب كيف ينظر صورتي ... يوم القتال مبارز ويعيش

وقوله من قصيدة

حصاني كان دلال المنايا ... فخاض غبارها وشرى وباعا
وسيفي كان في الهيجا طبيبا ... يداوي رأس من يشكو الصداعا
ولو أرسلت رمحي مع جبان ... لكان بهيبتي يلقى السباعا
ملأت الارض خوفا من حسامي ... وخصمي لم يجد فيها اتساعا
اذا الابطال فرت خوف بأسي ... ترى الاقطار باعا أو ذراعا

ومن شعره أيضا

أحبك ياظلوم وانت منى   مكان الروح من جسد الجبان
ولو أنى اقول مكان روحى   لخفت عليك بادرة الطعان



وقد علق الكعبة غير تلك المعلقات السبع معلقات اخرى كمعلقة الأعشى التى أوّلها

ودع هريرة ان الركب مرتحل   وهل تطيق وداعاً ايها الرجل

ومنها

قالت هريرة لما جئت زائرها   ويلى عليك وويلى منك يارجل
قالوا الطراد فقلنا تلك عادتنا   أو تنزلون فانا معشر نزل

وقد ذكر ياقوت فى معجمه أشعار العرب مقسمة الى الانواع الآتية السموط والمجمهرات والمنتقيات والمذهبات والمراثى والمشوبات والملحمات وأقدم الآداب التى انتهت الينا هى أمثال لقمان وهى نثر مقفى ويأتى بعدها منظومات شاعرين قديمين وهما عامر بن خنيس والمرقش الاصغر ومن أشهر شعراء الجاهلية الذين نبغوا فى القرن السادس للميلاد غير من ذكرناهم عدىّ بن ربيعة المعروف بالمهلهل وعدىّ

بن زيد وعدىّ بن الابرص وأمية بن أبى الصلت ويعدونهم من الطبقة الاولى والشنفرى وأبو دؤاد الايادى وسلامة بن جندل والمثقب العبدى والبراق بن رومان وتأبط شراً والسموأل وعلقمة الفحل والحارث بن عباد وخداش بن زهير وعروة بن الورد والاسود بن يعفر وحاتم الطائى وأوس بن حجر ودريد بن الصمة ويعدونهم من الطبقة الثانية ولقيط بن زرارة وغيره ويعدونهم من الطبقة الثالثة . وقد اشتهر أيضاً نساء كثيرات فى الشعر والذكاء المفرط كالخنساء التى شهد لها النابغة فى سوق عكاظ باليد الطولى فأعجب بشعرها وقال لها «لولا ان هذا الاعمى أنشدنى قبلك — يعنى الاعشى — لفضلتك على شعراء هذا الموسم» واكثر شعرها فى مراثى اخويها معاوية وصخر وقد أدركت الاسلام واسلمت وتوفيت سنة ٢٤ هجرية

وقد اجمع علماء الشعر انه لم تكن قط امرأة قبلها ولا بعدها اشعر منها . وكانت شريفة الاحساس ذات نخوة عربية وشهامة نادرة المثال . وقد اختلف الناس فى تفاضل

الشعراء: فقال قوم أفضلهم امرؤ القيس ومنهم من قال زهير بن أبي سلمى وقيل عنترة بن شداد وقيل غيره وسئل الاصمعى من أشعر العرب فقال: عنترة اذا ركب وزهير اذا رغب والنابغة اذا طرب والاعشى اذا رهب وقال الفرزدق: «أن الشعر كان جملا باذلا عظيماً فنحر فجاء امرؤ القيس وأخذ رأسه وعمرو بن كلثوم أخذ سنامه وزهير كاهله والاعشى والنابغة فخذيه واطرافه ولبيد كركرته ولم يبق إلا المزارب والبطن فتوزعناها بيننا»

اما ما حفظ فى أيامنا هذه من الأشعار البليغة فهى موجودة فى كتب كثيرة اشهرها ما ورد فى جمهرة العرب لابن دريد وكتاب الاغانى للاصبهانى والعقد الفريد لابن عبد ربه وفى كتاب الميدانى نقلا عن المفضل وفى كتاب ادب الكاتب لابن الاثير وآخر للنويرى وفى مجموعة الحماسة. وفى كتابى ابن الاثير والنويرى ومجموعة الحماسة أشعاراً أخرى عن الحروب التى كانت بين الروم والفرس اى بين كسرى أنو شروان وبين جوستنيان وهي الحروب التى اشترك فيها

ملوك الحيرة وملوك غسان من العرب

علوم العرب ومعارفهم — كان العرب لهم مع تفردهم بالفصاحة والبلاغة معرفة بأوقات مطالع النجوم ومغاربها وعلم بأنواء الكواكب وأمطارها حسبما ادركوه بفرط العناية وطول التجربة لاحتياجهم الى معرفة ذلك فى اسباب المعيشة . وزعم بعضهم ان الجاهلية كانوا على جانب عظيم من العلم والفلسفة وان فيثاغورس اليونانى استمد أكثر معارفه منهم كما رواه الفيلسوف ملك (بورفيروس) ووافقه جماعة من المتأخرين وكذلك قام بين العرب بعض أطباء كالحرث ابن كلدة الثقفى : يقولون انه رحل الى أرض فارس وأخذ الطب عن أهل جند يسابور وغيرها وطبب فى أرض فارس وحصل مالا ثم ان نفسه اشتاقت الى بلاده فرجع الى الطائف ومن أقواله: «من سره البقاء — ولا بقاء — فليباكر الغداء وليخفف الرداء وليقل من غشيان النساء قال بعضهم : يريد بخفة الرداء أن لايكون عليه دين .

وبالجملة فقد كانوا يعرفون من الطب مايحتاجون إليه

فى مداواة ما يـلم بهم وما يعتورهم حسب حالتهم وعوائدهم ومجرباتهم . وفى الحقيقة إنهم كانوا ولا يزالون أقل من أهل الامصار اضطرارا الى الترف وبالتبعية الى الطب والتقدم فى علومه كما قاله ابن خلدون لاقتصارهم على أنواع بسـيطة من المـأكل وتعوّدهم الجوع وجوبهـم القفار ترتاض أجسادهم ويكونون بمعزل عن استيلاء الابخرة السامة الحاوية أنواع النقيعيات

أما آدابهم وحكمهم فقد اعترف لهم بالسبق فيها كل من خالطهم أووصل اليه كلامهم وشهد لهم بها ملوك الاعاجم وحسب الانسان ترديد الطرف فى حكم أكثم بن صيفى (١)

(١) تكلم اكثم يوماً بين يدى كسرى فقال: « ان أفضل الاشياء أعاليها . وأعلى الرجال ملوكها . وأفضـل الملوك أعمها نفعاً . وخير الازمنة أخصبها . وأفضل الخطباء أصدقها . والصدق منجاة . والكذب مهواة . والشر لجاجة . والحزم مركب صعب . والعجز مركـب وطئ . وآفة الرأى الهوى . والعجز مفتاح الفقر . وخير الامور منقبة الصبر . وحسن الظن ورطة . وسوء الظن عصمة . واصلاح فساد الرعية خير من اصلاح الراعى . ومن فسـدت بطانته كان

من رجال العرب ليقدرهم قدرهم

ويجمل بنا قبل اختتام هذا الكلام ان نذكر هنا حديثاً جرى للنعمان مع كسرى وعنده وفود الروم والهند والصين وقد ذكر كل منهم ملوكه وبلاده فافتخر النعمان بالعرب وفضلهم على جميع الامم لا يستثنى فارس ولا غيرها فقال كسرى — واخذته عزة الملك: «يانعمان لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم فوجدت الروم لها حظ فى اجتماع ألفتها وعظم سلطانها وكثرة مدائنها ووثيق بنيانها وان لها دينا

كالغاص بالمـاء . وشر البلاد بلاد لا أمير لهـا . وشر الملوك من خافه البرئ . وخير الاعوان من يرعى الصحبة . وأحق الجنود من حسنت سيرته . ويكفيك من الزاد ما بلغك المحل . وحسبك من شر سماعه . والصمت حلم وقليل فاعله . البلاغه فى الايجاز . من شدد نفر . ومن تراخى ألف.» فتعجب كسرى من حكم أكثم وأمثاله . ومن حكمه أيضاً : ذللوا اخلاقكم للمطالب . وقودوها الى المحامد . وعلموها المكارم . وصلوا من رغب اليكم وتحلوا بالجود يلبسكم المحبة . ولا تعتقدوا البخل فتتعجلوا الفقر . ومن حكمه قوله

كونوا جميعاً يابنىّ اذا اعترى خطب ولا تتفرقوا آحادا
تأبى القداح اذا اجتمعن تكسرا واذا افترقن تكسرت أفرادا

يبين حلالها وحرامها ويرد سفيهها ويقيم جاهلها ورأيت الهند نحوا من ذلك فى حكمتها وطبها مع كثرة أنهار بلادها وثمارها وعجيب صناعاتها وطيب اشجارها ودقيق حسابها وكثرة عددها وكذلك الصين فى اجتماعها وكثرة صناعات أيديها وفروسيتها وهمتها فى آلة الحرب وصناعة الحديد وان لها ملكا يجمعها والترك والخزر على ما بهم من سوء الحال فى المعاش وقلة الريف والثمار والحصون وما هو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس لهم ملوك تضم قواصيهم وتدبر أمورهم. ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير فى امر دين ولا دنيا ولا حزم ولا قوة ومع ان مما يدل على مهانتها وذلها وصغر همتها محلتهم التى هم بها مع الوحوش المنافرة والطير الحائرة يقتلون اولادهم من الفاقة ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة قد خرجوا من مطاعم الدنيا ومشاربها وملابسها ولهوها ولذاتها فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الابل التى يعافها كثير من السباع لثقلها وسوء طعمها وخوف دائها وان قرى أحدهم ضيفاً عدها مكرمة وان اطعم أكلة عدها غنيمة

تنطق بذلك أشعارهم وتفتخر بذلك رجالهم . ما خلا هذه التنوخية التي أسس جَدّي اجتماعها وشد مملكتها ومنعها من عدوها فجرى لها ذلك الى يومنا هذا وان لها مع ذلك آثارا ولبوساً وقرى وحصونا وأموراً تشبه بعض أمور الناس: يعني اليمن. ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتريدوا أن تنزلوا فوق مراتب الناس!»

قال النعمان: أصلح الله الملك حق لأمةٍ الملك منها ان يسمو فضلها ويعظم خطبها وتعلو درجتها. إلا أن عندي جوابا فى كل ما نطق به الملك فى غير رد عليه ولا تكذيب له فان أمنني من غضبه نطقت به. قال كسرى قل فأنت آمن. فقال النعمان:

«أما امتك أيها الملك فليست تنازع فى الفضل لموضعها الذى هى به من عقولها وأحلامها وبسطة حكمها وبحبوحة عزها وما أكرمت به من ولاية أبائك وولايتك . وأما الامم التى ذكرت فما من أمة تقرنها بالعرب الا فضلتها بعزها ومنعتها وحسن وجوهها وبأسها وسخائها وحكمة ألسنتها وشدة عقولها وانفتها ووفائها فأما عزها ومنعتها فانها لم تزل

مجاورة لآبائك الذين دوخوا البلاد ووطدوا الملك وقادوا الجند ولم يطمع فيهم طامع ولم ينلهم نائل : حصونهم ظهور خيلهم ومهادهم الارض وسقوفهم السماء وجنتهم السيوف وعدّتهم الصبر إذ غيرهم من الأمم انما عزها الحجارة والطين وجزائر البحور . وأما حسن وجوهها وألوانها فقد يعرف فضلهم فى ذلك على غيرهم من الهند المنحرفة والصين المنخفة والترك المشوهة والروم المقشرة . وأما أنسابها وأحسابها فليست أمة من الأمم إلا وقد جهلت آباءها وأصولها وكثيراً من اولها وآخرها حتى ان احدهم يسأل عن وراء ابيه دنيا فلا ينسبه ولا يعرفه وليس احد من العرب إلا يسمى آباءه أبا فأبا . احاطوا بذلك احسابهم وحفظوا به انسابهم فلا يدخل رجل فى غير قومه ولا ينتسب الى غير نسبه ولا يدعى الى غير ابيه . واما سخاؤها فان ادناهم رجلا الذى تكون عنده البكرة أو الناب عليها بلاغه فى حمولته وشبعه وريه فيطرقه الطارق الذى يكتفى بالفلذة ويجتزى بالشربة فيعقرها له ويرضى ان يخرج عن دنياه كلها فيم يكسبه حسن الأحدوثة وطيب

الذكر . واما حكمة ألسنتهم فان الله تعالى اعطاهم فى اشعارهم ورونق كلامهم وحسنه ووزنه وقوافيه مع معرفتهم بالاشارة وضربهم للامثال وابلاغهم فى الصفات ماليس لشئ من السنة الأجناس ثم خيلهم افضل الخيل ونساؤهم اعف النساء . ولباسهم افضل اللباس ومعادنهم الذهب والفضة وحجارة جبالهم الجزع ومطاياهم التى لا يبلغ على مثلها سفن ولا يقطع بمثلها بلد تفر . واما دينها وشريعتها فانهم متمسكون به حتى يبلغ احدهم من نسكه بدينه ان لهم اشهرا حرما وبلدا محرما وبيتا محجوجا ينسكون فيه مناسكهم ويذبحون فيه ذبائحهم فيلقى الرجل قاتل ابيه او اخيه وهو قادر على اخذ ثاره وادراك رغمه منه فيحجزه كرمه ويمنعه دينه عن تناوله بأذى واما وفاؤها فان احدهم يلحظ اللحظة ويومئ الايماء فهى ولث وعقدة لا يحلها الا خروج نفسه . وان احدهم ليرفع عودا من الارض فيكون رهنا بدينه فلا يغلق رهنه ولا تخفر ذمته. وان احدهم ليبلغه ان رجلا استجار به وعسى ان يكون غائبا عن داره فيصاب فلا يرضى حتى يفني تلك القبيلة التى اصابته أو

تفني قبيلته لما اخفر من جواره. وانه ليلجأ اليهم المجرم المحدث من غـير معرفة ولا قرابة فتكون أنفسهم دون نفسه وأموالهم دون ماله . وأما قولك ايها الملك « يئدون اولادهم » فانمـا يفعله بعض جهالتهم بالاناث أنفة من العار . وأما قولك « إن افضل طعامهم لحوم الابل على ماوصفت منها » فما تركوا مادونها إلا احتقارا له فعمدوا الى اجلها وأفضلها فكانت مراكبهم وطعامهم مع انها اكثر البهائم شحوما واطيبها لحوما وارقها البانا واقلها غائلة واحلاها مضـغة وانه لاشئ من اللحمان يعالج بما يعالج به لحمها إلا استبان فضلها عليه . واما تحاربهم وأكل بعضهم بعضاً وتركهم الانقياد لرجل يسوسهم ويجمعهم فانما يفـعل ذلك من يفعله من الأمم اذا آنست من نفسها ضعفا وتخوّفت نهوض عـدوّها اليها بالزحف وانه انما يكون فى المملـكة العظيمة اهل بيت واحد يعرف فضلهم على سائر غـيرهم فيلقون اليهم امورهم وينقادون لهم بأزمتهم . واما العرب فان ذلك كثير فيهم حتى لقد حاولوا أن يكونوا ملوكا اجمعين مع انفتهم من اداء

الخراج والعشر . اما اليمن التي وصفها الملك فلما اتى جد الملك اليها الذي أتاه عند غلبة الحبش له على ملك متسق وامر مجتمع فأتاه مسلوبا طريدا مستصرخا قد تقاصر عن ايوانه وصغر في عينه ماشيد من بنائه ولولا ماوتر به من يليه من العرب لمال الى مجال ولوجد من يجيد الطعان. ويغضب للاحرار من غلبة العبيد الاشرار.» فعجب كسرى لما اجابه النعمان به وقال: «انك لاهل لموضعك من الرئاسة في أهل اقليمك ولما هو أفضل».

فلله در النعمان على هذا الحديث وهذا الوصف فقد جمع فأوعى ولخص في كلمات وجيزات جميع صفات العرب المميزة لهم التي ذكرناها في هذا الفصل .

في الكتابة عند العرب — لا نعلم بالضبط الزمن الذي فيه استعمل الخط بين القبائل العدنانية أيام الجاهلية وانما المعلوم انه قبل الاسلام بزمن قليل عرف عندهم الخط الحيري نسبة الى الحيرة عاصمة ملوك العراق وعلى ما جاء في أخبار العرب ان أول من استنبط الكتابة مرار بن مرة الانباري نسبة الى الانبار(١) اخذها عن الخط المسند المعروف بالحميري

بعد ان تصرف فيه ومن الانبار انتشرت الكتابة العربية فأخذها عنهم اهل الحيرة وتداولوها ثم تدم الحيرة حرب بن امية بن عبد شمس بن عبد مناف القرشي الاموى فنقل هذه الكتابة من الحيرة للحجاز بعد ان عاد لمكة. وفى رواية أخرى ان أول من كتب بالعربية من أهل اليمن قوم هود وكانت تسمى كتابتهم بالخط المسند وهو خط حمير كانوا يكتبون كل حروفه منفصلة بعضها عن بعض وكانوا يمنعون العامة من تعلمه فلا يتعلمه أحد إلا باذنهم حتى تعلمه مرار المذكور واسلم بن توك وعامر بن حديرة ونويرة من عرب طئ فتصرفوا فيه وسموه بخط الجزم لانه جزم أى اقتطع من خط حمير المعروف بالخط المسند ثم علموه أهل الانبار ومنهم اشتهرت الكتابة فى البلاد العربية. وبعد الفتوحات الاسلامية وتمصير البصرة والكوفة عرف هذا الخط بالكوفى وكان

(١) الانبار مدينة قديمة على الفراة بينها وبين بغداد وعشرة فراسخ وانما قيل لها الانبار لان الاكاسرة كانوا يخزنون فيها المطاعم وكلمة عنبر « المستعملة الآن مأخوذة منها ومعناها « مخزن »

غفلا من الحركات والتنقيط الى أن وضع أبو الاسود الدؤلى الشكل فى أيام معاوية ووضع نصر بن عاصم النقط افراداً وازواجاً فى أيام عبد الملك بن مروان منعاً للاشكال والابهام ثم لما انتشرت العرب فى الاقطار والممالك وافتتحوا افريقية والاندلس واختط بنو العباس بغداد ترقت الخطوط للغاية ثم تقدمت الحضارة والتمدن فى الدول الأسلامية فى كل قطر وعظم الملك واتسعت دوائر العلوم وانتسخت الكتب وتنافس الكتاب فى كتاباتهم وملؤا بها القصور السلطانية والخزائن الملوكية وتبارت الاقطار فى ذلك ولا زالت الخطوط آخذة فى التحسين على أساليب جديدة.

قال بعضهم ان ابن مقلة هو أول من نقل الخط الكوفى الى العربى وسطة يضرب به المثل فى الحسن لانه أحسن خطوط الدنيا وقتها كما قيل انه كتب كتاب هدنة بين المسلمين والروم فوضعوه فى كنيسة قسطنطينية فكانوا يبرزونه فى الاعياد ويجعلونه من جملة زينتهم فى أخص بيوت العبادات

هذا وقد ذهب آخرون الى أنه وجدت خطوط نسخ

قبل بن مقلة وفى زمنه قبل ظهوره. فقد اخبرنى فضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية حالا انه رأى خطوطا فى فيينا — عاصمة بلاد النمسا — مكتوبة سنة ٢٤ هجرية

وانه موجود بمكتبة الازهر كتاب «غريب الحديث» لابى عبيد مكتوب سنة ٣١١ هجرية وابن مقلة لم يشتهر الا سنة ٣١٤.

ثم جاء بعد ابن مقلة ابن هلال وهو أبو علىّ الحسن بن هلال المعروف بابن البواب فزاد فى تغريب الخط ثم جاء ياقوت المستعصمىّ وختم حسن الخط وأكمله فحسن الخط جداً فى عهد الدولة العباسية ثم لما تضعضعت خلافة بغداد وانتقلت الخلافة الى مصر والقاهرة انتقل الخط والكتابة والعلم اليها وسرى منها الى مضافاتها من البلاد التابعة لدولتها والى ماجاورها فلازال الخط فى جميع هذه الاماكن آخذاً فى الجودة الى هذا العهد وصار للحروف قوانين فى وضعها واشكالها متعارفة بين الخطاطين. وأول من ضبط وجعل له قوانين معروفة علماء الخط من الاتراك العثمانيين واليهم انتهت جودة الخط وكماله

فى الوقت الحاضر . وفى الحقيقة لا يقال ان جودة الخط الآن احكم من السابق الا بالنسبة لذوق الوقت فالخط المستعمل الآن فى المحاضرات والانشاآت بقدر درجة الانشاآت والمحاورات ومألوف الدواوين فى ذلك . وبالجملة فلسان العرب الاوّل قد تغير واحتاج الى الاصلاح بالنحو وكذلك الخط العربى قد تغير واحتاج الى الاصلاح بقوانين جديدة بخلاف اللغة العربية فانها باقية على حالها وفى موضوعاتها لم تتغير الى هذا العهد فلم تزل محفوظة دائرة على ألسنة العلوم ومعرفتها ضرورية كما سبق لنا القول لاسيما لأهل الشريعة اذ مأخذ الأحكام الشرعية كلها من الكتاب والسنة وهى لغة العرب والناقلون للشريعة هم الصحابة والتابعون وهم عرب وشرح مشكلات الشريعة من لغاتهم فالمحافظة على اللغة العربية من أوجب الواجبات وطريق المحافظة عليها هى الكتابة وهى فضيلة من الفضائل ومما يدل على فضلها قوله صلى الله عليه وسلم: قيدوا العلم بالكتابة. فضلا عن أن بقاء الأمة ببقاء لغتها والتاريخ أكبر شاهد على مانقول

أما الخط المسند فهو قديم العهد ولا يعلم من أثره الا أنه خط لحمير ويظن البعض انه عن الخط الفنيق ولعله مأخوذ عن خطوط أهل الهند القديمة لأنه كثيرا مايشابهها وقد وجد أهل البحث من الحديثين آثار اللغة الحميرية منقوشة على عدة حجارة وعمد فى جهات حضرموت وبلاد اليمن بالخط المسند المذكور وبعد مزاولة قراءته بما يقاربه من الخطوط ثبت لهم أنها لغة قديمة جداً ومن مشابهتها اللغة العربية العدنانية من جهة وللغة الحبش من جهة أخرى وللغة أهل مهرة أيضا جزموا بأنها هى لغة القبائل البائدة كعاد وثمود وطسم وجديس التى سنثبت طرفا مما وصلنا عنها من الحديث وفى رواية أخرى ان العرب الشماليين تعلموا الكتابة من هل الشام الذين هم أقرب السريان اليهم وان أهل الشام كانوا يستعملون اللغة السريانية فى القرن الخامس أو السادس للميلاد الذى فيه بدأ العرب أن يكتبوا بالقلم الكوفى المتولد منه القلم النسخي الدارج اليوم وأن قبل القلم الكوفى كان اشتهر فى اليمن من بلاد العرب قلم آخر متخذ من القلم السريانى

وذلك فى الدولة المشهورة التى يقال لها الحميرية ويسمى علماء الافرنج هذا القلم القلم السبئى وبذلك حكم أصحاب هذا الرأى بأن الكتابة العربية مأخوذة من السريانية لا من اليونانية أو غيرها كما قال بعضهم ايضاً وبأن الحبشة فى نحو ذلك الزمان تعلموا الكتابة من سريان الشام لان حروف قلمهم تشبه الحروف السريانية شبها شديدا

وقد ذهب آخرون الى أن الحبش تعلموا الكتابة من السريان لا رأسا ولكن بواسطة عرب اليمن وهم السبئيون والحميريون الذين جرت بينهم وبين الحبشة وقائع كثيرة فى سالف الزمان لمجاورة بعضهم لبعض . فان قلم الحبشة شبيه بالقلم الحميرى غاية الشبه حتى انه لما بدأ الافرنج فى هذا القرن بالبحث عن الحجارة القديمة المكتوبة بهذا القلم الحميرى الذى كان مجهولا لم يمكن علماءهم أن يفكوا قراءته إلا بمقابلته بالقلم الحبشى . وقد تطرف بعضهم فنسب اختراع الكتابة للسريانيين الشرقيين الذين يقال لهم الكلدان وهم الذين سبقوا فى العمران والتمدن سائر فروع الأمة السامية وفاقوا

عليهم جميعا وقال ان الذين جلبوا صناعة الكتابة الى اليونانيين وعلموهم إياها كانوا سريانيين بلا شك وكذلك اللاتينيون تعلموا الكتابة منهم وأهل هذا المذهب يقولون ان لهم أدلة كثيرة على اثباته ليس هذا محل ايرادها وجاء فى مجلة الهلال الاغر: ان أصل الكتابة المعروفة الآن فى العالم المتمدن نشأ فى وادى النيل بشكل صور وهى المعروفة بالهيروغليفية ثم حولها الفينقيون الى الحروف الهجائية وعلموها لليونان فى القرن السادس عشر قبل الميلاد والاشوريين بعد ذلك بقليل وعرفت بالحرف الأرامى . ومن الحرف اليونانى القديم تولدت جميع الخطوط الافرنجية التى يكتب بها أهالى أوربا وأمريكا وكثير من مستعمراتهما . ومن الحرف الأرامى تولدت الخطوط التى تكتب بها اللغات الشرقية وأكثرها انتشارا الخط العربى الذى يكتب به أكثر أهل آسيا وإفريقية فيمتد من أقاصى الهند شرقا الى أقصى بلادمراكش غربا ومن بلاد تركستان شمالا الى أدانى زنجبار جنوبا . وانتشار الخط العربى على هذه الصورة حجة دامغة على

امتداد فتوحات العرب فى صدر الاسلام . وكان العرب يكتبون على قطع العظام أو الخشب أو الاحجار أو سعف النخل وما شاكل ذلك وربما كتبوا على البردى ايضاً حتى اصطنعوا الكاغد فى أوائل الدولة العباسية

صناعة العرب فى الجاهلية — كان العرب فى الجاهلية يعرفون الذهب والفضة والنحاس والحديد ويستعملون منها حلياً واوانى ورماحاً ودروعاً وسيوفاً وأدوات أخرى كثيرة وكانوا يصنعون المآكل والمشروبات والخمور وينسجون الملابس والمنسوجات من الحرير والقطن والكتان وكانوا يغزلون خيامهم وخباءهم من صوف الشاة ووبر الابل والفسطاط من شعر المعزى والسرادق من القطن ويصطنعون البيوت من اللبن والاجر والحجارة . ويقولون إن أكثر هذه الصناعات تعلمها العرب من مجاوريهم كالفرس والهند والمصريين كما نقلوا عنهم أيضاً السمور والسنجاب والقاقم والفنك والدلق والديباج والسندس والاستبرق ودليلهم على ذلك أن أغلب هذه الاسماء اعجمى على ما أثبته أئمة اللغة وليس

بدعا ان يكون قد علق فى بعض الاقطار المتحضرة شئ من الصناعات المأخوذة عن الجوار . وكانوا يصيغون حليا من اللؤلؤ والمرجان والاحجار الكريمة المعروفة عندهم وكذلك كان عندهم من الصناعات ما يفى بحاجياتهم كلها

التجارة فى الجاهلية — بقى علينا ان نبحث فى تجارة القوم وشأنهم فى الحضارة فانا نعلم من التاريخ ان تجار العرب كانوا يتجرون مع مصر والحبشة والهند وفارس وفينيقية على أن شأن العرب من البداوة البحتة واقتصار معظمهم على انتجاع العيش الفطرى يكاد ينقض تلك الرواية التاريخية لولا اتفاق المؤرخين عليها مع اختلافهم جنسا ولغة. أما اللغة العربية فتصدق على مؤدى التاريخ لانها تحوى كثيراً من الكلمات الاعجمية وتلك لا يتأتى دخولها بين قوم إلا اذا واصلتهم بالتجارة وحسبك اثباتاً لذلك ان معظم تلك الكلمات تدل على شئ لم يكن ليعرف فى العربية لولا الاتجار به . مثال ذلك الابريق والميزاب وامثالها فانها دخلت البلاد من الفرس وكذلك الفسطاط والقرميد واشباهها اخذت عن اليونانية ولم نذكر الا كلمتين

من كل من اللغتين اكتفاء على ان فى كتب اللغة من المعربات الشئ الكثير

أما العروض التجارية التى راجت سوقها بين العرب فقد ذكرها بعض المؤرخين حيث اعتبر ذلك بما ورد فى سفر التكوين ص ٢٧ عدد ٢٥ من قوله « واذا قافلة اسماعيليين مقبلة من صلعاد وجمالهم حاملة كثيراء وبلسانا ولاذنا ذاهبين لينزلوا بها مصر » وبما ورد عن بلينى المؤرّخ الرومانى المشهور من أن العرب كانوا يأخذون من مصر المنسوجات الكتانية ويجيئون اليها بحاصلات بلادهم. ويؤخذ مما قاله ثقات المؤرخين ان القبائل الساكنة سواحل البحر الاحمر كانوا من اشهر التجار وان قوافل البلاد العربية كانت تنزل فى العريش وان من أهم العروض التجارية عند العرب الطيوب والذهب والحجارة الثمينة والقرنة والبن والصمغ واللبان والصبر والمر والفلفل والحناء والعود وغيرها من العقاقير وانهم يستجلبون الكتان والقطن وبعض المعادن والرز والزيت والسكر الى غير ذلك وقيل ان الذهب كان وافراً جداً عند العرب حتى

ان السبئيين كانوا يموهون به جدران دورهم وأبوابها وسقوفها وكذلك الفضة والعقيق واللؤلؤ والمرجان ومعادن الرصاص وكانت مكة من اعظم مستودعات تجارة العرب تفد اليها الوفود للاتجار والبيع والشراء كما كانوا يؤمونها للحج والعبادة والتعاكظ وكذلك صنعاء اليمن كانت مركزا تجارياً مهماً فى بلاد العرب

نقود العرب ومسكوكاتهم وموازينهم — كان العرب أولاً على نهج سائر الفطريين أى ان تجارتهم بدأت بالمقايضة سلعة بسلعة ثم تدرجت الي الاقتصار على ثمن مسمى ولسنا على بينة من شأن ذلك الثمن قبل ظهور النقدين الكريمين أى الذهب والفضة فلما وجدا شرع القوم يتعاملون بهما وزنا اى انهم لم يكونوا قد ضربوا السكة ولا اقتبسوها بل أخذوا عن الجوار التعامل بالوزن باعتبار الدانق — وزن حبة من الحنطة — والدرهم — وزن خمسين دانقاً — والدينار — وزن مثقال غير ان المعاملة بالوزن لم تكن ذات أمد طويل لانهم استعوضوها بالسكة ولا يعرف اى النقد كان قديما ولئن ذكر فى كتب

اللغة ان الفلس اسم معاملة من النحاس قديمة العهد قليلة القيمة ويخطر لنا ان القوم ظلوا يتعاملون بالسكة النحاسية زمناً طويلاً أى حتى داناهم الروم وعاملوهم لانه ورد فى تاريخ المشرق وآثاره ما يستدل منه على ان ملوك البرثيين لم يضربوا من السكة الا الفضة ومثل ذلك فعل الفرس فى عهد بنى ساسان فانهم لم يضربوا من الذهب الا بضع قطع لم يقصدوا بها أن تكون سكة تجارية وأما الذهب والفضة فكانا يعلوان ويهبطان بمثابة العروض التجارية

وجاء فى كتاب النقود القديمة والاسلامية للمقريزى ان النقود التى كانت للناس على وجه الدهر على نوعين: السوداء الوافية والطبرية العتيقة. وهما غالب ما كان البشر يتعاملون به فالوافية وهى البغلية هى دراهم فارس — الدرهم وزنه زنة المثقال الذهب — والدراهم الجواز تنقص فى العشرة ثلاثة فكل سبعة بغلية عشرة بالجواز وكان لهم ايضاً دراهم تسمى جوراقية وكانت نقود العرب فى الجاهلية الذهب والفضة لاغير ترد اليها من الممالك دنانير الذهب قيصرية من قبل الروم ودراهم

فضة على نوعين سوداء وافية وطبرية عتقاء وكان وزن الدراهم والدنانير فى الجاهلية مثل وزنها فى الاسلام مرتين ويسمى المثقال من الفضة درهما ومن الذهب دينارا. وكانوا يتبايعون بأوزان اصطلحوا عليها فيما بينهم وهو الرطل الذى هو اثنتا عشرة أوقية والاوقية هى أربعون درهماً فيكون الرطل ثمانين واربعمائة درهم والنص وهو نصف الاوقية حوّلت صاده شينا فقيل نش وهو عشرون درهماً والنواة وهى خمسة دراهم والدرهم الطبرى ثمانية دوانيق والدرهم البغلى أربعة وقيل بالعكس والدرهم الجوارقى أربعة دوانيق ونصف والدانق ثمان حبات وخمسا حبة من حبات الشعير المتوسطة التى لم تقشر وقد قطع من طرفيها ما امتد. وكان الدينار يسمى لوزنه دينارا وانما هو تبر ويسمى الدرهم لوزنه درهما وانما هو تبر وكانت زنة كل عشرة دراهم ستة مثاقيل والمثقال زنة اثنين وعشرين قيراطا إلا حبة وهو ايضاً بزنة إثنتين وسبعين حبة شعير مما تقدم ذكره

وقيل ان المثقال منذ وضع لم يختلف فى جاهلية ولا اسلام

ويقال ان الذى اخترع الوزن فى الدهر الاول بدأه بوضع المثقال أولا فجعله ستين حبة زنة الحبة مائة من حب الخردل البرى المعتدل ثم ضرب صنجة بزنة مائة من حب الخردل وجعل بوزنها مع المائة حبة صنجة ثانية ثم ثالثة حتى بلغ مجموع الصنج خمس صنجات فكانت صنجته نصف سدس مثقال ثم أضعف وزنها حتى صارت ثلث مثقال فركب منها نصف مثقال ثم مثقالا وعشرة وفوق ذلك فعلى هذا تكون زنة المثقال الواحد ستة آلاف حبة . ولما بعث الله نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم أقر أهل مكة على ذلك كله وقال: الميزان ميزان أهل مكة. وفى رواية ميزان المدينة. اه

﴿ الفصل الثانى ﴾

طبقة العرب البائدة

عاد — ثمود — طسم — جديس وغيرهم

يريدون بالعرب البائدة كما قدمنا القبائل التى هلكت واندثرت أخبارها قبل الاسلام فهى عندهم تسع : عادوثمود وطسم وجديس وأميم وعبيل وعمليق وجرهم وجاسم وأشهرها الاربعة الاولى وأما أصل هذه القبائل فالتوراة لا تتعرض لذكره وقد حاول بعض مفسريها تطبيق بعض الاسماء الواردة هناك على بعض اسمائها فلم يستطيعوا ذلك إلا بتكلف وتساهل فأراد بعضهم ان يجعل جرهما متخلفة عن هدورام بن يقطان وعادا متخلفة عن عادة امرأة عيسو وقس على ذلك مما لا يخرج عن حد الوهم على ان مطابقة الاسماء وحدها لا تؤيد قولا ولا تثبت أصلاً أما عمليق فانها وردت فى التوراة صريحاً وتدل على قبيلة الجبابرة والاراقمة انما سموا بذلك نسبة الى اسماء ملوكهم فقد كان الملك منهم يسمى ارقم على أن قدماء

الجغرافيين ومنهم استرابون وبطليموس وغيرهما ذكروا فى كلامهم عن جزيرة العرب أسماء قبائل يمكن ردها الى بعض هذه القبائل بسهولة مثل (Thamudini) «ثمودينى» فانها تدل على ثمود ويؤيد ذلك ان بطليموس جعل مساكنها على حدود بلاد العرب الصحرية و (JoIisitai) «جوليستى» تدل على جديس بتكلف والغالب ان أصلها بالدال بدل اللام وهذان الحرفان متشابها الشكل فى اليونانية. وبناء على غموض أصلهم وطموس أخبارهم وسكوت التوراة عنهم تكاثرت الظنون وتضاربت الآراء فيهم فذهب كل من المؤرّخين المتأخرين مذهبا خالف فيه الآخرين فزعم كوسين دى برسفال ان معظم العرب البائدة من نسل حام وكذلك العالم الفرنساوى ديربلوت أخذ بهذا الظن فى كتابه الذى نشره فى اواخر القرن السابع عشر الميلادى وسماه المكتبة الشرقية وكذلك المؤرّخ رينان. وظن آخرون انهم من نسل قحطان وزعم غيرهم انهم من نسل ارام بن سام وأقر جماعة بغموض ذلك الاصل واشكاله ولم يتكلموا فى شأنه أما مؤرخو العرب

فيقولون ان العرب البائدة من نسل سام وذكروا ان بعض تلك القبائل ترجع الى لاد بن سام وهم يسمونه لاوذ وبعضها يرجع الى ارام بن سام ويسمونه ارم . ولنذكر طرفاً من ذكر القبائل الاربعة التي وصلتنا أخبارها من القرآن الشريف أو من أشعار العرب فنقول :

قوم عاد — ان عادا الذى نسبت اليه أمته هو إرم بن سام ابن نوح وكان قومه فى نهاية من طول الاجسام وعظمها وكانوا أشدّ الناس بطشاً ومواطنهم ببلاد الاحقاف شيدوا بها أبنية شاهقة مما يدل على حضارتهم ومدنيتهم ثم فسقوا وبطروا بأنعم اللّه عليهم وأشركوا به فأرسل اليهم أخاهم هودا نبيا ورسولا فوعظهم وخوفهم من عذاب الله. ودعاهم للتوحيد فلم يؤمن به الا القليل . قال الله تعالى : « والى عاد أخاهم هودا. قال: ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. قال الملأ الذين كفروا من قومه: إنا لنراك فى سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين. قال ياقوم ليس بى سفاهة ولكنى رسول من رب العالمين أبلغكم رسالة ربى وأنا لكم ناصح

أمين أو عجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم؟ واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم فى الخلق بسطة فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون. قالوا: أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا ان كنت من الصادقين. قال: قد وقع عليكم من ربكم رجس وغضب أتجادلوننى فى أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان؟ فانتظروا انى معكم من المنتظرين. فأنجيناه والذين معه برحمة منا وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا وما كانوا مؤمنين » بأن سخر عليهم ريحاً سبع ليال وثمانية أيام حسوما فترى القوم فيها صرعى كأنهم أعجاز نخل خاوية وقال أيضاً: « ألم تر كيف فعل ربك بعاد إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد الذين طغوا فى البلاد فأكثروا فيها الفساد فصب عليهم ربك سوط عذاب ان ربك لبالمرصاد » وقال تعالى: « فأما عاد فاستكبروا فى الارض بغير الحق وقالوا من أشدّ منا قوة؟ أولم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة! »

وبقى من آمن بهود من قوم عاد متصلا ببلاد اليمن الى أن غلبهم عليها يعرب بن قحطان وطردهم منها فنزلوا بجبال الشحر كما سيجئ. والى عاد تنسب العرب المبانى الشاهقة التى توجد بقاياها وآثارها فى جنوب جزيرة العرب ويقولون ان من بقى من قوم هود حكم فيهم من بعده رجل ممن آمن به اسمه لقمان مدة طويلة وأقاموا بالقرب من سبا وبنو اسدّ العرم(١)

(١) العرم كان سدا يعترض به الوادى لحبس المياه مبنياً من القدم حسب بعض الروايات وقيل بناه بنو عاد فى واد من أودية بلاد اليمن بالقرب من مأرب ولم تزل آثاره الى الآن والقصد منه حبس المـاء فى قسم من الوادى ثم تفريقه على جهتيه وورد أنه قبل حادثة السـيل التى سيأتى ذكرها رأى عمرو مزيقياء بن عامر بن حارثة — وهو ماء السماء جد الاوس والخزرج — فى منامه سيل العرم فهاب ما رأى وأشفق من الهلكة فأمر رجلا من بنيه اذا هو جلس فى المجلس ان ينازعه الحديث ثم يسبه ويلطمه ففعل ذلك فقام عمرو كهيئة المغضب فخاف ليقتلن ابنه ذلك فلما سمع قومه قوله قاموا اليه فكلموه فقال: «أما اذا تركته لكم فانى لا أسكن بأرض لطمت بها فمن شاء منكم فليبتع منى مالى» وانما فعل ذلك حتى يبيع ماله خوفا مما رأى فلما سمعوا قوله قالوا اغتنموا غضبة عمرو بن عامر فابتاعوا ماله فلما صار ثمنه فى يده تجهز وأخبر الناس بالسيل فلم يحفل اكثرهم

الى ان تغلب عليهم يعرب فبادوا فى سنة ٧٥٠ تقريباً قبل المسيح على مارواه البعض والارجح بل الاصح أنه قبل ذلك بكثير

قوم ثمود — كان ملك ثمود بين الشام والحجاز وبيوتهم الى وقتنا هذا منحوتة فى الجبال بأبواب صغار ومساكنهم

بخبره فعند ذلك سير بنيه وأنزلهم وأقام من أراد الله ان يصيبه بالسيل. وجمع عمرو سائر بنيه وقال: «لهم يابنى انى علمت انكم ستتفرقون من منزلكم هـذا بعدى فمن كان منكم ذا جمل مغن وهم مدن وقرية وشن فيلحق بأرض شن « ناحية بالسراة وهى الجبال المتصل بعضها ببعض بين تهامة واليمن» فنزلها ازد شنودة. ومن كان ذا فاقة وفقر وصبر على أزمات الدهر فليلحق ببطن مر « من نواحي مكة عنده يجتمع واديا النخلتين فيصيران وادياً واحداً » فسكنته خزاعة. ومن كان منكم يريد الخمر والخمير والامر والتأمير والديباج والحرير فيلحق ببصرى وعوير « من أرض الشام » فسكنتها غسان. ومن كان منكم ذا هم بعيد وجمل شديد ومزاد حديد فليلحق بقصر عمان الجديد فنزله أزد عمان ومن كان يريد الراسخات فى الوحل المطعمات فى المحل فيلحق بيثرب ذات النخل فقصدها الاوس والخزرج فنزلوها وكان فيهم من قبلهم اليهود. وقد اختلف فى زمن وقوع هذه الحادثة اختلافا كثيرا ويظهر أن أصحها أنها وقعت فى القرن الاول أو الثانى بعد الميلاد

على قدر مساكن أهل عصرنا وآثارهم بادية وذلك بطريق الحاج لمن ورد من الشام بمكان معروف بالحجر وكانوا فى أرغد عيش فكفروا وعثوا فى الارض مفسدين فباؤا بغضب من الله وعذاب أليم ولما مر النبي صلى الله عليه وسلم على مساكنهم قال لاصحابه: «لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم الا وأنتم باكون: أن يصيبكم ما أصاب هؤلاء القوم» ولما طغوا ارسل الله لهم صالحا نبيا ورسولا فوعظهم ودعاهم للتوحيد فلم يجبه منهم الا قليل مستضعفون وقالوا «يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا واننا لفى شك مما تدعونا اليه مريب» ثم ان كفارهم طلبوا منه أن يأتيهم بآية فجاءهم بآية الناقة المذكور تفصيلها فى القرآن فعقروها ولم يؤمنوا فأهلكهم الله بعد ثلاثة أيام بصيحة من السماء فيها صوت كل صاعقة فتقطعت قلوبهم فأصبحوا فى ديارهم جاثمين وسار صالح الى فلسطين ثم انتقل الى الحجاز يعبد الله فيمن بقى من قومه المؤمنين ومات بمكة ودفن بالحجر قال الله تعالى «كذبت ثمود بطغواها اذا انبعث أشقاها فقال لهم رسول

الله : ناقة الله وسقياها فكذبوه وعقروها فدمدم عليهم ربهم بذنبهم فسوّاها ولا يخاف عقباها » وقال أيضاً « والى ثمود أخاهم صالحاً قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل فى أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم واذكروا اذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم فى الارض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا فى الارض مفسدين قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه قالوا انا بما أرسل به مؤمنون قال الذين استكبروا إنا بالذى آمنتم به كافرون فعقروا الناقة وعتوا عن أمر ربهم وقالوا يا صالح ائتنا بما تعدنا ان كنت من المرسلين فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى ديارهم جاثمين فتولى عنهم وقال يا قوم لقد ابلغتكم رسالة ربى ونصحت لكم ولكن لا تحبون الناصحين » وقال جل جلاله « ولقد أرسلنا الى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فاذاهم فريقان يختصمون قال: يا قوم لم

تستعجلون بالسيئة قبل الحسنة لولا تستغفرون الله لعلكم ترحمون. قالوا أطيرنا بك وبمن معك. قال طائركم عند الله بل أنتم قوم تفتنون. وكان فى المدينة تسعة رهط يفسدون فى الارض ولا يصلحون قالوا تقاسموا بالله لنبيتنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله وانا لصادقون. ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون. فانظر كيف كان عاقبة مكرهم: أنا دمرناهم وقومهم اجمعين فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا: ان فى ذلك لآية لقوم يعلمون وأنجينا الذين آمنوا وكانوا يتقون »

طسم وجديس — كانت مساكن هاتين القبيلتين فى اليمامة والملك عليهم من طسم واستمروا على ذلك مدة من الزمان حتى انتهى الملك من طسم الى رجل غشوم يقال له عملوق وكان ظلوما سام جديساً سائر أنواع القهر والغلبة زمنا طويلا. ومن منكراته أنه أمر أن لا تزف بكر من جديس الى بعلها حتى يدخل هو عليها ويفض بكارتها قبل زوجها «كما كانت هذه العادة جارية بالبلاد الاوروبية لغاية

القرن العاشر المسيحي »[١] فلقوا من ذلك ذلا طويلا وبلاء عظيما ولم تزل حالتهم على ذلك حتى تزوّجت امرأة من جديس يقال لها عفيرة وهى أخت الاسود بن غفار رئيس جديس فلما كان ليلة زفافها الى زوجها انطلقوا بها الى عملوق الملك حسب العادة ومعها القينات يغنين ويقلن .

ابدئى بعملوق وقومى فاركبى　　وبادرى الصبح بأمر معجب
فما لبكر بعدكم من مذهب

فلما دخلت عفيرة على عملوق افتضها وخلى سبيلها فخرجت على قومها فى دمائها شاقة جيبها من أمامها ومن خلفها وهى تقول

لا أحد أذل من جديس　　أهكذا يفعل بالعروس

وقالت تحرض قومها من جديس على طسم وأبت ان تمضى الى بيت بعلها

أيصلح ما يؤتى الى فتياتكم　　وأنتم رجال فيكم عدد النمل
وتصبح تمشى فى الدماء عفيرة　　جهارا وزفت فى النساء الى بعل

(١) انظر كلمة droit de jambage فى قاموس Poittevin

فلو أننا كنا رجالا وكنتم نساء لكنا لا نقر لذا الفعل
فموتوا كراما أو أميتوا عدوكم وأوروا النار الجرب بالحطب الجزل
والا تخلوا بطنها وتحملوا الى بلد قفر وموتوا من الهزل
فللبين خير من مقام على الاذى وللموت خير من مقام على الذل
وان أنتم لم تغضبوا بعد هذه فكونوا نساء لا تعيب من الكحل
ودونكم طيب النساء فانما خلقتم لأثواب العروس وللغسل
فبعدا وسحقا للذى ليس دافعا ويختال يمشى بيننا مشية الفحل

فلما سمع القوم ذلك وأخوها الاسود معهم وقد عاينوا ما هى فيه شبت فى قلبه نار الغيرة والحمية وكان سيدا مطاعاً فى قومه الذين كانوا هم أيضاً ملوا الذل والجور ولا يخفى أن الشدة والظلم يولدان فى الافراد المتفرقة حب التآلف والاتحاد ويوقدان فى أفئدة الامم المقهورة المغلوبة نار الانتقام ويحملان على النزوع لطلب الاستقلال والحرية ورفع الضير

فلا يقيم على ضيم يراد به الا الاذلان عير الحى والوتد

نعم قد توجد ظروف قهر توجب الامتثال والطاعة ولكن اذا بلغ السيل الربى وطفح الاناء مالت القلوب الى

الانفة وتاقت للتخلص من شدائد الملمات وأجمعت على الاتحاد قلبا وقالبا وعمدت الى الفعل لما فيه الحتف أو الخلاص بالمرة وكان الاسود يعلم من قومه الشعور بمثل هذا الاحساس فظن ان الفرصة مناسبة للتخلص من نير حكم طسم الجائر وحيفهم الظاهر فجمعهم وقال لهم: «يامعشر جديس قد رأيتم ما نحن فيه من الذل والعار الذى ينبغى أن تعافه الكلاب وأن هؤلاء القوم ليسوا بأعز منكم فى داركم الا بملك صاحبهم وتغلبه وقهره ولولا عجزنا لما كان فينا فأطيعونى لتنالوا عز الدهر.» فقالوا الى م تشير علينا لنقتفيه ولا نقف لك فيه. قال: نصنع للملك وقومه طعاما ونجعله بظاهر البلد وندفن سيوفنا فى الرمل وندعوهم الى أكل الطعام فاذا جاؤوا أعملنا سيوفنا فيهم وأفنيناهم عن آخرهم. وكان كذلك فانه لما حضر الملك فى خواصه من طسم أفنوهم بالطريقة المتقدمة ولم يفلت منهم الا رجل واحد يدعى رباح بن مرة فأتى حسان بن تبع ملك اليمن اذ ذاك واستنصره وشكا ما فعله جديس بملكهم فأجابه حسان ونهض معه بقومه قاصدين جديساً للاخذ بثأر طسم

فلما كانوا على ثلاثة مراحل من منازل القوم قال لهم رباح: ان لي أختا مزوّجة في جديس وانها لتبصر الراكب من ثلاث مراحل واخاف ان تبصركم فليأخذ كل رجل منكم بشجرة صغيرة فيجعلها في يده ويسير خلفها. ففعلوا وقد أبصرت بهم زرقاء اليمامة — أخت رباح — فقالت لقوم جديس: لقد سار اليكم الشجر. فقالوا لها ما ذاك؟ قالت: اشجار تسير ووراءها شيء كثير واني لارى رجلا من وراء شجرة ينهش كتفا أو يخصف نعلا. فكذبوها وغفلوا عن أخذ أهبة الحرب فانشأت تقول

انى أرى شجرا من خلفها بشر   فكيف تجتمع الاشجار والبشر
ثوروا باجمعكم في وجه أوّلهم   فان ذلك منكم فاعلموا ظفر

فلم يسمعوا لها كلاما وعدوه حديث خرافة حتى فاجأهم حسان وقومه ووثب عليهم واستباحهم قتلا وسبى نساءهم وصبيانهم وابادهم وخرب ديارهم وحصونهم وهرب الاسود بن غفار فنزل بجبل طيء حتى قضى فيها نحبه ولم يعقب. ولما فرغ حسان من حربه لتلك القبيلة طلب زرقاء اليمامة أخت

رباح وامر بقلع عينها فلما قلعت وجد بها عروقا سودا زعمت ان ذلك من كثرة اكتحالها بالاثمد وخلى سبيلها ولم تقتل وكان بهذا الموضع صنوف الشجر والاعناب بحدائق ملتفة وقصور مصطفة فاباد الله هذه الاشياء وأهلها وهكذا بادت الطبقة البائدة بظلم أهلها وافسادهم واثمهم وعدوانهم ولا غرو فالظلم مرتعه وخيم ولا تدوم معه دولة

الشر مصراع له سطوة — يستنزل الجبار عن عرشه
وأنت ان لم ترج أو تتق — كالميت محمولا على نعشه
لا تنبش الشر نتبلى به — فقلما تسلم من نبشه
اذا طنى الكبش بلحم الكلى — أدرج رأس الكبش فى كرشه
ونابش الموتى له ساعة — تأخذه أنبش من نبشه
لله فى قدرته خاتم — تجرى المقادير على نقشه

وكما استحق طسم الهلاك لظلمهم استحقه جديس أيضاً لغفلتهم وعدم تدبرهم فكأنهم طمس على سمعهم وبصرهم فلم يقبلوا من الزرقاء نصحا ولم يستمعوا لها قولا فما لبثوا ان حل بهم الهلاك من كل صوب وبادوا . وقال زوج

الزرقاء — وكانت تلقب بحذام —

ولولا المزعجات من الليالى لما ترك القطا طيب المنام
اذا قالت حذام فصدقوها فان القول ما قالت حذام

ولكن ماذا يفيد الندم وقد زلت القدم فسبحان من يرث الارض ومن عليها

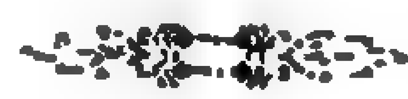
وأما بقية القبائل البائدة فمنها اميم: سكنت بادية ابار زمنا ويحد هذه البادية عمان من الشرق ومهرة او الشحر من الجنوب والاحقاف من الغرب واليمامة من الشمال . وعبيل: سكنت موضع يثرب ثم اخرجهم منها العماليق فنزلوا موضع الجحفة بين مكة والمدينة . وعمليق وهى قبائل عديدة عرفت بالعمالقة سكن بعضها ارض الحجاز وتهامة وهى قبائل بنى ليف وبنى سعد وبنى مطر وبنى الارق وبنى عبد ضخم وسكن بعضها نجدا وهى قبائل بديل وغفار وسكن بعضها البلاد الصخرية (Arabie Pétrée) فى شمالى جزيرة العرب وهى قبيلة بنى هومر بن عمليق وسكن بعضها فى عمان وهى جاسم المتقدم ذكرها فى أول هذا الفصل وسكن آخرون فى تيماء

والحجاز وهم بنو الارقم وسكن آخرون فى فلسطين وجوارها وهم عمالقة التوراة يقال لهم الجبابرة ومنهم جليات المشهور

وأما جرهم فمنها قبيلتان: جرهم الاولى يقولون انها كانت على عهد عاد فبادت واندرست اخبارها وكان لسانها العبرانية وأما الثانية فسكنت حوالى مكة والحجاز ومنهم تزوّج اسماعيل عليه السلام كما سيجئ وبالجملة فان العرب البائدة معظمهم من العمالقة من نسل لاوذ أو لود بن سام وبعضهم من نسل أرم بن سام وقد خرجوا من بين النهرين قبل زمن ابراهيم عليه السلام وأقاموا فى اعالى جزيرة العرب وتفرقوا فيها جنوبا وغربا وما بينهما. ومما لا يحسن التغاضى عنه ان العرب البائدة يسمون ايضاً فى بعض كتب التواريخ العرب العاربة. ذكر بن خلدون وغيره انهم سموا بذلك من الرساخة فى العروبة كما يقال ليل أليل أو بمعنى الفاعلية للعروبة ولكن الطبرى يقول ان عمليق جد العمالقة يسمى «عريب» فلعل العرب البائدة سموا اولاً عريبيه ثم عاربه.

﴿ الفصل الثالث ﴾

(طبقة العرب الباقية)



العرب المتعربة

تمهيد — ملوك اليمن قبل سيل العرم . اليمن بعده . استيلاء الحبشة على اليمن — ملوك الحبشة على اليمن . استيلاء الفرس على اليمن — مملكة العراق وملوك الحيرة من سنة ٢١٠ لسنة ٦٣٤ مسيحية — ملوك بنى غسان — ملوك كندة — ملوك متفرقون بجزيرة العرب .

تمهيد — سبق القول ان عرب هذه الطبقة ترجع كلها الى قحطان والى عدنان ولد اسماعيل عليه السلام وان كلا من قحطان وعدنان كما انهم متحدون فى النسب متحدون فى الطبائع والعادات اما تاريخهم فينقسم الى عصرين عظيمين أولهما تاريخ بلادهم وأكثره مأخوذ عما يروى من اعمال ابطالهم وثانيهما تاريخ الامة العربية فى بلادها وفى غيرها مما حصل فتحه على أيديها وما استوطنته من البلاد التى أسست فيها ممالكها العظيمة فهو لذلك بمقام من الاهمية فى تاريخ الامم والحد الفاصل بين هذين العصرين العظيمين هو بدء

البعثة النبوية المحمدية

ولنبدأ بالقحطانيين من هذه الطبقة وهم العرب العاربة أو المتعربة حسبما يسميهم بعض المؤرخين وقد سموا بذلك لاتخاذهم اللسان العربى عن الطبقة البائدة التى يسميها بعضهم كما سبق القول العرب العاربة فقد جاؤا جزيرة العرب والعرب البائدة فى ابان سطوتهم فقضوا زمنا طويلا تحت حياطتهم وكان بنو قحطان يتكلمون باللسان الكلدانى وهو لسان أهل العراق الاصليين فتعلموا العربى من العرب العاربة .
والقحطانية سكنوا جنوبى بلاد العرب خصوصاً اليمن ويسميهم ابن خلدون وغيره باليمنية السبئية . ويتبع القحطانية عرب الحيرة وغسان وكندة والنبط والاوس والخزرج وغيرهم وسيأتى ذكرهم فيما بعد . ولدولة اليمن دوران مهمان ينتهى الاول بسيل العرم وهو سيل هدم السد السابق الذى ورد ذكره فى القرآن الشريف ويتخلل الدور الثانى انتقال الملك من ملوك اليمن للحبشة ثم للفرس ثم للاسلام

ملوك اليمن قبل سيل العرم — أول من ملك منهم

قحطان بن عابر جد العرب العاربة

وسبق لنا القول عند ذكر قوم عاد من الطبقة البائدة انه قد بقي منهم بقية تغلب عليها بنو قحطان المذكور وطردوهم الى جبال الشحر وكان بنو قحطان نزولا ببلاد اليمن ولما مات قحطان ملك ابنه يعرب اليمن وتغلب على الحجاز وولى أخاه جرهما عليها وبنو جرهم المذكور هم الذين صاهروا اسماعيل عليه السلام وكان منهم العرب المستعربة كما سيجيء ذكر ذلك فى الباب الثانى. وكذلك ولى أولاده على الشحر وعمان وفى عهده عظم شأن اليمن واتسع نطاقه وهوأول من حياه قومه بتحية الملك — وهى أبيت اللعن — وكان الجاهلية لا يخاطبون غير الملك بهذه التحية حتى أن احدهم اذا تولى الامارة والملك قيل فلان نال التحية . ومعنى أبيت اللعن أى أبيت أن تفعل فعلا تلعن عليه. ويعرب المذكور هو اول من اختط المدن فى بلاد العرب ومن بنيه التبابعة — ملوك اليمن — والغساسنة — ولاة الروم على الشام — والمناذرة — ولاة الفرس على الحيرة — وقيل ان يعرب المذكور هو أول من نطق بالعربية وكان من الفصاحة

والبلاغة بمكان وهو الذى قال عنه حسان بن ثابت

تعلمتم من منطق الشيخ يعرب أبينا فصرتم معربين ذوى نفر
وكنتم قديما ما لكم غير عجمة كلام وكنتم كالبهائم فى القفر

وقيل انه لما حضر يعرب الوفاة دعا بنيه ووصاهم بقول كله حكم وآيات باهرات تدل على كرم اخلاقه وسعة اطلاعه وسياسته فى مملكته وهو « اوصيكم يا بنى بحسن السيرة والسلوك بين الرعية وأن تتعلموا العلم وتعملوا به واتركوا الحسد عنكم ولا تلتفتوا اليه فانه داعية القطيعة بينكم وتجنبوا الشر وأهله فان الشر جالب للشر وانصفوا الناس من أنفسكم فانهم ينصفونكم من انفسهم واجتنبوا الكبرياء فانها تبعد قلوب الرجال عنكم وعليكم بالتواضع فانه يقربكم من الناس ويحببكم اليهم واذا استشاركم احد فأشيروا عليه بما تشيرون به على انفسكم فى مثل ما استشاركم فيه فانها امانة قد ألقاها فى اعناقكم » تلك وصية جمعت من آداب السياسة والحكم فى كلمات صغيرة ما لو تمسكت به أمة ما لحقها ضيم ولا اندرست لها معالم ولا هوت لها دولة وهى توافق كل زمان

ومكان وما أحوجنا نحن معشر الشرقيين الآن لاتباع هذه النصائح والعمل بموجبها خصوصاً ونحن فى زمن فضلا عن اننا فيه متفرقون متقاطعون نرى الايدى الاجنبية تعمل بكل جهد ضد تآلفنا واتحادنا

ولما مات يعرب ملك بعده ابنه يشجب وكان واهى العزيمة ضعيف النفس. وبموته خلفه ابنه عبد شمس ويلقب بسبأ لانه لما أكثر من الغزو فى أقطار البلاد وسبى خلقاً كثيراً لقب بذلك وهو اول من سن السبي فى العرب وبنى مدينة سبأ وكان له من الولد كثيرون أشهرهم حمير وكهلان اللذان تشعبت منهما قبائل اليمن وصار الملك ينتقل فى بنيهم ولقبوا بالتبابعة لانهم كانوا كلما مات منهم واحد قام آخر تابعاً له فى سيرته. ومن التبابعة المذكورين شرحبيل وكان عادلاً شجاعاً بنى قصر غمدان فى ظاهر صنعاء وهو قصر عظيم رفيع البناء وأبدع فيه من الزخارف والصنائع الغريبة وكان يسكن شرحبيل بمأرب فلما بنى هذا القصر انتقل اليه وصار دار الملك من بعده لملوك اليمن ثم لما مات ملك بعده ولده

الهدهاد وكان يحب الملاهى والتنعم ولما مات ولم يعقب تولى ابن اخيه مالك وكان فاحشا فاسقا خبيثاً لا يبلغه عن بنت ذات جمال الا أحضرها وفضحها حتى اتى بنت عمه بلقيس فى قصرها وكانت أعدت له رجلين وأمرتهما بقتله اذا دخل عليها وانفرد بها فصدعا بالامر وقتلاه فأحضرت وزراءه وأصدقتهم الخبر قائلة: أما كان فيكم من يأنف لكريمته وكرائم عشيرته ؟ وأرتهم اياه قتيلا وفوضت لهم ان يختاروا رجلا يملكونه عليهم فقالوا لا نرضى بغيرك وملكوها وهى التى ورد ذكرها فى القرآن الكريم فى سورة النمل وكانت فى عهد سليمان عليه السلام فى القرن العاشر قبل الميلاد تقريباً

وكان هذا هو سبب توليها الملك اذ كانت العرب تأنف من تمليك النساء حتى ان الهدهد لما جاء سليمان ظن أنه أتاه من سبأ بنبأ غريب لم يكن مألوفا عادة عندهم وذلك انه رأى امرأة تحكم رجالا ولكن فاته أن المرأة التى رآها كانت خيرا منهم اذ ازاحت عنهم عارا كانوا له متحملين وبلاء كانوا عليه مصطبرين. قد أتاحها الله لهم تخلصتهم واستحقت

بذلك الامارة والسيادة عليهم واستمر الحال فى اليمن على هذا المنوال مدّة: كلما مات ملك تولى آخر. وكانت اليمن ذات اشجار واثمار هواؤها حسن وعماراتها شاهقة كثيرة مما يدل على أن الحضارة كانت بلغت قصاراها فيها وكانت المرأة منهم اذا ارادت أن تجنى شيئاً من الثمر وضعت مكتلها على رأسها وخرجت تمشى تحت الاشجار وهى تغزل أو تعمل ما شاءت فلا ترجع حتى تملأ مكتلها من الثمار التى تتساقط عليها وكانوا لا يرون سوأ لحسن هوائها وكان شجرهم ممتدا من اليمن الى الشام يبيتون بقرية ويقيلون بأخرى ذات مياه وأشجار لا يحتاجون الى حمل زاد ثم انهم بطروا نعمة ربهم وسئموا الراحة وكان انغماس ملوكهم الاخيرين فى الترف والملاذ والملاهى سببا فى خور عزائمهم ومقدمة لضياع الملك من أيديهم فسألوا ربهم أن يباعد بينهم وبين اسفارهم ويجعل بينهم وبين الشام فلوات ومفاوز يركبون فيها الرواحل ويتزوّدون فيها الازواد وكانوا يعبدون غير الله ويظلمون فسلط الله عليهم سيل العرم فخرب عمائرهم وبساتينهم وهذه عاقبة

المترفين المكذبين قال الله تعالى « لقد كان لسبأ فى مسكنهم آية: جنتان عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور. فأعرضوا. فأرسلنا عليهم سيل العرم وبدّلناهم بجنتيهم جنتين ذواتى أكل خمط وأثل وشئ من سدر قليل ذلك جزيناهم بما كفروا وهل يجازى الا الكفور وجعلنا بينهم وبين القرى التى باركنا فيها قرى ظاهرة وقدرنا فيها السير سيروا فيها ليالى واياما آمنين فقالوا ربنا باعد بين اسفارنا وظلموا أنفسهم فجعلناهم أحاديث ومزقناهم كل ممزق ان فى ذلك لآيات لكل صبار شكور »

ولما أرسل الله سيل العرم ورأى الناس الذين سلموا منه أن بيوتهم هدمت واراضيهم تلفت وانعامهم هلكت ولم يبق لهم أمل فى الحصول على المياه فيما يأتى من السنين هاجر بعضهم من بنى لخم الى الحيرة والانبار على مقربة من نهر الفرات وعرفوا بالمناذرة وصاروا ملوكا على العراق وكانت دولتهم من اعظم دول ملوك العرب ومقامهم بأرض الحيرة وسنأتى على طرف من ذكرهم وهاجرت جماعة من

بني قحطان من قبيلتين يقال لهما الأوس والخزرج وتملكوا حوران والباقاء ونزلوا على ماء بقرب دمشق يقال له غسان فاشتهروا به حتى غلب اسـمه عليهم فقيل لهم آل غسان ثم تغلبوا على الشام وسيأتي ذكرهم ايضاً وهاجر بعض من بني قحطان واسسوا ممالك صغيرة داخل الجزيرة كالكنديين وكانت مملكتهم بنجد وغيرها مما سنذكر بعضاً منها وكان هذا هو السبب فيما ذكره أهل التاريخ بعد هذا السيل مما يتعلق بوجود بعض قبائل قحطانية في الجهات الشمالية التي هي وطن العرب المستعربة — اى العدنانيين — مع أن اصل مركزها كما مر ببلاد الجزيرة جنوبا

مملكة اليمن بعد السيل — استمر بنو قحطان يمالكون في من بقي باليمن من اليمنيين بعد السيل واختطوا المدن وشيدوا المباني وغزا بعضهم البلاد المجاورة فكان منهم الملك شمر يرعش وهو من أشد ملوك العرب عزيمة واعلاهم همة واقواهم جاشا : يقولون انه غزا بلاد العراق ثم ارتحل عنها طالباً بلاد الصين وجعل طريقه على بلاد فارس فدوّخها

وهدم كثيرا من المدائن والمعاقل ودخل مدينة السغد فخربها ولذا قيل لها بالفارسية شمر كند اى شمر خربها ثم أعيد بناؤها فبقى عليها ذلك الاسم لكنهم تصرفوا فيه فقالوا سمرقند . ولما استخلص بلاد فارس سار منها طالباً بلاد الصين — وقد انكر العلامة ابن خلدون خبر وصوله الى الصين — فلما بلغ ملكها خبر قدومه ارتاع فقال له وزيره — وكان محباً لوطنه غيورا على مصالحه يفديه بنفسه اذ كانت مجتمعة فيه صفات الوزير الحقيقية —: أنا أفدى المملكة بنفسى وأكفيك شر هؤلاء القوم المعتدين. فجدع الوزير مارن انفه بكفه وقصد شمر يرعش وشكى اليه ظلم الملك له وقال : قد فعل بى ما ترى بغير جناية تستحق ذلك وخشيت ان يقتلنى فخرجت اليك هاربا . وارجو أن يكون افتتاح هذه المملكة على يدى فسر معى وانا ضمين لك بذلك . فاغتر شمر يرعش بما رآه من جدع انفه وانصاع لقوله وانخدع له فنهض بجيشه والوزير يتقدمهم فى تلك المفاوز والقفار حتى دخل بهم فى فلوات معطشة ولا سبيل للماء فيها حتى اماتهم وهلكوا جميعا

وهلك شمر يرعش وكفى الله الصين القتال. فيالها من وطنية صادقة واحساس شريف من وزير بمثله تحفظ البلاد ولا عجب فبمثل هؤلاء الرجال وبمثل تلك الاعمال تدوم الدول وتسود كما انه بمثل طمع شمر وغفلته تندرس الممالك وتزول معالمها فلكل عمل جزاء من جنسه : تلك سنة الله فى خلقه من القدم للآن فما أخلص قوم فى خدمة بلادهم الا سادوا وسادت وارتفعت وحفظ لهم الذكر الجميل والاحدوثة الحسنة . وما أحرى بدوله الصين فى أن يكون لها الآن مثل هذا الوزير حتى تتخلص من طمع دول أوروبا الاشعبي.

وبعد ان مات شمر يرعش قام ولده ابو مالك بالملك بعده وعزم على المسير الى بلاد الصين للاخذ بثأر أبيه الذى ذهب فريسة الطمع والغفلة فبلغه خبر وجود معدن من الزمرد فى بلاد المغرب فطمع فيه ونسى ثأر أبيه وسار بجيش كثير طالباً ذلك المعدن فادركته المنية فى الطريق ومات جمع عظيم من عسكره شهداء طمع مالكهم الذى كان هو وأبوه فى غنى عن هذه المطامع ولهم فى بلادهم من الخيرات والثروة

ما أطمع الاجانب فيها وهم عنها لاهون وهكذا صار الملك ينتقل من واحد لآخر من بنى قحطان وكان منهم الظالم والعادل والشهم وضعيف العزيمة والمحبوب عند رعيته والمذموم لديها فمنهم حسان بن تبع قيل انه هو الذى انتصر لطسم من جديس وأذاقهم كأس الردى وكانوا قتلوا اباه فجعل يتتبع قاتليه ويقتلهم حتى اتى على آخرهم فكرهوه وكان يدين بدين اليهود وسار بمن معه من عرب اليمن الى مدينة يثرب ثم قصد مكة واراد هدم الكعبة فمنعه من كان معه من أحبار اليهود فامتنع وكساها البرد اليمانى ثم أن قومه أجمعوا على ان يقتلوه لما لحقهم من التعب والنصب وهو غير مكترث بهم كأنه راعى ابل أو غنم يقودها أنى شاء شقوا أو سعدوا فكلموا أخاه عمرو بن تبع فى قتله ووعدوه بالملك بعده ان قتله وكان هذا الامر عن رأى الجميع ما عدا شخصا منهم يقال له ذورعين لم يوافقهم عليه ونهى عمرا عن قتل اخيه فلم يقبل منه فكتب ذورعين شعرا فى صحيفة واودعها عند عمرو بن تبع يقول فيها

الا من يشترى سهرا بنوم سعيد من يبيت قرير عين

فأما حمير غدرت وخانت فمعذرة الاله لذى رعين

فلما قتل عمرو اخاه حسانا واستولى على الملك بعده حسب اتفاق القوم استولى عليه الارق ومنع عنه النوم فشكا ذلك للاطباء والكهان والعرّافين من العرب فقالوا له: «يا ملك ما قتل رجل أخاه أو ذا رحم له باغياً الا سلط الله عليه السهر» وكانت هذه من معتقدات العرب وقد أشار اليها ذو رعين فى بيتيه فجعل عمرو يقتل كل من أشار عليه بقتل أخيه من رؤساء قومه وهمّ بقتل ذى رعين فذكره الشعر الذى اودعه اياه فى الصحيفة فكانت فيه معذرته ونجاته من القتل ثم ان الاسقام توالت عليه فكان لا يخرج الى الخلاء الا محمولاً على نعش فسمى بذى الاعواد لذلك وهو الذى أشار له احد الشعراء بقوله

ولقد علمت سوى الذى نبأتنى ان السبيل سبيل ذى الاعواد

ثم دهمته المنية بدون ان يتمتع بلذة الملك الذى حاول استعجاله ونسى بسببه حقوق الأخوة وحنان الشقيق وواجبات الانسان فلاقى جزاءه وساء منقلبه ولا عجب فمن تعجل بشئ قبل اوانه عوقب عليه بحرمانه(١) وكذلك نصحاؤه

وماهم الا نصحاء الشؤم قد جوزوا بما استحقوا بفعلتهم أما ذورعين فتبرأ من عملهم ولم يخش تألبهم عليه وكان هو الوحيد فى رأيه ضد الاجماع ولم يخف بطشهم ففضل المخاطرة بحياته دون تمحيض النصح وما عليه اذا لم ينفع فقد فعل الواجب عليه وقد عرف له ذلك فيما بعد حينما قام ذلك الذى لعب القوم بعقله حتى أوقعوه فى الورطة يفتك بهم ففاز ذورعين حين نكل بأولئك المضلين تنكيلا. ثم ان حسانا تعدّى وظلم

(١) ورد فى التاريخ ذكر كثيرين ممن قتلوا آباءهم طمعاً فى نوال الملك وكانت عاقبة ذلك وبالا عليهم فمنهم شيرويه بن ابرويز قتل أباه فلم يتمتع بالملك بعده كذلك محمد المنتصر العباسى اذ قتل أباه المتوكل ليتولى الخلافة فلم يستقر له الملك حتى مات ويقولون أنه بعد ان جلس المنتصر على سرير الملك فرش له بساط لم ير مثله وعليه كتابة عجيبة بالفارسية فنظر اليه نظر استحسان واستحضر من يعرف بالفارسية وأمر بقراءتها فأحجم عن ترجمتها فقال المنتصر قل وما عليك بأس فقال مكتوب على هذا البساط « أنا شيرويه بن كسرى قتلت ابى فلم أتمتع بالملك بعده » فتطير المنتصر من ذلك ونهض من مجلسه غضبان فلم تتم له مدة شيرويه وهى ثمانية أشهر حتى مات فليتأمل الطامعون الغافلون ويتدبروا

حتى كرهته رعاياه كلها وسئمت حكمه وقامت بصوت واحد ضده وقد حصد ثمار ما زرع على حد قول الشاعر

وما من يد الا يد الله فوقها … وما من ظالم الا سيبلى بأظلم

لكن ما كان ليجمل بأخيه أن يقتله بيده طمعا فى وراثة الملك من بعده لا انتصارا للمهضومين المقهورين

ومن ملوك اليمن ايضاً عندما أخذت شمس دولتها فى الافول ذو الشناتر — ومعناها الاقراط فى لغة اليمن — وقيل له ذلك لانه كان يتحلى بها وكان فاسقا خبيثاً يأتى الاحداث من أبناء الملوك لئلا يملكوا وكانت عادة العرب فى ذلك الزمان لا يملكون من يفعل به ذلك وبقى ذو الشناتر على هذه السيرة الخبيثة حتى سمع بغلام من أبناء الملوك الحميرية له صيت وجمال يلقب بذى نواس — لارساله ذوائب شعره على ظهره — وكانوا ايضاً يسمونه بيوسف الحسن لجماله فأرسل له رسولا من عنده ليستقدمه اليه فلما جاءه الرسول وبلغه رسالته عرف ما يريده فاخذ سكينا وأخفاها بين نعله وقدمه فلما صار عنده وخلا به وثب عليه فقتله واحتز رأسه ووضعها فى مكان كان

الملك يشرف منه على حرسه من عبيده وجنده اذا قضى حاجته ويأمر الغلام بعد ذلك بان يخرج وهو واضع سواكا فى فيه اشارة لما فعل به فلما قتل ذو نواس الملك خرج على الحرّاس والسواك فى فمه حسب العادة وانما فعل ذلك خوفاً من تعرض القوم له فلما رأوه على هذه الحالة قالوا له مستهزئين ساخرين: رطب أم يابس . فأجابهم ذونواس أن اسألوا الشيطان الخناس الذى فى المشرفة فهو يخبركم بحاله وانشأ يقول

أساس الملك ويحكم رجال اذا ماالملك ذل عن الاساس
فكم من تاج ملك قد رأيتم تنقل من أناس فى أناس
أطيعوا الرأس فيكم كى تسودوا وهل جسد يسود بغير رأس
فان الناس مثل الارض أرض وان ملوكهم مثل الرواسى

فلما تحققوا من قتل ذى نواس لملكهم فرحوا به وملكوه أمرهم وهو صاحب الاخدود الذى دعا أهل اليمن الى التهوذ وكان قد نزل يثرب مجتازا فأعجبته اليهودية فتهود وتبعه أهل اليمن الا طوائف من حضرموت وعدن فغزاهم وقتلهم جميعاً ثم دعا العرب الى اليهودية فكان من لا يجيب دعوته يسير

اليه فيوقع به فشاع ذكره فى سائر الاقاليم وعظمت شوكته وأطاعته العباد وكانوا يجيبون دعوته خوفا من شدة نقمته فكرهته أعيان حمير وحسدوه على الملك الذى هو فيه وندموا على تمليكه لما ظهر لهم منه فعزموا على خلع طاعته فلم يخف عليه ذلك لكنه لم يحفل بهم بل قبض على البعض وعذبهم أشد العذاب

استيلاء الحبشة على اليمن — اعلم انه لما رسخت قدم ذى نواس فى الملك حملته اليهود على غزو نجران لامتحان من بها من النصارى حيث كان بها كثير منهم اعتنقوا الدين المسيحى فأغار عليهم ودعاهم الى التهود فامتنعوا فقتل ملكهم وحمل اهل البلد وألقاهم فى حفرة قد احتفرها وأضرم النار فيها وهى المراد بالاخدود فذهبوا شهداء تمسكهم بدينهم وجور هذا الملك الذى لم يخلص اليمن من بلاء الا ليوقعه فى بلاء أدهى وأمر ولكن من الحقائق الثابتة التى نشاهد على صحتها كل يوم ألف شاهد ودليل ان من طال عدوانه زال سلطانه ومتى أراد الله أمراً هيئ له الأسباب فكان من

أسباب زوال سلطان ذى نواس بل زوال البلاد جميعها من ايدى اهلها انه هرب من نصارى نجران رجل من عظمائهم يقال له دوس بن ثعلبان فسار الى النجاشى ملك الحبشة وشكا اليه ما ارتكبه ذو نواس وكان النجاشى نصرانياً اعتنق الدين المسيحى فى عهد القيصر قسطنطين وكان محالفا لقياصرة الروم للجامعة الدينية بينهما فكتب الى انسطاس الثانى قيصر الروم وقتها وكان متعصباً لدينه يستأذنه فى تجريد خيل الى اليمن فصرح له بذلك وخرج النجاشى لمقاتلة ذى نواس ونزع الملك منه ولما علم ذو نواس بقدومه تجهز للحرب وفرق السلاح على جنوده وسار يستقبل الجيش فالتقوا على ساحل عدن وثار النجاشى بأصحابه ويقال إنه خاطبهم بقوله: هذا البحر خلفكم والسيوف أمامكم فلا ملجأ لكم الا الصبر أو تظفروا. فاقتتل القوم قتالا شديداً وقتل من الفريقين عدد كثير وكان الظفر للحبشة وحق لجيش يشجعه رئيسه بمثل الكلام المتقدم أن ينتصر ويظفر

وانهزم ذو نواس بأصحابه وتبعتهم الحبشة وخاف ذو

نواس من الاسر فاقتحم البحر بجواده وقال : الغرق أفضــل من اسر السودان . فضربته الامواج وكان آخر العهد به ويا ليته كان قال العدل والرأفة والاعتدال خير من طمع وغيّ يورثان الذل ويضيعان استقلال الاهل والبلاد ويوقعان الجميع فى اسر الاجانب والسودان الذين فضل الغرق على الوقوع بين أيديهم ولـكن قدّر فـكان ومدة ملكه من سنة ٤٨٠ الى سنة ٥٢٨ مسيحية على ما قيل

ولما غرق قام بعده ذوجدن الحميرى وحاول ان يكون ملـكا فمنعته الاحباش وجرت لهم معه وقائع ثم هزموه فاقتحم البحر أيضاً ولحق بذى نواس كأنه أراد ان يخبره بما صار اليه الاهل والاوطان وبنتائج طيشه وظلمه وما أتى من العدوان وبعد أن دهمته المنية أفضى الامر الى ذى يزن الحميرى سنة ٥٢٩ ميلادية وهو آخر ملوك اليمن التى خلص بعدذلك ملـكها للحبشة ولا عجب فان تصرف ملوكها الاخيرين قد كان نذيرا بذلك مقدمة له إذ قد فسقوا وظلموا وأماتوا فى رعاياهم احساس النخوة والشهامة فهوت دولتهم وحق لهـا

الانقراض : فمن حاد عن طور الاعتدال والاستقامة جنى الحسرة والندامة هذه سنة الله تعالى فى جميع الدول ومن تأمل بعين النقد والتدبر وجد أن جميع الحكومات الرومانية واليونانية والفارسية وكذا الحكومات الشرقية ما اضمحلت وسقطت من عزها الشامخ الا من عهد خروج أهلها عن الاعتدال واستسلامهم للاثم والعدوان وللخلاعة والفسق والمجون المثبطة للهمم والداعية للفساد وتراخى الاعضاء واماتة العواطف والاحساسات الشريفة فيصبح الحر أسير شهواته البهيمية قاعدا ومتقاعسا عن كل ما من شأنه رفعة بلاده وحفظ زمام أمور سلمت اليه وأودعت امانة لديه فخان فيها فاستحق الذل والخذلان والتنكيل به قال الله تعالى وهو أصدق القائلين « واذا اردنا أن نهلك قرية امرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا »

ملوك الحبش على اليمن من سنة ٥٢٩ لسنة ٦٠١ مسيحية

أول من تولى الولاية منهم على بلاد اليمن ارياط قائد جيش النجاشي وكان من بنى عمه ومدة ولايته على اليمن من

سنة ٥٢٩ الى سنة ٥٤٩ مسيحية وكان يكرم العظماء من اصحابه ويزدري بالضعفاء ويكلفهم ما لا يطيقون من المشاق فجزعوا لذلك واجتمعوا الى أبرهة الاشرم — أحد رؤساء الجيش — فغضب لهم وعزم على الاخذ بناصرهم فعاهدوه على المبايعة له والتسليم اليه فعصى ارياط وخرج عليه ودعاه الى الحرب فكانت الفتنة وقتل ارياط فى معركة بينهما فجوزى بما ظلم وقام بدله أبرهة وأطاعته العرب والحبش جميعاً وكان توليه على اليمن من سنة ٥٤٨ لسنة ٥٨٩ ومات بمكة وكان قصدها بجيشه يريد أن يهدم البيت الحرام واتخذ فيلا عظيما يقدمه فى وجه قومه ليتقوا به وقع النبال ولذلك قيل له صاحب الفيل وهو صاحب القصة التى ورد ذكرها فى سورة الفيل بالقرآن الشريف كما سيجىء عند التكلم على الحجاز وقد اشتهر أبرهة بميله الى النصرانية

ولما انقضى عهد أبرهة خلفه على الولاية ابنه يكسوم وكانت مدته من سنة ٥٨٩ لسنة ٦٠١ مسيحية

استيلاء الفرس على اليمن — لما توفى يكسوم تولى

أمر الدولة مكانه أخوه مسروق فرأى أهل اليمن ثبات ملوك الحبشــة عليهم وتوارثهم اياه خلفاً عن سلف فجزعوا لذلك وأخذتهم الانفة والحمية وعقدوا معاهدة بينهم على تخليص وطنهم من الاجانب ولا غرو فالحر لا يرضى بالذل طرفة عين. وكان فى تلك الايام قد نشأ سيف بن ذى يزن الحميرى بن ذى يزن السابق فاجتمعوا اليه وقالوا له: ان الحبشة قد دخلوا بلادنا بسبب جدك ذى نواس وقد طال بلاؤهم علينا حتى ضاقت صدورنا عنه . وأثاروا فيه الغيرة والشهامة العربية التى حاول أجداده أن يميتوها فقام واستخلص المملكة من أيدى الحبشــة بمساعدة كسرى أنوشروان ملك الفرس بعد ان استولوا عليها نحو سبعين سنة وملخص ذلك: انه لما حرضه الاهالى على الاحباش بالصورة المتقدمة استنجد أولاً بقيصر ملك الروم فأبى عليه مساعدته وليت شعرى كيف يستغيث سيف بملك محالف لخصمه ويطلب نجدته ضده ولم يكن احتلال الحبشة لليمن الا بعد استشارته ! ولما يئس سيف من قيصر قصد كسرى قباذ ملك فارس فتردد وقال له: بعدت

أرضك عن أرضنا وهى قليلة الخير انما هى شاء وبعير والمسالك فيها صعبة ولست أغرر بجيشى . وأمر له بمال جزيل فأخذه وخرج من عنده وهو ينثر المال الذى أعطاه اليه فالتقطه الناس من الارض وأخذوه فسأل كسرى عن سبب ذلك فقال له سيف : جبال أرضى ذهب وفضة وانى لم آتك للمال وانما جئتك للرجال ولتمنعنى من الذل والهوان . فرق كسرى له بل ربما كان فى الحقيقة طمع فى المال الذى سمع به وشاور أهل دولته فأشاروا عليه بمساعدة سيف وقال له موبذانه — وزيره — : أن فى سجونك رجالا اصحاب نجدة وبأس قد حبستهم للقتل فلو أن الملك وجههم معه فلو ظفروا كان الظفر لك وازددت ملكا الى ملكك وان هلكوا فيكون الملك قد استراح وأراح أهل مملكته . فأعجب كسرى هذا الرأى ويحق له ان يعجب به ويفتخر بوزير هذه مشورته وعمل بما اشار ونجح واستولى على اليمن وأعاد على ملكها سيف ذى يزن وأمره بالنزول بقصر الملك برأس غمدان وفرض اتاوة على اليمن التى لم تخلص من الحبش الا لتقع فى يد الفرس فلما

ملك سيف صار يقتل الحبشة ويبقر بطون الحبالى من النساء ولم يبق منهم الا جماعة قد جعلهم من خاصته واصطفاهم لخدمته فكانوا يمشون بين يديه بالحراب ولما استقر له الملك وفدت عليه الوفود من العرب يهادونه ويهنئونه بملك آبائه وأجداده التبابعة وامتدحه العرب بأشعارهم وياليته كان استخلاص الملك تماما من الاجانب ليحق له صحيح التهانى وتمام المديح ولكن مالا يدرك كله لا يترك كله ثم ان سيفا المذكور انفردت به فى آخر سنى حكمه أصفياؤه الذين كان جعلهم حوله لحفظه واصطفاهم لخدمته فاغتالوه بحرابهم وقتلوه وهربوا فى قلل الجبال فانتقموا بذلك لاخواتهم الذين فتك بهم سيف ولوطنهم الذى ذهب سلطانه وانقضى بذلك ملك حمير وحزنت على سيف قبائل اليمن ودفنوه فى صنعاء بمقبرة لاجداده وكان جميل المنظر عظيم الهيئة عالى الهمة شديد البأس كريم الاخلاق حسن التدبير على وجه العموم وان اساءه فى أنه أمن أعداءه وسلمهم نفسه ظنا منه أنه أحسن اليهم فلا يلحقه منهم أذى ولكن لكل شئ فى تقلبه سبب

ولما بلغ كسرى أنوشروان خبر قتله ارسل والياً على اليمن من طرفه وهكذا تغلبت عليها دولة الفرس الساسانية وبقيت تحت سلطتهم الى ان افتتحها المسلمون كما سيجيء .

مملكة العراق وملوك الحيرة من سنة ٢١٠ الى سنة ٣٦٤ مسيحية — لما أرسل الله سيل العرم وتمزق اهل اليمن تشتت كثير منهم خارج بلادهم ليجدوا لهم رزقا طيبا فى غيرها كما أسلفنا القول فسارت جماعة منهم نحو خراسان . فتحيروا فى طريقهم ليلا فى نقطة اقاموا بها واختطوا هناك مدينة سموها «الحيرة» صارت بعد مقاما لملوكهم من اللخميين نسبة الى لخم بن عدى والمناذرة وهى تقرب من نهر الفرات على نحو فرسخ واحد من الكوفة وأول ملوكهم بها مالك بن فهم وينتهى نسبه الى قحطان وكان استيلاؤه على سرير الملك من قبل الاكاسرة ملوك الفرس اذ ذاك ولذلك كان هو وعقبه عمالا للاكاسرة واتخذ منزله بالانبار فأقام بها الى أن مات ويقال ان ابن سليمة رماه بسهم فقتله فقال

جزانى لا جزاه الله خيرا سليمة انه شرا جزانى

أعلمه الرماية كل يوم فلما استد ساعده رماني

وكان مالك هو الذى ربى سليمة وأحسن إليه فكوفئ على الاحسان بالشر وماذلك بعجيب! ولما توفى تملك بعده عمرو بن فهم وقام بعد وفاة هذا ابن أخيه جذيمة ابن مالك سنة ٢٣٠ مسيحية وكان مقامه بالحيرة وكان شديد الوطأة ظاهر الحزم وهو أول من أوقد الشموع ونصب المجانيق من ملوك العرب الاقدمين للحرب دانت اليه جميع القرى المجاورة لبلاده فكان يتولى أمورها وتجبي اليه أموالها وتفد اليه الوفود وكان جبارا ذا أنفة مقداما شديد البأس وافر الحكمة طالت مدته وشاع ذكره فى كل مكان وعظم شأنه وكان به برص فقيل له الابرص وقيل له كذلك جزيمة الوضاح تلطفا فى اللفظ لان الوضح بمعنى البرص وكنيته أبو مالك. وكان فى أيامه رجل من العمالقة يقال له الريان كان ملكا على الجزيرة وأعمال الفرات ومشارف الشام فجرت بينه وبين جزيمة حروب انتصر هذا عليه فيها وكان للريان بنت تسمى نائلة وتلقب بالزباء كان لها من الفرات الى تدمر فلما استجمع أمرها واستحكم ملكها ارادت ان تغزو جذيمة بمن

معها من أهلها وجندها طالبا لثار أبيها وكانت لها أخت اصغر منها تدعى زبيبة فاشارت عليها بترك الحرب وإعمال الحيلة فاجابتها الزباء الى ذلك وكتبت الى جزيمة تقول : انها لم تجد ملك النساء الا قبحا فى السماع وضعفا فى السلطان وانها لم تجد لملكها ولا لنفسها كفؤا غيره . فلما انتهى اليه كتاب الزباء وكان بجهة يقال لها بقة استحسن ما دعته اليه واغتر بتمويهاتها غير عالم بمكرها فجمع ثقاته وعرض عليهم كتابها واستشارهم فيه فأجمعوا على إجابة دعوتها وأن يسيروا اليها ويستولوا على ملكها وكان بينهم رجل يقال له قصير من لخم أمه أمة كانت لجذيمة وكان عاقلا بصيرا يستشيره جذيمة فى بعض أموره لما رأى عنده من سداد الرأى فلم تدخل عليه حيلة الزباء وخالف القوم فيما أشاروا عليه به وقال : **رأى فاتر وعدو حاضر** . وقال لجذيمة « اكتب اليها فان كانت صادقة فلتقبل إليك وإلا فلا تمكنها من نفسك وقد وترتها وقتلت أباها » فلم يوافق جذيمة على ما أشار به قصير وقال له : **رأيك فى الكن لا فى الضح** . ودعا ابن أخته عمرا بن عدى واستشاره

فشجعه على المسير فحين رآى قصير ذلك قال : لا يطاع لقصير رأى . ثم استخلف جذيمة ابن أخته المذكور على ملكه وسار في وجوه أصحابه فلما كان في منتصف الطريق قال لقصير ما الرأى قال : ببقة تركت الرأى . واستقبله رسل الزباء بالهدايا والتحف فقال ياقصير كيف ترى فقال : خطر يسير وخطب كبير وستلقاك الخيول فان سارت امامك فان المرأة صادقة وان اخذت جنبك واحاطت بك فتيقن انهم غادرون فان رأيت ذلك فاركب العصا — وكانت فرساً لجذيمة لاتجارى — فلما لقيته الكتائب حالت بينه وبين العصا فركبها قصير فنظر اليه جذيمة موليا على متنها فقال : أرى حزما على متن العصا . وقال ايضاً : ما ضل من تجرى به العصا . وجرت به الى غروب الشمس ثم نفقت وقد قطعت ارضاً بعيداً فبنت العرب عليها برجا وسموه برج العصا وقالوا : خير ما جاءت به العصا . وقد احاطت بجذيمة الخيول حتى دخل على الزباء فلما رأته تكشفت له فاذا هي مضفورة شعر الاست وقالت له يا جذيمة : آداب عروس ترى . فقال : بلغ المدى وجف

اثرى وامر غدر ارى . ثم قالت له : أنبئت ان دماء الملوك شفاء من الكلب ثم اجلسته على نطع وامرت بطست من ذهب وسقته الخمر حتى أخذت منه مأخذها ثم امرت براحتيه فقطعتا وقدمت اليه الطست لنزول الدم فيه وكانت العرب تزعم أنه ان قطر من دم من قتل ولو قطرة فى الارض طاب بدمه وكانت الملوك فى ذلك الزمان لا تقتل بضرب الرقبة الا فى قتال تكرمة للملك . فلما ضعفت يداه سقطتا وقطر من دمه قطرة فى غير الطست فقالت : لا تضيعوا دم الملك . فأجاب جذيمة : دعوا دما ضيعه اهله وهلك. وخرج قصير من الحى الذى هلكت فيه العصا حتى قدم على عمرو بن عدى وهو بالحيرة فوجده قد اختلف مع عمرو بن عبد الجن الذى كان استخلفه جذيمة عند خروجه للزباء على خيوله فأصلح بينهما وابلغهما الخبر واطاع الناس عمرا بن عدى فى سنة ٢٦٨ مسيحية وقال له قصير تهيأ واستعد ولا تطل دم خالك فقال له كيف لى بها وهى امنع من عقاب الجو وكانت الزباء سألت الكهنة عن أمرها وهلاكها فقالوا لها نرى

هلا كان بسبب عمرو بن عدى ولكن حتفك بيدك فحذرت عمرا واتخذت نفقا من مجلسها الى حصن لها داخل مدينتها وقالت ان فاجأنى أحد دخلت النفق الى حصنى ودعت رجلا مصورا حاذقا فأرسلته الى عمرو متنكرا وقالت له صوّره لى على كل حالاته جالسا وواقفا ومنفردا ومتنكرا ومتسلحا بهيئته ولونه ففعل المصوّر ما أمرته به وقد ارادت بذلك ان تعرف عمرا فلا تراه على حال الا عرفته وحذرته أما قصير فقال لعمرو: اجدع انفى واضرب ظهرى ودعنى واياها. فقال عمرو: ما أنا بفاعل. فأجابه قصير: خل عنى اذاً وخلاك ذم. فجدع قصير أنفه ودق بظهره وخرج كأنه هارب وادعى ان عمرا فعل به ذلك وسار حتى قدم على الزباء وأدخل عليها فاذا أنفه قد جدع وظهره قد ضرب فقالت: لامر ما جدع قصير أنفه. وسألته الخبر فقال: زعم عمرو انى غدرت بخاله وزينت له المسير اليك ومالأتك عليه ففعل بى ما ترين فأقبلت اليك وعرفت انى لا أكون مع واحد هو أثقل عليه منك. فأكرمته واصابت عنده بعض ما ارادت من الحزم والرأى فانخدعت له وسلمته امور المملكة

فأصبح الآمر الناهي في البلاد حتى اذا ماعرف استرسالها اليه وشدة وثوقها به قال لها ان لي بالعراق اموالا كثيرة فأذني لي لاحمل مالي واحمل اليك من طرائفها وصنوف ما يكون بها من التجارات فتنالي أرباحا وبعضاً مما لاغنى للملوك عنه ففرحت لقوله ودفعت اليه أموالا وجهزت معه عيرا حتى قدم العراق وأتى عمرا متخفيا واخبره بالامر وقال جهزني بالبز والطرف وغير ذلك لعل الله يمكنك من الزباء فتصيب ثارك وتقتل عدوك. فاعطاه ما طلب ورجع به اليها فأعجبها وسرها وازدادت به ثقة ثم جهزته بعد ذلك مرة أخرى بأكثر مما جهزته به في المرة الاولى فحمل من عند عمرو حاجته ولم يدع طرفة ولا متاعا قدر عليه الا واستصحبه معه ثم لما رجع ثالث مرة أخبر عمرا بما أضمر عليه وقال اجمع لي ثقات اصحابك واقوامك وهيء لهم غرائر واحمل كل رجلين على بعير في غرارتين حتى اذا دخلت الابل مدينة الزباء أقمتك على باب نفقها وحينئذ تخرج الرجال من الغرائر فان اتاهم العدو قاتلوه وان اقبلت الزباء تريد نفقها قتلتها ففعل عمرو ذلك وساروا فلما كانوا

قريباً من الزباء تقدم قصير اليها وبشرها بكثرة ما جاء به من الثياب والطرائف وسألها أن تخرج وتنظر الابل وما عليها فخرجت الزباء وأبصرت الابل تهادى باحمالها فقالت :

ما للجمال مشيها وئيدا أجندلا يحملن أم حديدا
أم صرفانا باردا شديدا أم الرجال جثما قعودا

ودخل الابل المدينة فلما توسطتها انيخت وخرج الرجال من الغرائر وقام عمرو على باب النفق وثار رجاله على اهل المدينة ووضعوا فيهم السلاح وأقبلت الزباء تريد الخروج الى نفقها فوجدت عمرا قائما على بابه فعرفته بالصورة التى عملها المصور فمصت سما كان فى خاتمها وقالت: **بيدى لا بيد عمرو.** فتلقاها عمرو وقصير بالسيف وقتلاها. ولم يغن عنها حرصها ولا نفقها شيئاً وأصابا ما أصابا من مدينتها وعادوا الى العراق وأنشأ عمرو يقول :

ألا ايها الغر المرجى ألم تسمع بخطب الاولينا
دعى بالبقة الوزراء يوما جذيمة يستشير الناصحينا
فطاوع أمرها وعصى قصيرا وكان يقول لو نفع اليقينا

لقد خطب التي غدرت وخانت وهن ذوات غدر يزدهينا
فخطت في صحيفتها اليه ليملك بضعها اوان يدينا
ففاجأها وقد جمعت جموعا على أبواب حصن معلمينا
وحكمت الجديد براحتيه فاضحى قولها كذبا ومينا
وخبرت العصا الانباء عنه ولم ار مثل فارسها هجينا
فبات نساؤه ثكلى عليه مع الابناء يعاين الانينا
فولى أنفه الموسى قصير ليخدعها وكان بها ضنينا
مخاتلة ابنة الريان مكرا فاذهل عقلها الوافي الرصينا

وليت شعري كيف ساغ لعمرو أن يلوم الآن في شعره نصحاء جذيمة وقد كان منهم ويعترف لقصير باصالة الرأي وقد كان من الذين سفهوا قوله ولكن ربما كان طمعه في الملك من بعد جذيمة هو الذي حمله على ذلك التحريض وفي هذا الخبر من الحكم والعبر مالا يخفى على اللبيب : فلو أطاع جذيمة قصيرا ما حل به ما حل ولو كان اقتصر على ملكه ولم يطمع في ما في يد غيره ما غار على الريان ولا أضغن عليه قلب ابنته حتى عملت على مكيدته والتنكيل به . ولو لم تغتر الزباء

بتمويهات قصير — وهو من اعدائها — ولم تنخدع له وتسلم اليه مقاليد أمور بلادها ما وقعت فى هذه الورطة وما اضاعت البلاد ولكن لا رادّ لحكم الله وقضائه فكما جعل الجور والعسف والترف والفجور من أسباب تلاشى الامم وانقراضها جعل أيضاً الغفلة والطمع والانخداع للاجانب والدخلاء وتسليمهم البلاد من اعظم العوامل القاضية على الوطن والبلاد فليتدبر المتدبرون

ولما توفى عمرو بن عدى تولى الملك بعده امرؤ القيس الاول وعند موت هذا خلفه عمرو بن امرئ القيس المذكور وكان عالي الهمة شديد الباس شاعرا فصيحاً وبوفاته انتقل الملك الى اثنين من العمالقة ثم رجع الى بنى عمرو بن عدى فتولى منهم امرؤ القيس الثانى — ويلقب بالمحرق لانه أول من عاقب بالنار وصار هذا اللقب يطلق على أولاده من بعده — ثم بوفاته تملك بعده النعمان بن امرئ القيس — وكان يلقب بالاعور — بنى الخورنق والسدير وكردس الكراديس وكان أشد الملوك نكاية فى الاعداء : غزا الشام مراراً كثيرة واكثر من

المصائب فى اهلها وسبي وغنم كثيرا من الاموال وكان صارما حازما ضابطا لملكه اجتمع له من الاموال والذخائر ما لم يجتمع لغيره من ملوك الحيرة. وبعد ان عمر ثلاثين عاما فى الملك صعد على مجلسه فى قصر الخورنق وتأمل فى الملك وما لديه من الخيرات والاموال فلم يغتر بها ولم تفتنه بل قال : لا خير فى مالك آخره الى النفاد : ومن ثم زهد فى الملك وأمر أصحابه ان يعتزلوا بابه حتى اذا جن الليل التحف بكسائه وساح فى الارض ولم يره احد بعد ذلك. وقيل ان هذا كان فى سنة ٤٣٠ مسيحية. وتولى ابنه المنذر مدة ثم مات وتولى بعده ابنه الاسود وكان مغوارا فاتكا انتصر على الشام واسر عدة من ملوكها وأراد ان يعفو عنهم فاعترضه ابن عم له يدعى أبا أذينة كان احد ملوك الشام قتل اخاه وقال له محرضا :

ما كل يوم ينال المرء ما طلبا ولا يسوغه المقدار ماوهبا
واحزم الناس ما ان فرصة عرضت لم يجعل السبب الموصول منقضبا
وأنصف الناس فى كل المواطن من سقى المعادين بالكاس الذى شربا
وليس يظلمهم من راح يضربهم بحد سيف به من قبلهم ضربا

والعفو إلا عن الاكفاء مكرمة | من قال غير الذي قد قلته كذبا
قتلت عمرا وتستبقي يزيد لقد | رايت رأيا يجر الويل والحربا
لا تقطعن ذنب الافعى وترسلها | ان كنت شهما فاتبع رأسها الذنبا
هم جردوا السيف فاجعلهم له جزرا | وأوقدوا النار فاجعلهم لها حطبا
إن تعف عنهم يقول الناس كلهم | لم يعف حلما ولكن عفوه رهبا
هم أهلة غسان ومجدهم | عال فان حاولوا ملكا فلا عجبا
وعرضوا بفداء واصفين لنا | خيلا وابلا تروق العجم والعربا
يحابون دما منا ونحلبهم | رسلا لقد شرفونا في الورى حلبا
علام تقبل منهم فدية وهم | لا فضة قبلوا منا ولا ذهبا

فعفا عن بعضهم وقتل البعض الآخر ثم توفي بعد أن حكم عشرين سنة فتولى أخوه المنذر بن المنذر بن النعمان الاعور وبموته صار الملك في بني لخم حتى صار في امرئ القيس الثالث وهو الذي بنى له سنمار القصر المشهور وكافأه عليه بالقتل مخافة ان يبني لغيره مثله كما هو معلوم وفي ذلك قال المتلمس الشاعر

جزاني ابو لخم على ذات بيننا | جزاء سنمار وما كان ذا ذنب

ويقال ان النصرانية كثرت في مملكة الفرس وظهرت

بالعراق فى زمنه

ولمـا مات ملك ابنه المنذر سنة ٥٢٠ وكان يلقب بماء السماء وفى أيامه اراد كسرى « قباذ » أن يتدين بدين الزندقة فلما أبى عليه ذلك ماء السماء عزله من ملك الحيرة وملك موضعه الحرث ابن عمرو بن حجر الـكندى الذى وافقه على هذا الدين . وكان مذهب الحرث كاشتراكى زمننا يقول : نحن نقسم بين الناس ونرد على الفقراء حقوقهم من الاغنياء: ثم لمـا تمكن على ملك فارس كسرى أنوشروان بعد أبيه قباذ طرد الحرث وأعاد المنذر الذى لم يلبث ان مات مقتولا نخلفه ثانيا الحرث سنة ٥٢٣ ولمـا مات سنة ٥٦٤ م استبد بالدولة عمرو بن المنذر المتقدم وكان يقال له عمرو بن هند — نسبة لامه هند بنت الحرث بن عمرو الـكندى — وكان مقداما شديد السلطان كثير المغازى تلقبه العرب بمضرط الحجارة لشدة بطشه وكان قتل له أخ عند زرارة بن عدس الدارمى فى مكان اسمه أوارة وكتموا خبره عنه فابلغه اياه عمرو بن ملقط الطائى الذى كان بينه وبين زرارة شر فانتهز الفرصة وصار يحرض عمرا

بن هند على بنى دارم حتى ثارت به الحمية وجمع اهل مملكته وسار طالبا ثار اخيه وفعلا وقع القتال بينهم وقتل كثير من بنى دارم وفر منهم البعض وقتل عمرو اولادهم وبقر بطون زوجاتهم وأقسم أن يحرق منهم مائة بثار أخيه ثم سار يلتمس من فر منهم ويلقى فى النار من وقع فى يده حتى أدرك تسعة وتسعين رجلا وتعذر عليه اتمام المائة فلما كان ذات يوم فى آخر النهار أقبل راكب يقال له عمار وكان من البراجمة — وهم قوم من تميم — واتفق ان عمرا كان ألقى رجلاً فى النار فسطع الدخان وفاح القتار فظن ذلك مأدبة للطعام فأسرع اليها حتى اناخ الى عمرو فسأله عمرو من انت قال: من البراجمة. فذهبت مثلا وأمر به فألقى فى النار وصار ذلك عارا لبنى تميم بحب الطعام قال الشاعر

اذا ما مات ميت من تميم — وسرك ان يعيش فجئ بزاد
بخبز أو بلحم أو بتمر — أو الشئ الملفف فى البجاد
تراه ينقب البطحاء حولا — ليأكل رأس لقمان بن عاد

ثم ان عمرا لما انتقم من بنى تميم داخله الغرور حتى ظن

أنه لم يعاداه احد فى الدنيا فصادف ان قال ذات يوم لجلسائه وكان دنا أجله : هل تعلمون أن أحدا من العرب من اهل مملكتى تأنف أمه من خدمــة أمى قالوا : ما نعرفه الا أن يكون عمرو بن كلثوم . لانه من اشرافهم وهو سيد عظيم فأرسل اليه يستزيره ويسأله ان يزيره أمه فأجابه بن كلثوم الى ذلك واقبل من الجزيرة فى جماعة من بنى تغلب واقبلت أمه ليلى بنت المهلهل بن ربيعة — اخى كليب وائل من أعز العرب — وكان زوجها كلثوم من فرسان العرب المشهورين ولما بلغ عمرو بن هند قدوم ابن كلثوم وأمه امر بسرادق فضرب بين الحيرة والفرات وأرسل الى وجوه أهل مملكته فصنع لهم طعاما ثم دعا الناس اليه ووضعه لهم فى باب السرادق وجلس هو وعمرو بن كلثوم وخواص اصحابه فى الداخل ودخلت ليلى بنت المهلهل على هند أم عمرو فى قبتها وكان ابنها قال لها اذا فرغ الناس من الطعام فنحى خدمتك عنك واستخدمى ليلى أن تناولك الشئ بعد الشئ ففعلت ما امرها به ابنها ولما فرغ الناس من الطعام قالت : ياليلى ناولينى ذلك الطبق .

فقالت : لتقم صاحبة الحاجة الى حاجتها . فأعادت عليها فلما ألحت صاحت ليلى واذلاه يا آل تغلب فسمعها ولدها ابن كلثوم فثار الدم فى وجهه وقام الى سيف لعمرو بن هند كان معلقا فى السرادق ولم يكن بسيف غيره فأخذه وضرب به رأس عمرو فقتله ونادى فى بنى تغلب فانتهبوا جميع ما فى السرادق واستاقوا نجائبه وسبوا النساء ولحقوا بالجزيرة وفى ذلك يقول بعضهم :

لعمرك ماعمرو بن هند وقد دعا لتخدم ليلى أمه بموفق
فقام ابن كلثوم الى السيف مصلتا وامسك من ندمانه بالمخنق

فكان عمرو كالباحث عن حتفه بظلفه وبذا أضحى ضحية غروره وظلمه وتكبره وعتوّه فسبحان مسبب الاسباب

اذا ما الظلوم استحسن الظلم مذهبا ولج عتوا فى قبيح اكتسابه
فكله الى صرف الزمان فانه سيبدى له مالم يكن فى حسابه
فكم قد رأينا ظالما متمردا يرى النجم تيها تحت ظل ركابه
فعما قليل وهو فى غفلاته أناخت صروف الحادثات ببابه
فأصبح لا مال ولا جاه يرتجى ولا حسنات سطرت فى كتابه

وقابله الجبار منه بفعله وصب عليه الله سوط عذابه

وبعد ان مات عمرو بن هند تملك اخوه قابوس بن المنذر وامه هند ايضاً وكان ضعيفاً مهينا مولعا باللهو والشراب والصيد اقام ثماني سنوات ثم مات مقتولا فتملك بعده المنذر بن المنذر بن امرئ القيس اخو عمرو بن هند ايضاً وكان معتدل القامة صبيح الوجه كريما ملك اربع سنين ثم مات فتولى الملك مكانه ابنه النعمان بن المنذر بن المنذر بن ماء السماء المتقدم ذكره سنة ٥٨٨ وكان يكنى بأبي قابوس وكان احمر ابرش قصيرا دميما سيئ الخلق عبد الاوثان والاصنام ثم تنصر(١) وصادف

---

(١) روى أن النعمان بن المنذر خرج متصيدا ومعه عدى بن زيد فمرا بشجرة فقال عدى : أيها الملك اتدرى ما تقول هذه الشجرة قال لا . قال فانها تقول :

من رآنا فليحدث نفسه ... انه موف على قرب زوال
فصروف الدهر لا تبقى لها ... ولما تأتى به صم الجبال
رب ركب قد أناخوا حولنا ... يشربون الخمر بالماء الزلال
والاباريق عليها فدم ... وجياد الخيل تجرى بالجلال
عمروا الدهر بعيش حسن ... أمن دهرهم غير عجال

أن حقد على رجل من قومه يدعى عدى بن زيد فسجنه وأبى اطلاقه فجعل عدى يقول الشعر وهو فى الحبس فمن قوله :

عصف الدهر بهم فانقرضوا وكذاك الدهر حالا بعد حال

ثم جاوز الشجرة فمرا بمقبرة فقال له عدى : أتدرى ما تقول هذه المقبرة . قال لا . قال فانها تقول :

أيها الركب المخبو ن على الارض المجدونا
كما أنتم كذا كنا وكما نحن تكونونا

فقال النعمان : قد علمت أن الشجرة والمقبرة لا تتكلمان وانك انما أردت عظتى فجزاك الله عنى خيرا فما السبيل الذى تدرك به النجاة قال : تدع عبادة الاوثان وتعبد الله وحده فتركها وتنصر وأخذ فى العبادة والاجتهاد . وقيل أن سبب تنصره هو أنه كان نادمه رجلان من بنى أسد أحدهما خالد بن المضلل والآخر عمرو بن مسعود فأغضباه فى بعض المنطق فأمر بان يحفر لكل منهما حفيرة بظهر الحيرة ثم يجعلا فى تابوتين ويدفنا فى الحفرتين ففعل ذلك بهما حتى اذا أصبح سأل عنهما فأخبر بهلاكهما فندم على ذلك وركب حتى نظر اليهما وامر ببناء الغريين فبنيا وجعل لنفسه يومين : يوم نعيم ويوم بؤس . فأول من يطلع عليه يوم نعيمه يعطيه مائة من الابل شؤما أى سوداء وأول من يطلع عليه يوم بؤسه يعطيه رأس طبريان أسود ثم يأمر به فيذبح ويقرى بدمه الغريان فلبث بذلك برهة من دهره حتى مر رجل من طى اسمه حنظلة بن ابى عفراء كان أوى

ألا من مبلغ النعمان عنى وقد تهوى النصيحة بالمغيب
أحظى كان سلسلة وقيدا وغلا والبيان لدى الطبيب

النعمان فى خبائه يوما خرج فيه الى الصيد وانفرد عنه أصحابه بسبب المطر فرحب به حنظلة وهو لا يعرفه وذبح له شاة فاطعمه من لحمها وسقاه لبنا . فلما نظر اليه النعمان ساءه ذلك وقال له : يا حنظلة هلا أتيت فى غير هذا اليوم . فقال : أبيت اللعن لم يكن لى علم بما أنت فيه فقال له : ابشر بقتلك . فقال له : والله قد أتيتك زائرا لاهلى من خيرك مائرا فلا تكن ميرتهم قتلى . فقال : لابد من ذلك فاسال حاجة أقضيها لك فقال تؤجلنى سنة أرجع فيها الى أهلى وأحكم من أمرهم ما أريد ثم أصير اليك فانفذ فى حكمك فقال : ومن يكفل بك حتى تعود فنظر فى وجوه جلسائه فعرف منهم شريك بن عمرو فانشد

يا شريك يا ابن عمرو يا أخا من لا أخا له
يا أخا شيبان فك اليوم رهنا قد أناله
يا أخا كل مصاب وحيا من لا حيا له
أن شيبان قبيل أكرم الله رجاله
وأبوك الخير عمرو وشراحيل الحماله
رقياك اليوم فى المجد وفى حسن المقاله

فوثب شريك وقال : أبيت اللعن يدى بيده ودمى بدمه وأمر للطائى بخمسمائة ناقة وقد جعل الاجل عاما كاملا من ذلك اليوم الى مثله من القابل . فلما حال الحول وقد بقى من الاجل يوم واحد

أتاك بأنى قد طال حبسى ولم تسأم بمسجون حريب
وبيتى مقفر الانساء أرامل قدهلكن مع النجيب
يبادرن الدموع على عدى كشن خانه خرز الربيب
فهل لك ان تدارك ما لدينا ولا تغلب على الرأى المصيب

قال النعمان لشريك : ما أراك الا هالكا غدا فداء لحنظلة . فقال شريك : فان يك هذا اليوم ولى فان غدا لناظره قريب . فذهب قوله مثلا . ولما اصبح وقف النعمان وكان يشتهى أنه يقتله لينجي الطائي . فلما كادت الشمس تغيب قام شريك مجردا فى ازاره على النطع والسياف الى جانبه وكان النعمان أمر بقتله فلم يشعر الا براكب قد ظهر فاذا هو حنظلة قد تكفن وتحنط وجاء يناديه . فلما رآه النعمان قال ما الذى جاء بك وقد أفلت من القتل ؟ قال الوفاء . قال وما دعاك الى الوفاء ؟ قال ان لى دينا يمنعنى من الغدر . قال وما دينك . قال النصرانية ؟ قال فاعرضها على . فعرضها فتنصر النعمان وترك تلك السنة من ذلك اليوم وعفا عن شريك والطائى وقال : ما ادرى أيكما أكرم وأوفى أهذا الذى نجا من السيف فعاد اليه أم هذا الذى ضمنه. وأنا لا أكون ألأم الثلاثة. فليتأمل المتأملون ولينظروا كيف كان العرب فى وقت جاهليتهم والى أى حال من الوفاء قد صرنا اليوم!! قال الميدانى وتنصر مع النعمان أهل الحيرة أجمعون وبنى النعمان فى حاضرة ملكه الكنائس العظيمة

فانى قد وكلت اليوم امرى الى رب قريب مستجيب

وكان عدى من اولاد نزار شاعرا فصيحا يعرف الفارسية ونبغ فيها وكان أوّل من كتب بالعربية فى ديوان كسرى فارتفع ذكره ولما تولى النعمان على الحيرة استدعاه من المدائن مع اخوين له اسمهما ابىّ وعامر فأكرمهم وأجزل صلاتهم وزوج عديا ابنته هندا وولاه مملكته وكل شئ سوى اسم الملك ثم حسده وحبسه كما تقدم وكان أبى إذ ذاك فى بلاد فارس فلما بلغه الخبر كلم كسرى فى أمره وأرسل كسرى بانفاذه فتظاهر النعمان بتلبية الطلب ولكنه أنفذ سرا اليه من قتله ليلا وفى الصباح أمر أعوانه باطلاقه فأخبروه بأنه مات فأظهر الاسف والتحسر ولكن لم يخف ذلك على كسرى وأسرّها له كما أسرّها أهل عدى وما زالوا حانقين عليه حتى تمكنوا من الايقاع به بأن زينوا لكسرى أن يطلب من النعمان نساء من أهله ليصاهرهن وكانت هذه حيلة منهم لعلمهم علم اليقين أن العرب يضنون بنسائهم على الاعاجم فلما رفض النعمان غضب كسرى وأضغن قلبه عليه أهل عدى

فاستدعاه عنده فخاف النعمان وهرب مستنجدا بأصهاره بجبلى طيء فأبوا نصرته خوفا من بطش كسرى فأقبل وليس فى العرب من يجده حتى نزل بذى قار — فى بنى شيبان بالقرب من البصرة — وقال أحد أصحابه ممن استجار بهم : عندى رأى لك لست أشير به عليك لادفعك عما تريده من مجاورتى ولكنه الصواب . فقال هاته فقال : ان كل أمر يجمل بالرجل أن يكون عليه إلا أن يكون بعد الملك سوقة والموت نازل بكل أحد . ولأن تموت كريماً خير من أن تتجرع الذل أو تبقى سوقة بعد الملك فامض الى صاحبك واحمل اليه هدايا ومالا وألق نفسك بين يديه فاما أن يصفح عنك فتعود ملكا عزيزا وأما ان يصيبك فالموت خير من أن يتلاعب بك صعاليك العرب ويتخطفك ذئابها وتأكل مالك وتعيش فقيرا أو تقتل مقهوراً . فاستحسن النعمان هذا الرأى وأودع هانئ ابن مسعود أهله وماله ودروعه وذهب الى كسرى الذى لما بلغه قدومه أنفذ اليه من قيده وسجنه بخانقين ومات هنالك . وقيل إنه ألقاه تحت ارجل الفيلة فوطئته حتى مات . وقد نال

جزاءه الاوفى . وولى كسرى بعد النعمان اياس بن قبيصة الطائى على الحيرة سنة ٦١١ للمسيح وكان فصيحاً جوادا مشهوراً بالشجاعة عالماً بأيام العرب ووقائعهم وبعث اليه كسرى أن يرسل الى هانئ بن مسعود يأمره بتسليم ما استودعه النعمان فأبى هانئ أن يسلمه ماعنده فغضب كسرى لذلك وأرسل من يقابل هانئاً بذى قار وهناك حصلت حرب بين العرب والعجم انهزم فيها الاخيرون شر هزيمة وهو أوّل يوم انتصفت فيه العرب وتطاولت فيه اعناقهم وهو من أعظم ايامهم وقد اكثر شعراؤهم من ذكره وكان ذلك سنة ٦١١ للمسيح وبموت إياس بن قبيصة سنة ٦١٧ خلفه من يقال له زارديه ثم الاسود بن المنذر أخو النعمان ثم المنذر بن النعمان فى سنة ٦٣٤ وهو المنذر الخامس الملقب بالغرور واستمر على ملك الحيرة الى أن قتل بالبحرين يوم جواثى وهو آخر الملوك اللخمية الذين كانوا عمالا للاكاسرة على عرب العراق كما أسلفنا القول ثم أتى بعد المنذر المذكور خالد بن الوليد تخفق فوق رأسه راية الاسلام فتغيرت البلاد وتخلصت من ظلم

الظالمين وجور الجائرين وفساد المفسدين والايام دول

ملوك غسان من السنة ٢٠٠ تقريباً الى السنة ٦٣٦ مسيحية

ومن ملوك العرب أيضاً الغسانية ملوك الشام وأصلهم من اليمن من قبيلتى الازد والخزرج من ولد كهلان بن سبا بن قحطان هاجروا من بلادهم بسبب سيل العرم الى الشمال الغربى وتملكوا أرض حوران والبلقاء ونزلوا على ماء بقرب دمشق يقال له غسان فاشتهروا به كما سبق القول حتى غاب اسمه عليهم فقيل لهم آل غسان وأخرجوا عربا كانوا قبلهم من الشام يقال لهم الضجاعمة ثم تغلبوا على الشام وملكوها ودام ملكهم نحو أربعمائة سنة وعدد ملوكهم ٣٢ ملكا ويسميهم مؤرخو الاسلام العرب المتنصرة ويعرفون أيضاً بملوك غسان ودانوا بالنصرانية وكانوا عمالا لقياصرة الروم فى الشام ونسبتهم للقياصرة كنسبة ملوك الحيرة الى ملوك الفرس وكانوا أشبه شئ بالولاة المستقلين تحت رعاية الرومانيين فيمتازون عن ولاة الروم باستقلالهم فى حكومتهم الداخلية تحت شروط معلومة فيؤدون الجزية ويمدّون الرومانيين بالجند

من قبيلتهم عند الحاجة وخصوصاً فى خروجهم مع الفرس أو لعلهم كانوا من قبيل أصحاب الاقطاعات والمتعهدين

وكان العالم قبيل الاسلام تتنازعه دولتان عظيمتان: الفرس فى الشرق والرومان فى الغرب لا يكاد يفتر النزاع بينهما فيستعين الفرس بالمناذرة ملوك الحيرة وتستعين قياصرة الروم بالغساسنة فتولد بين تينك القبيلتين القريبتين المسيحيتين ضغائن توارثها الابناء عن الآباء وكثيرا ما كانت تضطرم الحرب بينهما حتى كاد يبيد أحدهما الآخر والنزاع بين الفرس والروم قديم وكأنه طبيعى بين المشرق والمغرب فقد كانت الحروب متواصلة قبلا بين الفرس واليونان ثم بين الفرس والرومان والآن بين أوربا وأهل الشرقين الاقصى والادنى وكانت عاصمة الفرس المدائن وعاصمة الرومان القسطنطينية فقضوا أجيالا متوالية وهم بين حرب وصلح

وكان بنو غسان تحت سيطرة الوالى الرومانى المقيم بدمشق بأمر امبراطور المملكة الرومانية الشرقية المقيم فى القسطنطينية فترد الاوامر الامبراطورية من الامبراطور الى

والى دمشق وهو يبلغها الى ملك غسان وكان كرسى حكومة الغسانيين تارة فى عمان بالبلقاء وطورا فى تدمر وتارة فى بصرى عاصمة حوران فى ذلك العهد . وأوّل من ملك منهم جفنة بن عمرو بن ثعلبة دعا من كان قبله بالشام من الرومان والعرب الى طاعته فأجابوه وبنى عدّة مصانع ومن ملوكهم عمرو بن الحرث وكان شديد التكبر ذميما قبيح السيرة أنشأ فى دمشق وضواحيها عدة قصور شامخة منها قصر القضاء وقصر منار وصوّر فى بعض هذه القصور مجالسه وجلساء دولته وأشكال صورته فكانت قصوره منتزهات لا مثيل لها وكان رسم لنفسه فى كل ليلة جارية عذراء من السبايا التى تصيبها خيله المغيرة فى البلاد وكان ذلك دأبه حتى وقعت عنده فى السبي اخت عمرو بن الصعق فلم يشعر إلا وأخوها قد وقف ببابه وهو يقول :

يا أيها الملك المهيب أما ترى صبحا وليلا كيف يختلفان
هل تستطيع الشمس أن يؤتى بها ليلا وهلا بالصباح يدان
فاعلم وأيقن ان ملكك زائل وكما تدين تدان عقد رهان

فوقعت هذه الابيات فى قلبه وأثرت فيه وراجع نفسه فارتجعت عن غيها وقال الله قد أمنك على من لك عندى وأمن كل الناس على من وقع لهم من السبايا وابطل تلك العادة من ذلك اليوم. وعندى أن رجوع هذا الملك للحق وتأثره للنصيحة وتغلبه على نفسه من أعظم الصفات وأكرم الخصال والفضائل

ومن ملوكهم جفنة الاصغر بن المنذر الاكبر وكان يلقب بالمحرق لانه احرق الحيرة لما أغار على أهلها ومنهم الحرث بن جبلة تملك من سنة ٥٢٩ لسنة ٥٧٢ ميلادية أوقع ببنى كنانة وكان كثير المغازى والغارات على قبائل العرب كريما جوادا كثير المواهب حتى قيل إنه لم يجتمع من الشعراء بباب أحد من ملوك عصره ما كان يجتمع ببابه ويقال إن حسان بن ثابت الانصارى الشاعر المشهور — الذى عمر ستين سنة فى الجاهلية وستين فى الاسلام — كان منقطعا اليه وله فيه مدائح كثيرة وكان ابتداء ملكه فى زمن النعمان بن المنذر ملك الحيرة فكانت بينهما مغايرة فى الشرف وروى أنه قال يوما لحسان على سبيل الاختبار بلغنى أنك نسبت الى

النعمان رفعة شأن وفضلته عليّ فقال : وكيف أفضله عليك فوالله لقذا لك أحسن من وجهه ولامك أشرف من أبيه ولابوك أشرف من جميع قومه ولشمالك أجود من يمينه ولحرمانك أنفع من نداه ولقليلك أكثر من كثيره ولثمادك أشرع من غديره ولكرسيك أرفع من سريره ولجدولك أغور من بحره وليومك أطول من شهره ولشهرك آمد من حوله ولحولك خير من حقبه ولزندك أورى من زنده ولجندك أعز من جنده وانك من غسان وانه من لخم فكيف أفضله عليك وأعدله بك؟ فقال: ياابن الفريعة — وهو اسم أم حسان — هذا لا يسمع الا فى شعر . فقال :

نبئت أن أبا منذر يساميك للحرث الاصغر
قذا لك احسن من وجهه وأمك خير من المنذر
ويسرى يديك على عسرها كيمنى يديه على المعسر

وكان جوستانيان قيصر الروم وقتها يحبه ويكرمه حتى لقبه بلقب الملوك وكان فى عصره من الشعراء النابغة ولبيد وامرؤ القيس ولما مات ملك بعده النعمان بن الحرث وكنيته

ابو كرب اجتهد اكثر من أجداده فى نشر النصرانية فى بلاده وكان عادلا شجاعاً فاضلاً كثير الخير قليل الشر حسن الصورة والسيرة يحب العلماء ويقدمهم على أشراف الناس وتوفى النعمان فى بعض مغازيه قتيلا سنة ٥٨١ ميلادية

وآخر ملوك غسان جبلة بن الايهم تولى سنة ٦٣٦ كان طويل القامة نحيف الجسم يلبس الثياب الفاخرة بنى مدينة جبلة بين طرابلس واللاذقية وكان أسلم فى ايام الخليفة الثانى سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه حين افتتاح الشام ثم خرج الى مكة حاجا بمائتين وخمسين رجلا من قومه فلما قرب من المدينة قلد أعناق خيله قلائد من الفضة والذهب ولبس التاج ولما بلغ سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه قدومه تلقاه ورحب به ورفع مقامه حتى اذا كان يوم الطواف بالبيت والناس يطوفون وهو من جملتهم اذ وطئ أعرابى من بنى فزارة طرف ازاره فانحل عنه الازار فغضب جبلة من ذلك ولطم الفزارى لطمة هشم بها أنفه فتعلق به الرجل حتى قدما الى عمر رضى الله عنه وشكا الفزارى حاله اليه فقال عمر لجبلة:

دعه يلطمك كما لطمته فقال جبلة ألا يفضل ملك على سوقة ؟ قال عمر : كلا فان الاسـلام سوّى بينكما . فغضب جبلة من ذلك وصبر الى الليل حتى اجتمع بغلمانه وخرج بهم الى الشام ومنها سار الى قيصر ملك الروم حتى هلك وبذا انقرض ملوك غسان وأصبحت بلادهم عمالة اسلامية

ملوك متفرقون بجزيرة العرب — جئنا على ذكر الدول الثلاث الكبرى التي كانت حاكمة على أطراف بلاد العرب أي مملكة اليمن ومملكة العراق ومملكة الشام. وما خلا هذه الدول الكبيرة كان في بلاد العرب عدة ممالك صغيرة مستقلة بأمرها ككندة ومعدّ وكلاب وغيرهم وقد وجد في بعض ملوك هذه الممالك من اشتهر بالحكمة والعدالة الا أنه لم يبق شيء يذكر من أخبارهم ولم يصلنا منها الا اشتغالهم بمحاربة بعضهم بعضاً وسنتكلم على بعضهم

ملوك كندة — تنسب قبيلة كندة لثور بن عفير من بني قحطان — وقيل له كندة لانه كندأباه أي جحد نعمته — أسست مملكة بنجد من سنة ٤٥٠ ميلادية وأوّل من اسسها حجر بن

عمرو الملقب بآكل المرار من ولد كندة المذكور وكانت كندة قبل أن يملكها حجر بغير ملك فأكل قويهم ضعيفهم فلما تملك سدد أمورهم وساسهم أحسن سياسة وانتزع من اللخميين ما كان بأيديهم من أرض بكر بن وائل واقب بآكل المرار لانه كان بلغه أمر أغضبه فاستشاط وصار يأكل المرار وهو نبات مر الطعم اذا أكلته الابل تقلصت مشافرها فقيل له ذلك وقيل لان أمه قالت عنه : كأنه جمل قد أكل المرار . لبغضها له

وملك بعده ابنه عمر وتلاه ابنه الحارث وكان معاصرا لملك الفرس كسرى قباذ بن فيروز وظهر فى أيام قباذ رجل يقال له مردك دعا الناس الى الزندقة فوافقه قباذ وكان عمال الفرس فى الحيرة وفى الانبار بنى لخم وهم ملوك الحيرة من العرب المتنصرة وكان العامل منهم لقباذ اذ ذاك المنذر ابن ماء السماء فدعا قباذ المنذر الى الدخول معه فى مذهب مردك فأبى فدعا الحارث بن عمرو الكندى فأجاب فطرد المنذر وولى الحارث كما مر ذكره عند الكلام على ملوك الحيرة

فلما أفضى الملك الى كسرى أنوشروان سنة ٥٢٦ م قتل مردك وكل اتباعه وولى المنذر فقر الحارث فجرد عليه كسرى فرسانا من بنى تغلب وبهراء واياد فنزل أرض كلب بين الحجاز والعراق فانتهبوا ماله وهجائنه وساقوا معهم ٤٨ نفساً من أهله الى المنذر فضرب رقابهم . أما هو فنجا بنفسه ولجأ الى بنى كلب الى ان مات ويقال انهم تناوه وكان للحارث هذا خمسة بنين وهم حجر وشرحبيل ومعد يكرب وعبد الله وسلمة واتفق وهو عامل لقباذ فى الحيرة ان القبائل فى نجد وما والاها — وفيهم بنو أسد وغطفان وبكر وحنظلة ودارم وتغلب والنمر بن قاسط وغيرهم — اختلفوا فيما بينهم فجاء اشرافهم الى الحارث يحكمونه على أن يولى عليهم أبناءه فأجاب دعوتهم وولى كلا من ابنائه على قبيلة أو أكثر من هذه القبائل فكان حجر على بنى أسد وغطفان فوضع عليهم الاتاوة الجزية فى الجاهلية فقبلوها فى أول الامر ثم انتقضوا عليه وأبوا دفعها وكان حجر اذ ذاك فى تهامة فبعث اليهم الجابى فضربوه وجرحوه فجرد عليهم جندا من رجال اخوته فاعمل فيهم العصا وأباح أموالهم وقادهم الى تهامة

فصبروا على الضيم وتآمروا وقالوا: والله لئن تهركم هذا ليحكمن عليكم حكم الصبي فما خير عيش يكون بعد قهر وأنتم بحمد الله اشــد العرب فموتوا كراما . وساروا حتى تمــكنوا من حجر فقتلوه شر قتلة بخبر طويل لا محل له هنا وكان لحجر هذا غلام اسمه امرؤ القيس أمه فاطمة أخت كليب ومهلهل ابني زهير التغلبيين وكليب هو الذى كانت تقول العرب فيه : أعز من كليب . وبمقتله هاجت حرب بكر وتغلب . وكان امرؤ القيس زكى الفؤاد شاعرا مفلقا وكان ملوك العرب فى تلك الايام يأنفون من الشعر أن يقولوه هم أو يقوله أولادهم وكان امرؤ القيس كلفا به حتى نمى منصب والده ومنزلته من السيادة والقوّة فطرده والده وآلى على نفسه أن لا يقيم معه فـكان امرؤ القيس يسير فى احياء العرب ومعه جماعة من لفيف القبائل من طئ وكلب وغيرهم وفيهم المغنون والندماء والشعراء فيطوفون أحياء العرب فاذا اتوا غديرا او روضـة نزل وذبح الذبائح لرفاقه وخرج للصيد فتصيد وعاد فأكل وأكلوا معه وشرب الخمر وسقاهم فلا يزال كذلك أياما ثم

ينتقل الى مكان آخر ولما قتل أبوه كان فى مكان يقال له دمون فى ارض اليمن مع نديم له يسقيه الخمر ويلاعبه بالنرد فجاءه الرسول بخبر والده فلم يلتفت الى قوله بل أمسك نديمه وقال له : اضرب فضرب حتى اذا فرغ من غنائه قال له : لم أشأ أن أفسد عليك دستك . ثم سأل الرسول عن امر ابيه فأخبره فقال : الخمر عليّ والنساء حرام ولا أدهن بدهن ولا أغسل رأسى من جنابة حتى اقتل من بنى اسد مائة وأجزّ نواصى مائة . واعتم بالعمامة السوداء وكان امرؤ القيس اذ ذاك فى نحو العشرين من عمره فارتحل الى بكر وتغلب فى شرقى نجد — وبنو تغلب أخواله لان أمه منهم كما تقدم — واستنجدهم فبثوا له العيون والارصاد على بنى اسد وكان بنو اسد مقيمين فى بنى كنانة فعلموا بذلك فارتحلوا فى بعض الليالى وبنو كنانة لا يعلمون وكانت العيون قد انبأت امرؤ القيس بأن بنى أسد فى كنانة فحمل ببنى بكر وتغلب حتى جاء الحى وهجم على أهله ووضع السلاح فيهم وهو يقول : يا لثارات الملك يا لثارات الهمام . فخرجت اليه عجوز من بنى كنانة فقالت : أبيت اللعن

لسنا لك بثار: نحن من كنانة . فعلم أنهم فرّوا فتعقبهم ولم يدركهم ثم غادر بكرا وتغلب واستنصر ازد شنوءة فأبوا أن ينصروه وقالوا: بنو اسد اخواننا. فنزل بملك يقال له مرثد الخير من بنى حمير وكانت بينهما قرابة فاستمده على بنى أسد فأمده بخمسمائة رجل من حمير ثم مات مرثد قبل رحيل امرىء القيس بالجيش وخلفه رجل من حمير يقال له قرمل بن الحميم فأظهر رغبته عن نصرته فهم امرؤ القيس بالانصراف فخجل قرمل وانفذ معه الرجال وتبعه اخلاط من العرب ومستأجرين منهم فسار بهم الى بنى أسد ويقال انه مر فى طريقه بمكان يقال له تبالة فيه صنم تعظمه العرب اسمه ذو الخصلة فاستقسم عنده بقداحه فأصاب أن لا يذهب فجمع القداح وكسرها وضرب بها وجه الصنم وسار حتى اتى بنى أسد فظفر بهم واخذ بثار ابيه فشكوا أمرهم الى المنذر فبعث جندا فى طلبه من أياد وبهراء وتنوخ فلم يظفروا به فأمدهم كسرى بجيش من الاساوره فسرحهم المنذر فى طلبه فخاف انصار امرىء القيس الحميريون وتفرقوا عنه فنجا هو وبعض أقاربه والتجأ الى الحارث ابن شهاب من بنى يربوع

وكان مع امرئ القيس خمس أدرع كانت لبنى آكل المرار ملوك كندة يتوارثونها ملكا عن ملك . فلم يكادوا يقيمون عند الحرث حتى بعث المنذر اليه أن يسلمهم أو يحاربه فاخرجهم ونجا امرؤ القيس ومعه ابنته هند والادرع والسلاح ومال كان بقي معه فخرج على وجهه يستنصر القبائل فجاء سعد بن الضباب سيد بني اياد — وسعد هذا أخو امرئ القيس من أبيه لان أمه كانت تحت حجر أبي امرئ القيس فطلقها وهي حامل فتزوجها الضباب فولدت سعدا على فرشه ومن عادة العرب ان ينسبوا المولود الى الفراش الذي يولد عليه — فأقام امرؤ القيس عند أخيه هذا أياما ثم تحول عنه الى ارض طيئ في شمالي نجد عند رجل من بني جديلة اسمه المعلى وأقام هناك زمنا طويلا ثم ارتحل الى غيرهم وما زال يرحل من حي الى آخر بادرعه وسلاحه وماله فراراً من المنذر حتى وصفوا له السموأل ابن عادياء الاسرائيلي المشهور بالوفاء صاحب حصن الابلق بتيماء والحصن بناه عاديا جد السموأل واحتفر فيه بئرا وكانت العرب تنزل فيه ضيوفاً يأكلون ويشربون اياما

ويقيمون فيه سوقا فوفد امرؤ القيس على السموأل بابنته هند وبضعة من أهله فضرب السموأل قبة انزل فيها هندا وانزل الرجال فى مجلس له براح فأقام عنده اعواما على الرحب والسعة والمنذر لا يزال يطلبه ويبحث عنه فأشار بعضهم على امرئ القيس ان يلتجئ الى قيصر الروم يستنصره على المنذر وكانت بين الروم والفرس عداوة كما لا يخفى وكان عامل الروم على الشام الحارث بن ابى شمر الغسانى الاكبر فتقدم امرؤ القيس الى السموأل ان يتوسط له عند الحارث ليوصله الى القيصر — امبراطور الرومانيين — ففعل وسار امرؤ القيس ومعه رجل يدله على الطريق واستودع السموأل ابنته هندا وسائر بنيه وأدرعه وماله وكان قد بلغ المنذر نزول امرئ القيس عند السموأل فوجه الحارث بن ظالم فى خيل للقبض عليه ثم علم بخروجه الى القيصر فأمره ان يأتى بادراعه وماله فوصل الحارث بن ظالم الى حصن الابلق فمنعه السموأل من الدخول واقفل الحصن دونه فضرب الحارث اطنابه خارج الحصن وكان للسموأل ابن خرج للصيد فى صباح ذلك اليوم فلما رجع قبض

الحارث عليه وقال للسموأل — وقد اطل من فوق السور —:
أتعرف من هذا؟ قال نعم هذا ابني: قال أفتسلم ما عندك لامرئ
القيس أم اقتله؟ قال شأنك به فلست اخفر ذمتي ولا اسلم مال
جاري! فنصح له ان يسلم الادرع لئلا يقتل الغلام فأبى فتناول
سيفاً وضرب به وسط الغلام فقطعه قطعتين وانصرف عنه
وفي ذلك يقول السموأل

وفيت بادرع الكندي اني ... اذا ماذم اقوام وفيت
واوصى عاديا يوما بأن لا ... تهدم ياسموأل ما بنيت
بنى لي عاديا حصنا حصينا ... وماء كلما شئت استقيت

اما امرؤ القيس فانه سار حتى انتهى الى القسطنطينية وفي
اثناء سيره مل رفيقه فقال امرؤ القيس

تقطع اسباب اللبانة والهوى ... عشية جاوزنا حماة وشيزرا
بكى صاحبي لما رأى الدرب دونه ... وأيقن انا لاحقان بقيصرا
فقلت له لا تبك عينك انما ... نحاول ملكا او نموت فنعذرا

فلما وفد على القيصر استقبله وأكرمه لما عرف من نسبه
وشرفه وأخبره امرؤ القيس بخبره وما جاء من أجله فأنجده

بجيش وقوّة ولـكن بنى اسـد ما انفكوا يراقبون حركاته وسكناته فلما علموا بوفوده على القيصر بعثوا رجلا منهم اسمه الطماح ليفسد عليه امره — وكان امرؤ القيس قتل أخا له — فجاء القسطنطينية مستخفيا فلما علم بما لاقاه من النجدة وشى به لدى بعض رجال الدولة واتهمه أنه هوى بنت القيصر وقال فيها اشعارا الى غير ذلك فيقال ان القيصر لما بلغه ذلك بعث الى امرئ القيس بحلة منسوجة بالذهب جعل فيها سما يتصل منها الى بدنه وقال له انى بعثت اليك بحلتى التى كنت ألبسها تكرمة لك فاذا وصلت اليك إلبسها باليمن والبركة واكتب الىّ بخبرك حيثما نزلت فلما وصلت اليه لبسها فتقطر بدنه وصار يحمل فى محفة ولذلك قال :

لقد طمح الطماح من بعد أرضه ليلبسنى من رأيه ما تلبسا
فبدلت قرحا داميا بعد صحة فيالك من نعمى تحولت أبؤسا

وما زال امرؤ القيس سائرا حتى وصل انقرا فى آسيا الصغرى فاشتد به المرض وعجز عن المسير فأقام هناك وقد أيقن بدنو الاجل ويقال إنه شاهد فى سفح جبل اسمه عسيب

بأنقرا قبرا لامرأة من بنات الملوك ماتت هناك ودفنت فيه فأنشد :

اجارتنا ان الخطوب تنوب وانى مقيم ما اقام عسيب
اجارتنا إنا غريبان ههنا وكل غريب للغريب نسيب
فان تصلينا فالقرابة بيننا وان تصرمينا فالقريب غريب

ثم مات ودفن هناك وعاد الجند الى القسطنطينية فلما بلغ السموأل خبر وفاته سلم الادرع والمال وكل ما خلفه امرؤ القيس الى عصبته وكانت وفاته سنة ٥٣٠ مسيحية وقيل سنة ٥٤٠ وبموته وبموت أبيه من قبل انهزمت بنو كندة وكان آخر العهد بهم

وكان امرؤ القيس حسن الصورة جميل الخلقة تزوّج مراراً ولكنه كان شديد الغيرة على بناته فاذا ولدت له ابنة وأدها فلما رأى ذلك نساؤه غيبن بناتهن فى أحياء العرب وبلغه ذلك فتتبعهنّ حتى قتلهنّ ولم يبق الا هند المتقدّم ذكرها وأما شعره فانه جمع الى فصاحة الجاهلية وبلاغتها رقة أهل الحضر . ولما ظهر الاسلام كان حديث امرىء القيس متداولا

فى أحياء العرب لقرب عهده منهم فلما سمع النبي صلى الله عليه وسلم بشعره قال : هو رجل مذكور فى الدنيا شريف فيها منسى فى الآخرة خامل فيها يجيء يوم القيامة ومعه لواء الشعراء الى النار . وكان مبتكرا فى الشعر له فيه الاختراعات الحسنة وقد مر ذكره عند التكلم على أصحاب المعلقات ومن شعره فى معلقته

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل وان كنت قد ازمعت صرمى فاجملى
أغرك منى ان حبك قاتلى وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وانك قسمت الفؤاد فنصفه قتيل ونصف فى حديد مكبل
فان تك قدساءتك منى خليقة فسلى ثيابى من ثيابك تنسل
وما ذرفت عيناك الا لتضربى بسهميك فى أجشاء قلب مقتل

ومن ملوك العرب المتفرقين أيضاً — عمرو بن لحى بن حارثة من ولد كهلان بن سبأ كان ملكا فى الحجاز شائع الذكر فى الجاهلية واليه تنسب خزاعه فيقال انها من سلالته. وكان جلوسه على سرير الملك سنة ٢٠٧ مسيحية وهو أول من أتى بالاصنام الى مكة من أرض الشام واقامها فى البيت الحرام

ودعا الناس الى تعظيمها والتقرب اليها والتوسل بها وكان ينكر بعث الاجسام وهو القائل :

حياة ثم موت ثم حشر   حديث خرافة يا أم عمرو

ومنهم أيضاً زهير بن حباب بن هبل قيل له الكاهن لصحة رأيه وهو من اهل اليمن واحد من اجتمعت عليه قضاعة وأطاعته غزا غزوات كثيرة وكان شجاعا سعيدا فى غزواته وفد على أبرهة الاشرم الحبشى فأكرمه وفضله على من أتاه من العرب وقلده امارة بنى بكر وتغلب ابنى وائل واستمر زهير اميرا عليهم حتى خرجوا عن طاعته فغزاهم وقتل فيهم وكانت جموع العرب تحارب معهم وجرى له مع المذكورين حروب يطول شرحها واخيرا انتصر عليهم وهزمهم وأسر كليبا ومهلهلا ابنى ربيعة وجماعة من فرسانهم ووجوههم وغزا ايضاً بنى غطفان حينما جعلوا لهم حرما مثل حرم مكة وولوا سدانته بنى مرة بن عوف وانتصر عليهم واسرهم واخذ فارساً منهم فى حرمهم فقتله وعطل ذلك الحرم

وقد عمر زهير عمرا طويلا فلما أسنّ استخلف ابن أخيه

عبدالله بن عليم لانه لم يكن له ولد فقال زهـير يوما الا ان الحى ظاعن فقال عبد الله ألا إن الحى مقيم فقال زهير من هنا المخالف عليّ فقالوا ابن أخيك فقال : اعدى المرء للمرء ابن أخيه وانشأ يقول :

الموت خير للفتى فليهلكن وفيه بقية
من ان يرى الشيخ الكبير اذا تهادى فى العشـية
من كل ما نال الفتى قد نلته الا التحية

وقال أيضاً :

لقد عمرت حتى ماأبالى اختفى فى صباح ام مساء
وحق لمن أتت مئتان عاما عايه ان يحل من الثواء

ثم شرب الخمر صرفا حتى مات

ومنهم كليب وائل بن ربيعة بن الحارث بن زهير كان سيد بنى ربيعة فكانوا لا ينزلون ولا يرحلون الابأمره وكان عزيزا مهيباً بينهم لا توقد نار مع ناره ولا ترد ابل مع ابله ولا يحتبي فى مجلسه ولا يتكلم الا ان يسأل وكان يلقى كلبا صغيرا فى اطراف مراعيه فاذا اقبل الرعاة وسمعوا صوته

تأخروا عنها وقالوا هذا كليب وائل فكثر استعمال ذلك حتى صار لقباله وكان مسكنه بتهامه ثم داخله زهو شديدو بغى على قومه فصار يحمى عليهم مواقع السحاب فلا يرعى فى حماه أحد ويقول وحش ارض كذا فى جوارى فلا يصاد وبقى كذلك الى أن رآى يوما بجوار ابله ناقة لرجل من بنى جرم اسمه سعد بن شمر فأنكرها ورماها بسهم أصاب ضرعها فوات حتى بركت بفناء صاحبها وضرعها يشخب دما ولبنا فلما رآها صاح فخرجت البسوس — بنت منقذ التميمية خالة جساس بن مرة وكانت جارة الجرمى — ونظرت الى الناقة فلما رأت ما بها ضربت يدها على رأسها ونادت واذلاه وانشأت تقول :

لعمرك لو اصبحت فى دار منقذ   لما ضيم سعد وهو جار لابياتى
ولكننى أصبحت فى دار غربة   متى يعد فيها الذئب يعد على شاتى
فياسعد لاتغرر بنفسك وارتحل   فانك فى قوم عن الجار اموات

فلما سمع جساس قولها اسكتها وصار يتربص لكليب حتى باغته يوما وقتله ورجع الى قومه وفرسه يركض تحته

وقد بدت ركبتاه فلما نظره أبوه مرة قال لقومه قد اتاكم جساس بداهية: ما رأيته قط بادي الركبتين الا اليوم ثم سأله عما فعل فقال طعنت طعنة يجتمع بنو وائل غدا لها رقصا. فسأله ومن طعنت لامك الثكل ؟ قال قتلت كليبا. قال بئس والله ما جئت به قومك ثم ان مرة دعا قومه الى نصرته فأجابوه وكان همام ولده الثاني ومهلهل اخو كليب في ذلك الوقت يشربان الخمر مع بعضهما فبعث مرة جارية من عنده تخبره الخبر سرا وتأمره بالحضور خوفا عليه من القتل فلما انتهت اليه الجارية أشارت اليه وأخبرته بما صار فسأله مهلهل عما قالت له الجارية — وكان بينهما عهد ان لا يكتم احدهما شيئاً عن الآخر — فذكر له الخبر فقال له مهلهل: إست اخيك اضيق من ذلك ولكن إشرب فاليوم خمر وغداً أمر. واقبلا على شرابهما فشربا فلما سكر مهلهل خاف همام منه وانصرف الى أهله وساروا الى جماعة قومهم من بني بكر وظهر أمر كليب فشقت النساء عليه الجيوب وخرجت الابكار وذوات الخدور من البيوت يندبنه وأخيرا اجتمع مهلهل على قومه من تغلب وشمر

جساس وجرت بين الفريقين عدة وقائع قتل فيها من الفريقين خلق كثير واستمر الحال على ذلك الى أن كان المهلهل راجعاً من اليمن الى ديار قومه وكان منفردا ليس معه أحد فلقيه عوف ابن مالك من البكريين وكان نازلا بنواحي مدينة يثرب فأخذه فمكث فى أسره ما شاء الله ومات . هكذا قيل : وقيل بل كان قد أسن وله عبدان يخدمانه فخرج بهما يريد سفرا حتى اذا نزل فى بعض الفلوات نام تحت ظل شجرة وكان العبدان ملاّ من خدمته ولطول بلائه لهما عزما على قتله وأحس بذلك مهلهل ولم يجد بدا من الخلاص فقال لهما اذا أتيتما الحى فقولا هذا البيت

من مبلغ الاقوام ان مهلهلا لله دركما ودر بيكما

فقتلاه ورجعا لحيه فسألهما أهله أين سيدكما قالا مات بأرض كذا فدفناه بها واديا الشعر الذى قاله لهما فقالوا ما هذا شعر مهلهل لانه لا معنى له وفكرت فيه بنت له تسمى سلمى فقالت والله ما كان أبى ردئ الشعر ولا سفساف الكلام وانما أراد به أن يخبركم ان العبدين قتلاه وهو يريد

من مبلغ الاقوام ان مهلهلا أضحى قتيلا فى الفلاة مجندلا
لله دركما ودر بيكما لن يبرح العبدان حتى يقتلا

فضربوا العبدين فأقرا بقتله فقتلوهما فيه وبذا انتهت الحرب بين بنى تغلب وبنى بكر المشهورة بحرب البسوس نسبة الى من كانت السبب فى اضطرامها بعد أن دامت بين القوم اربعين سنة من سنة ٤٩٠ لسنة ٥٣٠ مسيحية فكم من نفس بريئة قتلت ومن دماء سفكت ومن روح زهقت وقبائل ضعفت!! وما منشأ كل ذلك سوى الظلم والاسترسال فى البغى والغلو فى الانتقام ولكن قدر فكان

ومن ملوك العرب قيس بن زهير بن خزيمة العبسى كان من دهاة العرب وكان يقال له قيس الرأى لصحة رأيه ووفور حكمته استولى على ملك بن زهير بعد قتله فى بنى عامر حتى وقعت الحرب بين بنى عبس وفزارة بسبب سباق الخيل كما مر فى غير هذا الفصل فلحق ببنى النمر بن قاسط وكان قد افتقر وساءت حالته فاقام بينهم وتنصر وما زال عندهم الى أن مات . والى هنا نقتصر فى ذكر ملوك العرب فاننا لو

حاولنا ذكرهم جميعاً او ذكر كل القبائل القحطانية التي سكنت جزيرة العرب لما استطعنا لذلك سبيلا ويلزم لذلك مجلدات فالاقتصار أولى



﴿ الفصل الرابع ﴾

(طبقة العرب الباقية)



العرب المستعربة

أسباب مجيء اسماعيل عليه السلام الى مكة — مصاهرته لبني جرهم بن قحطان — عمارة البيت الحرام بمكة — أمراء الحجاز وولاية البيت وسدانة الكعبة — فضل قريش على من عداها واجتماع مناصب الشرف فيها — اغارة الحبشة على مكة — واقعة الفيل — ولادة النبي صلى الله عليه وسلم. رضاعه ونسبه ونشأته وتربيته وحالته وسيرته بين قومه لحين بعثته — مجمل أحوال العالم في ذلك العهد

اسباب مجيء اسماعيل عليه السلام الى مكة ومصاهرته لبني جرهم — روى ان ابراهيم عليه السلام استمر دهرا طويلا لا يولد له ولد فوهبت له زوجته سارة جارية لها اسمها هاجر وهبها اياها عزيز مصر حين وفد عليه ابراهيم

وزوجته فى خبر ليس هذا محل ذكره وقالت له حين وهبته إياها: انى حرمت من الولد فلعل الله ان يرزقك منها ولدا تقر به عينك. فأحبها ابراهيم لجمالها وعقلها ودينها فلما حملت باسماعيل وولدته أخذت سارة الغيرة وقالت لزوجها: ان الله تبارك وتعالى جعل صداقى عليك رضاى وطاعتى وأنا آمرك ان تحمل هذه الجارية وابنها الى بلد لا ماء فيه ولا زرع فتسكنهما فيه. قال افعل ذلك فأمر الله تعالى ابراهيم بالمسير الى مكة فساروا وانزلها هنالك والبيت يومئذ ربوة حمراء مشرفة على ما سواها ولم ينزل ابراهيم عن مطيته فنادته هاجر: يانبى الله إلى من تكلنا؟ قال الى الله تعالى واستودعكما إياه. فقالت له: آلله أمرك بهذا؟ قال نعم قالت: اذاً لا يضيعنا. فرجع ابراهيم الى الشام ولما ولى قال — كما ورد فى القرآن الكريم —: «رب إنى اسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون» ثم ان هاجر أقامت عريشة وكان معها وعاء فيه ماء فنفد الماء وعطشت هى وولدها عطشا شديدا وأخذت تتردد بين

الصفا والمروة مهرولة بين الميلين الاخضرين الموجودين للآن — والهرولة باقية للآن فى السعى من مناسك الحج تذكاراً لما حصل من هاجر فى ذلك الحين — ثم تضرعت الى الله تعالى فانفجرت لها عين زمزم فأخذا يشربان منها زمنا وكانت بنو جرهم — وهو الذى كان ولاه أبوه قحطان على الحجاز كما قدمنا — بواد قريب من مكة فلما شاهدوا الطير تحوم حول الوادى بعد ان كانت لا تأوى اليه قالوا ما لزمته إلا وفيه ماء فجاؤا الى اسماعيل وأمه فأخبرتهم بخبرها فقالوا لولا أن هذا الغلام كريم على الله تعالى ما نبع له الماء من هذا المكان واستأذنوا منها أن ينتقلوا بأهاليهم فيقيموا معها وان هذا الغلام متى اراد اخراجهم من هذا المحل خرجوا منه واشترطوا له عليهم المواساة فى أموالهم ورئاسته عليهم عند ادراكه فانتقلوا جميعا وابتنوا المنازل والبيوت ونشأ اسماعيل مع أولادهم وكانت لغتهم العربية الصحيحة — وهى لغة أولاد بنى معد التى نزل بها القرآن الشريف — فتعلمها منهم ثم لما بلغ الاربعين بعث الى العماليق وجرهم وقبائل اليمن وكانوا يعبدون الاوثان فآمن بعضهم ..

وذهب كثير من العلماء الى أن اسماعيل عليه السلام هو الذبيح وان ذلك كان فى شعب من مكة وأنه فدى بكبش وذهب آخرون الى أن الذبيح كان اسحاق .

وقد صاهر اسماعيل بنى جرهم وولد له من رعلة بنت مضاض اثنا عشر ذكراً وبنت ومات بمكة ودفن ما بين الميزاب والحجر الى جنب قبر أمه هاجر

عمارة البيت الحرام بمكة — كان ابراهيم يزور ولده اسماعيل عليهما السلام من وقت لآخر ولما زاره آخر مرة أمره الله تعالى ببناء البيت الحرام وأرسل له السكينة — وهى ريح خجوج — فسار معها ابراهيم حتى انتهت الى موضع البيت فبنى ابراهيم وساعده اسماعيل وكانا كلما بنيا دعوا الله « ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم » فلما ارتفع البنيان وضعف ابراهيم عن رفع الحجارة قام على حجر وهو مقام ابراهيم ولما فرغ من بناء البيت أمره الله تعالى بالآذان كما ورد فى قوله تعالى : وأذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل

ضامر يأتين من كل فج عميق . وانصرف ابراهيم الى الشام ومات هناك

أمراء الحجاز وولاية البيت وسدانة الكعبة وفضل قريش على من عداها واجتماع مناصب الشرف فيها — اختلف المؤرخون فى أمر الملك على الحجاز بين جرهم وبنى اسماعيل فمن قائل ان الملك كان فى جرهم ومفتاح الكعبة وسدانتها مع بنى اسماعيل ومن قائل ان قيدار — أحد اولاد اسماعيل الاثنى عشر — توجته اخواله جرهم وملكوه عليهم بالحجاز. وقد كانت سدانة البيت الحرام ومفاتيحه فى بنى اسماعيل بلا خلاف حتى انتهى ذلك الى نابت من ولد اسماعيل فتغلب عليه بنو جرهم وأخذوها منه وبقيت فيهم حتى بغوا واستحلوا حرمة البيت وظلموا من دخل مكة من الحجاج وغيرهم وظهر فيهم الزنا والفساد فسلط الله عليهم الرعاف وأضعفهم. ثم اجتمعت خزاعة لما خرجت من اليمن ونزلت بمكة وأخرجت جرهما من الحرم وبقيت ولاية البيت وسدانة الكعبة فى خزاعة الى أن أخذها منها قصى — الجد الخامس للنبى صلى الله عليه وسلم — وبعد أن

صار فى يد قصى ولاية البيت ومفتاح الكعبة جمع قبائل قريش وكانت متفرقة فى البوادى وأسكنها الحرم وكانت تدعى قبل التجميع النضر بن كنانة وسماها قريشاً من التقريش وهو التجميع وقال بعضهم انما سميت قريشا لدابة فى البحر هى أعظم دوابه خطرا لا تظفر بشىء من دواب البحر إلا أكلته فسميت قريش بهذا الاسم لانها كانت أعظم العرب بمكة وقال بعضهم أيضاً ان هذا الاسم مأخوذ من التجارة لمعاطاة أهل قريش التجارة زمن الجاهلية .

وأول دار بنيت بمكة دار الندوة وتسمى دار المنتدى بناها قصى لتكون مجلس القوم نهارا يجتمعون فيها للمشاورة فى الامور المهمة وهو الذى بنى المسجد الحرام بجبل المزدلفة وكان يسرج عليه أيام الحج فسماه الله مشعرا وأمر بالوقوف عنده وتنتهى قبائل قريش الى فهر بن مالك . وكان قصى يعشر من دخل مكة من غير أهلها فاجتمع لقريش فى ذلك الوقت الرئاسة على قومهم وأطاعتهم العرب واجتمع لهم ما لم يجتمع لغيرهم من مناصب الشرف فى ذلك الوقت وهى الحجابة

والسقاية والرفادة والندوة واللواء والقيادة: فالحجابة هي سدانة البيت الشريف أي تولية مفتاح بيت الله . والسقاية اسقاء الحجيج كلهم الماء العذب وكان نادرا بمكة يجلب اليها من الخارج لسقاية الحاج . وأما الرفادة فهي اطعام سائر الحجاج فكانت تمد لهم الاسمطة في أيام الحج. وأما الندوة فهي الشورة فكان يجتمع فيها من قريش ومن غيرهم من العرب وأهل الرئاسة من بلغ من العمر أربعين سنة فما فوق ولا يعقد عقد نكاح من قريش الا بها . أما اللواء فراية معقودة على رمح ينصبونه علامة على اجتماع الجيش لحرب الاعداء فيجتمعون تحت هذه الراية ويقاتلون عندها . والقيادة امارة الجيش ورئاسة الحرب

فكانت هذه هي مناصب الشرف في الجاهلية وانتهت الى عشرة أبطن من قريش وكلهم من أولاد قصي الذي أسس وحدتهم وجمعهم وأوجد لهم هذه الوظائف وبقيت لهم في الاسلام كذلك والعشرة ابطن هم: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم

ولما كبر قصي وكان ابنه عبد مناف ساد قومه وانتهت اليه الرئاسة فى حياة أبيه شكا اليه عبد الدار ولده الثانى ضعفه فى قومه فاعطاه دار الندوة وحجابة الكعبة واللواء والسقاية والرفادة. أما اللواء فبقى فى بنيه إلى أن جاء الاسلام فأبطله وأما الرفادة والسقاية فان بنى هاشم وبنى عبد شمس وبنى المطلب وبنى نوفل أولاد عبد مناف أجمعوا على أخذهما من بنى عبد الدار لشرفهم عليهم فتفرقت قريش مع الفريقين فكان بنو زهرة وبنو أسد وبنو تيم وبنو الحرث مع عبد مناف وكان بنو سهم وبنو جمح وبنو مخزوم وبنو عدى مع بنى عبد الدار وتحالف كل فريق مع حزبه وتهيأوا للقتال ثم انتهوا الى الصلح على أن يكون السقاية والرفادة لبنى عبد مناف فكانتا بعده فى هاشم ابنه ثم للمطلب أخيه ثم لابى طالب ثم أعطاهما لاخيه العباس واما دار الندوة فبقيت لعبد الدار وولده من بعده حتى جعلت دار الامارة بمكة ثم دخلت الحرم فيما بعد وأما الحجابة فبقيت فى بنى عبد الدار الى الآن وهم بنو شيبة بن عثمان بن أبى طلحة بن عبد العزيز بن عثمان بن

عبد الدار — ويقولون أن أوّل عداوة بين أمية بن عبد شمس وبين أخيه هاشم هو انه لما كان لهاشم السقاية والرفادة حسده اخوه المذكور على سيادته واطعام الطعام ونافره فتحاكما الى الكاهن الخزاعى بعسفان على خمسين ناقة والجلاء عن مكة عشر سنين فقضى الكاهن لهاشم فأخذ الابل ونحرها وأطعمها الناس ورحل أمية الى الشام عشر سنين فكانت اول عداوة بينهما

ولنقتصر هنا أيضاً على ما ذكرنا من قريش وبطونها اذ لا يسعنا مهما طولنا أن نأتى على ذكر كل القبائل العدنانية فعدها يجل عن الحصر والاقتصار على ما أوردنا أولى

اغارة الحبشة على مكة وواقعة الفيل — سبق لنا عند ذكر تغلب الحبشة على القوم بأن ابرهة الاشرم ملك الحبشة اغار على مكة المشرفة يريد هدم الكعبة وكان بنى كنيسة بصنعاء اليمن لما كان مستولياً عليها واراد ان يصرف اليها الحاج فخرج رجل من بنى كنانة فقعد فيها ليلا وقضى حاجته بها فأغاظه ذلك وحلف ليهدمنّ الكعبة فخرج ومعه جيش

عظيم وفيله المشهور واثنا عشر فيلا غيره فلما قرب من مكة خرج لهم أبو رغال الملعون وهو من عرب قريش ليخون وطنه ويدل أعداءه على طريقة الدخول لمكة فكان هو أول من مات وأول من خان من العرب ولذلك رجمت العرب قبره كما يرجمه للآن كل الحجاج حتى صار ذلك من مناسك الحج . فانظر بأى عين كان العرب ينظرون الى رذيلة الخيانة التى تأباها طباعهم ! وفى رمى الجمار هذا اشارة خالدة الى الابد لهذه الخيانة عبرة لمن يعتبر! ثم ان أبرهة لما اشرف على مكة شن الغارة على اطرافها كما هي العادة فساقت خيل له مائتين بعيرا لعبد المطلب — جد النبي صلى الله عليه وسلم — وكان هو الامير وقتها فهم اهل الحرم لقتاله ثم عرفوا انهم لا طاقة لهم به فتركوه وبعث أبرهة إلى أهل مكة يقول لهم: إني لم آت لحربكم وانما جئت لهدم هذا البيت فان لم تتعرضوا دونه بحرب فلا حاجة لي بدمائكم. فقال عبد المطلب لسفيره: والله لا نريد حربه وما لنا به من حاجة هذا بيت الله وبيت خليله ابراهيم صلى الله عليه وسلم فهو يحميه ممن يريد هدمه.

ثم خرج عبد المطلب الى ابرهة وكان عبد المطلب جسيما وسيما جليلا ما رآه أحد الا أحبه وكان مجاب الدعوة فقيل لابرهة هذا سيد قريش الذى يطعم الناس فى السهل ويطعم الوحش والطير فى رؤس الجبال. فلما رآه احبه واجلسه معه على سريره ثم قال لترجمانه قل له سل حاجتك فقال: حاجتى أن يرد الملك على إبلى. قال له أبرهة: قد كنت اعجبتنى حين رأيتك ثم زهدت فيك حين كلمتنى! أتكلمنى فى مائتى بعير وتترك بيتا هو دينك ودين آبائك قد جئت لهدمه فلم تكلمنى فيه؟! فقال عبد المطلب إنى انا رب الابل اما البيت فله رب يحميه. فرد أبرهة على عبد المطلب ابله ثم انصرف الى قريش فأخبرهم الخبر وامرهم بالخروج من مكة الى الجبال ثم قام فأخذ بحلقة باب الكعبة ودعا الله تعالى قائلا:

لاهم ان العبد يمنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك
لا يغلبن صليبهم ومحالهم ابدا محالك
ولئن فعلت فانه أمر تتم به فعالك

أنت الذى ان جاء با غ نرتجيك له فذلك
لم أستمع يوما بأر جس منهم يبغو قتالك
جروا جموع بلادهم والفيل كى يسبوا عيالك
عمدوا حمالك بكيدهم جهلا وما رقبوا اجلالك
ان كنت تاركهم وكعـ بتنا فأمر ما بدا لك

ثم ارسل حلقة الباب وانطلق هو ومن معه من قريش الى الجبال ينظرون ما أبرهـة فاعل بمكة اذا دخلها . فحينئذ جاء برهان الله سبحانه وتعالى وحقت كلمته وبينما شمر أبرهة لدخول مكة وهدم البيت وقدم فيله محمود (١) امام جيشـه إذ فجأهم ما قص الله تعالى فى سورة الفيل من ارسـاله الطير الابابيل عليهم ترميهم بحجارة من سجيل فجعلهم كعصف مأكول وتساقطوا بكل طريق وهلـكوا على كل نهل وأصيب أبرهة حتى تساقط انامله انملة انملة وقدموا به صنعاء وهو مثل فرخ الطائر فما مات حتى انصدع قلبه عن صدره

(١) نوع من الفيلة عظيم الخلقة انقرض الآن اسمه بالافرنكية Mamoth وحرفته العرب الى محمود

وفى هذه السنة — أى سنة الفيل — ولد النبي صلى الله عليه وسلم كما سيجيء ان شاء الله تعالى . قال بعض العلماء ان مرض الجدرى كان أول ظهوره بين العرب فى جيش أبرهة هذا ولعل قول الله فى التنزيل اشارة الى هذا المرض كما ظنه بعضهم والله أعلم

مولده صلى الله عليه وسلم ونسبه ورضاعه ونشأته وتربيته وحالته وسيرته حين بعثته — ولد عليه الصلاة والسلام حين طلوع فجر يوم الاثنين ٢٠ ابريل سنة ٥٧١ مسيحية وهو تاسع ربيع الاول من عام الفيل السالف ذكره من أبوين كريمي العنصر عظيمي الجاه: فهو محمد بن عبد الله بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف بن قصى بن حكيم الملقب بكلاب بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب بن فهر بن مالك بن النضر بن كنانة بن خزيمة بن مدركة بن الياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان ونسبه الى عدنان متفق عليه بلا خلاف انما الخلاف فى عدة الآباء الذين بين عدنان واسماعيل أما أمه فهى آمنة بنت وهب بن عبد مناف بن زهره بن حكيم

بن مرة تجتمع مع عبد الله أبيه فى حكيم بن مرة . فعبد الله من قصى بن حكيم وآمنة من زهرة بن حكيم

وكان مولده عليه الصلاة والســلام بمكان بمكة يسمى الشعب فى الدار التى كانت لمحمد بن يوسف أخى الحجاج ولما ولد سمى محمدا رجاء ان يحمد ولم يكن هذا الاسم شائعاً بين العرب بل الهاميا

وقد اصطفاه الله من اطهر العشائر وأطيب الاعراق متنقلا من أصلاب اشراف الرجال الى ارحام شريفات النساء بعقد النكاح ولم يصبه شئ من سفاح الجاهلية وكان أبوه قد مات قبل مولده بشهور غير تارك له شيئاً يذكر من المـال والغنم وبركة الحبشية المـكنية بأم أيمن ثم توفيت أمه وعمره ست سنوات فكفله جده عبد المطلب ثم مات عنده وعمره ثمانى سنوات من بعد أن أوصى به الى عمه أبى طالب فأحسن أبو طالب كفالته وعزز وصايته واحبه حبا شديدا حتى كان لا ينام إلا إلى جانبه ولا يخرج الا معه اما رضاعه صلى الله عليه وسلم فكان على عادة العرب بان يرضعوا المولود من غير

أمه لاعتقادهم ان ذلك ادعى الى نجابة الرضيع — وهذه العادة باقية ولكن لا لهذا الغرض بل للرفاهة والراحة من عناء الرضاع — وقد عرض على كثير من نساء العرب فى أول الامر لارضاعه فأبين قائلات: ماذا عسى أن يكون من أمه وجده الينا : انما يكون الاحسان من الاب ؟ فاخذته حليمة السعدية بنت أبى ذؤيب ومضت به الى بلادها عند سعد فأقامت به أربع سنوات ثم عادت به الى مكة

وكان الرسول عليه السلام فى مدة كفالة عمه مثال القناعة والبعد عن السفاسف التى تشتغل بها الاطفال عادة كما روت ذلك أم أيمن حاضنته فكان اذا اقبل وقت الاكل جاء الاولاد يختطفون وهو قانع بما يسره الله له . ولما بلغ أثنتى عشر سنة سافر به عمه الى الشام فى تجارة فرآه راهب من الاحبار يقال له بحيرا فتفرس فيه شأنا عظيما فى المستقبل وقال لابى طالب : أنه لنبى كريم وانى لاظنه الذى بشر به عيسى عليه السلام فى انجيله بلفظ « فارقليط أو بار قليطس » — التى معناها محمود لا المعزي كما يقولون —

فان زمانه قد قرب . كما انبأ عن ذلك دانيال فى نبوته (١) وينبغى ان يتحفظ عليه خشية ان يقتله اليهود. فرده أبو طالب الى مكة . وكان النبي عليه السلام وهو صغير يرعى الغنم لاهلها على قراريط كما ذكر ذلك البخارى فى صحيحه ولعمر الحق ما فى ذلك من عار عليه فانه إن يرع غنما فقد رعاها الانبياء من قبله وهذه من أبلغ الحكم لتربية النفس فان الانسان اذا استرعى الغنم وهى اضعف البهائم سكن قلبه الرأفة واللطف فاذا انتقل من ذلك الى رعاية الخلق كان قد هذب أولا من

(١) جاء فى الاصحاح الثانى عشر لدانيال « طوبى لمن ينتظر ويبلغ الى الالف والثلثمائة والخمسة وثلاثين يوماً » وقد أخبرنى من يوثق بقوله ان فى هذه الجملة غلطا فى الترجمة اذ فى الاصل العبرانى ما يفيد « طوبى لمن ينتظر ويبلغ الي ايام الالف والثلثمائة والخمسة والثلاثين » أى الى أيام سنة ألف وثلثمائة وخمسة وثلاثين وهى المدة التى بين دانيال وظهور النبى عليه السلام وقد كان لهذا الامر مباحث طويلة بين من أخبرنى والقسيس الشهير اسحق تيلر الذى لايزال موجودا حيا وعرض هذه المسئلة على ما سمعت على جمعية تصحيح تراجم الكتب المقدسة بلوندره

الحدة الطبيعية والظلم الغزيرى فيكون فى اعدل الاحوال ثم لما شب عليه الصلاة والسلام تعاطى التجارة ولم يتعلم علما ولا سحرا ولم يشتغل بشئ من ذلك ولا بشعر ولا اجتمع على أحد من الحكماء فى صغره ليقال إنه تلقى عنه ما دعى الناس اليه من التوحيد كما يزعمه المكابرون من غير أهل الاسلام: فهو أمى ربى كما يربى غيره من أبناء قومه اليتامى الفقراء يدلك على ذلك اطباق الامم على اختلاف اديانهم وأوطانهم ولغاتهم على انه امى وعدم اتهام قريش له بقراءة كتاب أو حفظ تاريخ ولم يسمع ذلك عنهم مع أنه تعرض لتسفيه احلامهم وتزييف عباداتهم وتقبيح عوائدهم ودفعهم عن معبوداتهم الباطلة باشد ما يكون من التقريع والتوبيخ ولم يتجرأ واحد منهم على نسبة ما يقوله لكتاب أو لمعلم غاية ما قالوه بعد انتشار دعوته ان سالمان الفارسى يعلمه مع انه ما صحبه الا بعد الدعوة بكثير على انه كان فارسى العبارة لا يحسن العربية والنبى لم يتعلم الفارسية حتى يحسن الاخذ عنه قال الله تعالى: «لسان الذى يلحدون اليه اعجمى وهذا لسان عربى مبين» وما أخرهم عن

نسبته الى معلمين إلا علمهم بأنه تربى بين ايديهم لم يخط بقلم ولا قرأ فى كتاب ولا صحب كاهنا ولا حبرا ولا عالما بالسير والاخبار. وكان أكثر مايقولون انه ساحر او كذاب وهذان وصفان لا يستلزمان سبق تعلم قراءة او كتابة ولطالما وقع لهم معه وقائع تستدعى الكتابة فكان يستدعى غيره ليكتب ولم يقل له احدهم اكتب بيدك فانك متعلم لست بأمى. وحينما بلغ العشرين من العمر وكلت اليه خديجة بنت خويلد الشخوص الى الشام فى تجارة لها مع غلامها ميسرة وكانت من شريفات العرب موصوفة بالعقل والحزم والثروة فقبل وسافر وربح ولما قدم مكة أخبرها ميسرة بما حققه فيه من الامانة ويمن الطالع فعرضت عليه ان يتزوّجها فاجابها صلى الله عليه وسلم وعرض امرها على اعمامه فقبلوا وذهب معه حمزة بن عبد المطلب عمه حتى دخل على عمها عمرو بن اسد. وخطبها منه فقبل واجتمع اعمامه صلى الله عليه وسلم وسائر مضر وعقدوا له عليها وكان عمره اذ ذاك خمسا وعشرين سنة وهى فى الاربعين من العمر ورزقه الله كل أولاده منها الا ولده ابراهيم فانه

من مارية القبطية التى بعث بها اليه المقوقس نائب مصر ثم توفيت خديجة قبل هجرته بثلاث سنين

وقد شهد النبي صلى الله عليه وسلم حربا يقال لها حرب الفجار وهى حرب كانت بين كنانة ومعها قريش وبين قيس وليس هذا محل ذكر أسبابها ولا ذكر تفصيلاتها وكان عمره أربع عشرة سنة وكان اذا حضر صلى الله عليه وسلم غلبت كنانة واذا لم يحضر انهزمت: قال صلى الله عليه وسلم فى حرب الفجار « حضرته مع عمومتى ورميت فيه بأسهم وما أحب انى لم أكن فعلت »

وعند منصرف قريش من حرب الفجار فى شوال عقد حلف الفضول وهو أشرف حلف فى العرب وأحق بالفخار مما عداها من المحالفات التى كانت العرب تعقدها فيما بينهم للتناصر ولتعضيد بعضهم ضد آخرين . وكان حلف الفضول لشرف موضوعه ونيل الغرض المقصود منه يكاد أن يكون أساساً لسياسة وطنية وتمهيدا للمواد التمدنية وأول من دعا الى هذا الحلف فى شهر ذى القعدة بعد الفجار الزبير بن عبد

المطلب — عم رسول الله صلى الله عليه وسلم شقيق أبيه — فاجتمع اليه بنو هاشم وزهرة وبنو أسـد بن عبد العزى فى دار عبد الله بن جدعان التيمى من وجوه قريش وتحالفوا على أن يردوا الفضول الى أهلها أى على أن يردوا الحقوق التى أخذت ظلما الى اربابها وان يكونوا يدا واحدة مع المظلوم على الظالم حتى يؤدى اليه حقه شريفاً كان أو ضعيفاً وكان معهم فى ذلك الحلف رسول الله صلى الله عليه وسلم فقد قال : « لقد شهدت فى دار عبد الله بن جدعان حلفا ما أحب أن لى به حمر النعم ولو دعى به فى الاسلام لاجبت » أى لو قال قائل من المظلومين يا آل حلف الفضول لاجبت لان نصر المظلوم حق والاسلام انما جاء لاقامة الحق . فانظر هذه المكرمة التى اتخذها العرب أيام الجاهلية وهم سكان جبال وقفار ما قرؤا كتابا ولا عرفوا مدنية ولا خالطوا أمماً مهذبة . وهل يوجد فى الجمعيات الانسانية التى تفتخر بها أوروبا الآن جمعية مثل هذه التى تأخذ للمظلوم من الظالم وتحفظ الحقوق لاهلها وتكف يد الاستبداد عن كل ذى روح ؟! كل جمعية انسانية بعد هذه لا تساويها فى

الدرجة كيفما علت مراتبها وشرفت مقاصدها ولو وجدت جمعيات كهذه الآن لابادت خلقا كثيرا !!! وحدث أنه لما بلغ صلى الله عليه وسلم نحو الخامسة والثلاثين من عمره جاء سيل جارف صدع جدران الكعبة بعد توهينها من حريق كان أصابها من قبل فارادت قريش هدمها ليرفعوها ويسقفوها فاجتمعت قبائلهم لذلك ولكنهم هابوا هدمها لمكانها فى قلوبهم فقال لهم الوليد بن المغيرة: هل تريدون بهدمها الاصلاح أم الاساءة؟ قالوا بل الاصلاح. قال ان الله لا يهلك المصلحين. وابتدأ بالهدم فتبعوه. وهدموا حتى وصلوا الى أساس اسماعيل عليه السلام ثم ابتدؤا فى البناء وأعدوا لذلك نفقة ليس فيها مهر بغى ولا بيع ربا وجعل الأشراف من قريش يحملون الحجارة على أعناقهم وكان العباس ورسول الله فيمن يحمل ولما أرادوا وضع الحجر الاسود اختلفوا فيمن يضعه وتناقشوا فى ذلك حتى كادت تشب بينهم نار الحرب ودام بينهم هذا الخصام أربع ليال وكان أسن رجل من قريش اذ ذاك أبو أمية بن المغيرة فقال لهم: ياقوم لا تختلفوا وحكموا بينكم من

ترضون بحكمه. فقالوا نكل الامر لاول داخل. فكان هذا الداخل هو النبي صلى الله عليه وسلم فاطمأن الجميع له لما يعهدونه فيه من الامانة وقالوا: هذا الامين رضيناه. فلما أخبروه الخبر بسط رداءه وقال: لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب. ثم وضع فيه الحجر وأمرهم برفعه حتى انتهوا الى موضعه فاخذه ووضعه فيه وهكذا انتهت هذه المشكلة التي كثيرا ما كان أمثالها سببا فى انتشاب حروب هائلة بين العرب. ولا يستغرب من قريش تنافسهم هذا لان البيت قبلة العرب وكعبتهم التى يحجون اليها وهو أول بيت وضع للناس بشهادة القرآن الكريم قال الله تعالى: « ان اول بيت وضع للناس للذى ببكة مباركا وهدى للعالمين: فيه آيات بينات مقام ابراهيم ومن دخله كان آمنا »

سيرته فى قومه قبل بعثته — كان عليه الصلاة والسلام أحسن قومه خلقا وأصدقهم رأياً وحديثاً وأرجحهم عقلا دائم البشر مديم الصمت لين الجانب قليل اللغو بعيدا عن الفحش والاخلاق التى تدنس الرجال عظيم الامانة حتى سموه

الامين وشهد له ألد أعدائه النضر بن الحارث حيث يقول — والفضل ماشهدت به الاعداء —: قد كان محمد فيكم غلاما حدثا أرضا كم فيكم وأصدقكم حديثاً وأعظمكم أمانة حتى إذا رأيتم فى صدغيه الشيب وجاءكم بما جاءكم قلتم ساحر! لا والله ماهو بساحر . ولما سأل هرقل ملك الروم أبا سفيان قائلا : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل ان يقول ما قال؟. قال لا: فقال هرقل ما كان ليدع الكذب على الناس ويكذب على الله .

وقد حفظه الله فى صغره من كل أعمال الجاهلية التى جاء شرعه الشريف بضدها وبغضت اليه الاوثان بغضاً شديداً حتى ما كان يحضر لها احتفالا أو عيدا مما يقوم به عبادها قال عليه السلام: «لما نشأت بغضت الىّ الاوثان وبغض الىّ الشعر ولم أهم بشئ مما كانت الجاهلية تفعله إلا مرتين كل ذلك يحول الله بينى وبين ما أريد من ذلك ثم ما هممت بسوء بعدهما حتى أكرمنى الله برسالته: قلت ليلة لغلام كان يرعى معى لوأبصرت لى غنمى حتى أدخل مكة فاسمر كما يسمر الشباب فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة أسمع عزفا بالدفوف

والمزامير لعرس بعضهم فجلست لذلك فضرب الله على أذنى فنمت فما أيقظنى الامس الشمس ولم أقض شيئاً ثم عرانى مرة أخرى مثل ذلك » وكان عليه السـلام لا يأكل ما ذبح على النصب وحرم شرب الخمر على نفســه مع شيوعه فى قومه شيوعا عظيما وعاش فى قومه أربعين سنة قبل ان يرسله الله تعالى ما ضبطوا عليه كذبة ولا رأوه وقع فى مكروه ولا تلبس بمعصية ولا تعدّى على أحد ولا تعرض لجار ولا طمع فى مال ولا تطلع لجاه ولا زاحمهم فى نادى لهو ولعب ولا شاركهم فى شئ من عوائدهم ولا بخل بعطاء ولا حكم بغير حق ولا أثار فتنة ولا وشى بأحد ولا نم على أحد ولا أفسد بين اثنين وذلك كله من الصفات التى يحلى الله بها أنبياءه ليكونوا على تمام الاستعداد لتلقى وحيه فهم معصومون من الادناس قبل النبوة وبعدها : أما قبل النبوّة فليتأهلوا الامر العظيم الذى سيسند اليهم. وأما بعدها فليكونوا قدوة لاممهم. وقبل أن يبلغ الاربعين من العمر كان يختلى بغار حراء فى كل سـنة شهرا فيتعبد فيه الليالى ذوات العدد فلما كمل له أربعون سنة أتاه

الله الوحى على رأسها كما سيجئ . وكان يعبد الله تعالى على دين آبائه وهو دين ابراهيم عليه السلام ولا يعترض على ذلك بما يأخذه بعض السذجة من ظاهر قوله تعالى: «ووجدك ضالا فهدى» فانه ليس المقصود من ذلك الضلال عن التوحيد أو فى العبادة (١) ولم يكن دنيويا عبدا لشهواته كما يرميه بعض متعصبى الفرنج فمن الثابت أنه قضى جل عمره الى ما بعد بعثته بدون أن يتزوج بغير خديجة ولا يقال ان الرجل بعد أن يشيب ويسن يميل الى الشهوات والنساء أكثر مما كان شابا قويا ! بل لا بد لزواجه بغير خديجة بعد بعثته من حكم لا تفوت على كل منصف غير ذى غرض . كما انه كان يأكل من شغله ونتيجة عمله لا من مال زوجته اذ لم يرمه بذلك أحد مطلقاً من قومه وخصومه الذين ربى فيهم ونشأ بينهم ولو علم أهل مكة أن خديجة كانت تنفق عليه وتطعمه لعيروه بذلك وعدوه من دواعى احتقاره وعدم اعتباره

(١) انظر تفسير هذه الآية الشريفة فى تفسير جزء عم الذى طبعه حديثاً فضيلة الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية حالاً .

لان الركون الى ثروة المرأة لم يكن مألوفا عند العرب كماهو مألوف عند الاوروباويين الآن ولم يسمع من أهل مكة قول فى هذه القضية فهو ولا شك زعم باطل اذ من المعلوم أنه بنى امره على الزهد والاقتصاد وعدم التوسع فى المعيشة فلذلك كان يقنع بميسور العيش وما زاد عن نفقته ينفقه ولا يتركه يبيت عنه ومن كانت هذه صفته كان أبعد الناس عن التطلع لمال الغير والطمع فيما بأيدى الناس من النعمة وسيان عنده أيسرت زوجته أو أعسرت. الا ترى انه اخذ زوجات بعدها كان ينفق عليهن وليس لاحداهن شئ يذكر من المال والمتاع؟ فهو فى نزاهة نفس وغنى قلب لا يذكر فى جانبه احتياجه لمثر او لمثرية. وفى ما تقدم من القول وما قال سفيان والنضر بن الحارث ما فيه الكفاية

مجمل أحوال العالم فى ذلك العهد — كانت الامة العربية كما سبق القول قبائل متخاذلة فى النزعات خاضعة للشهوات تفخر كل قبيلة فى قتال أختها وسفك دماء ابطالها وسبى نسائها وسلب اموالها تسوقها المطامع الى المعامع وتزين

لهم السيآت فساد الاعتقادات وكانت تمنعها انفتها وعزتها من ان تطأطئ لرئيس او تخضع لاحد وقد دخل جزيرة العرب كل الاديان من نصرانية ويهودية ومجوسية وزندقة ووثنية فزادت فى التفرقة والتنافر والوحشة بينهم. وبلغ العرب من الجهالة حداً صنعوا اصنامهم من الحلوى ثم عبدوها فلما جاعوا أكلوها. وبلغوا من تضعضع الاخلاق وهنا قتلوا فيه بناتهم تخلصاً من عار حياتهن او تنصلا من نفقات معيشتهن. وبلغ التوحش منهم مبلغاً لم يعد معه للعفاف قيمة وبالجملة كانت ربط النظام الاجتماعى قد تراخت عقدها فى كل أمة وانفصمت عراها عند كل طائفة وعات الشحناء بين كل فريق وآخر وظهر الفساد بين العباد وزاد الشرك بالله الواحد القهار حتى صار فى الكعبة نحو الثلثمائة وستين صنما يعبده العرب أفلم يكن من رحمة الله بأولئك الاقوام أن يؤدبهم برجل منهم يوحى اليه رسالته ويمنحه عنايته ويمده من القوة بما يتمكن معه من كشف تلك الغمم التى أظلت رؤس جميع الامم؟

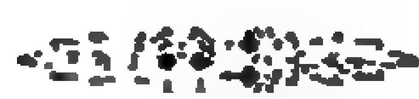
ولم يكن احتياج العرب لذلك المؤدب والمهذب والهادى

بأعظم من احتياج باقى البلاد لنفس ذلك فقد كان العالم أجمع محتاجا للاصلاح وتقويم اعوجاجه وتعديل مزاجه إذ كانت دولتا العالم — دولة الفرس فى الشرق ودولة الرومان فى الغرب — فى تنازع وتجالد مستمر : دماء بين العالمين مسفوكة وقوى منهوكة واموال هالكة وكانت همة الاهالى قد سئمت من كثرة جور كل من الدولتين على الرعايا وعسفهم الفاحش الذى لم تقف عند حد فزادتا الضرائب زيادة لا تطاق حتى أثقلت الظهور وكلت همة الاهالى منها وانحصر سلطان القوى فى اختطاف ما بيد الضعيف وفكر العاقل فى الاحتيال لسلب الغافل وتبع ذلك انه استولى على تلك الشعوب ضروب من الفقر والذلة والاستكانة والخوف والاضطراب لفقد الامن على الارواح والاموال بينما زاد رؤساؤهم انهماكا على اللذات والشهوات والفسق والعصيان . غمرت مشيئة الرؤساء ارادة من دونهم فعاد هؤلاء كاشباح اللاعب يديرها من وراء حجاب ففقد بذلك الاستقلال الشخصى وظن افراد الرعايا أنهم لم يخلقوا الا لخدمة ساداتهم وتوفير لذاتهم هو كما الشأن فى

العجماوات مع من يقتنيها . ضلت السادات فى عقائدها
وغلبتها على الحق والعدل شهواتها وساد الجهل وعميت البصائر
وبعد الكل عن الصراط المستقيم وزاد العيث وعم الفساد
وبالجملة فقد كانوا جميعاً
عموا عن الخير واعتادت نفوسهم فعل القبيح وظنوا أنه حسن

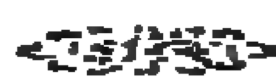
وأضف الى ذلك ما كانت عليه إذ ذاك دولة الروم من الاختلاف فى الدين وتشعب الملة العيسوية الى الفرق المختلفة فى العقيدة المتعادية أشد العداوة حتى كان كل فريق يحاول أن يسود مذهبه على ماعداه فزادت الفتن واشتدت الاحن وعم الاضطراب والاضطهاد وسالت الدماء باسم الدين المتبرء مما يعملون : هذه حالة الاقوام كانت فى معارفهم ومعتقداتهم وذلك كان شأنهم فى معايشهم : عبيد أذلاء حيارى فى جهالة عمياء . أفلم يكن من رحمة الله وعدالته بأولئك الاقوام كذلك ان يهديهم الى الصراط المستقيم ويخرجهم من الظلمات الى النور وينقذهم من الذل والاستعباد وينجى العالم اجمع من الشر الذى تولاه بنبى يرسله هدى ورحمة للعالمين ؟

نعم كان ذلك له الحمد وله الشكر على ما أنعم وتفضل وأرسل محمدا نبياً للعالم كافة لا كما يزعمه الجاهل بنص الكتاب من أنه لم يرسل الا للعرب خاصة



﴿ الباب الثانى ﴾

(فى العرب بعد الاسلام)



الفصل الاول

الوحى — ابتداء النبوة والرسالة والدعوة للاسلام — أذى قريش للنبي ولاصحابه — الهجرة للحبشة — اشتداد الاذى به صلى الله عليه وسلم وأصحابه — الهجرة للمدينة — الانصار والمهاجرون — غزواته عليه الصلاة والسلام — دعوته الملوك والامراء للاسلام — حجة الوداع — خطبته الاخيرة — وفاته صلى الله عليه وسلم — سيرته بعد الرسالة

الوحى وابتداء النبوة والرسالة والدعوة للاسلام

قلنا فى الباب السابق ان النبي صلى الله عليه وسلم كان قبل ان يبلغ الاربعين من العمر يختلى بغار حراء فى كل سنة شهرا فلما كمل له أربعون سنة أتاه الوحى على رأسها وأوّل

ما بدئ به الرؤيا الصادقة فى النوم فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح فى الوضوح لا برموز وكنايات كالرؤيا التى كان يراها النبى دانيال وغيره من الانبياء. ولما مضى عليه ستة شهور وافاه جبريل بالغار فى شهر رمضان وقال له: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ فكررها عليه جبريل مرتين وفى الثالثة قال له: « اقرأ باسم ربك الذى خلق. خلق الانسان من علق وربك الاكرم الذى علم بالقلم. علم الانسان ما لم يعلم » فقال بسم الله الرحمن الرحيم وعندها كشف عن بصيرته وحق قول الله فعلم ما لم يكن يعلم. ولما رجع الى خديجة أخبرها الخبر فقالت له: والله لا يخزيك الله ابداً انك لتصل الرحم وتقرى الضيف وتحمل الكل وتعين على نوائب الدهر. ثم انطلقت به إلى ابن عمها — ورقة بن نوفل وكان ممن لهم اطلاع على كتب الاقدمين وكان شيخاً كبيراً قد عمى — فأخبرته خبر ما رأى فقال له ورقة: « هذا الناموس الذى أنزله الله على موسى يا ليتنى أكون حياً اذ يخرجك قومك » فقال صلى الله عليه وسلم: اومخرجىّ هم؟ قال: نعم لم يأت رجل

بمثل ماجئت به الا عودى وإن يدركنى يومك أنصرك نصرا مؤزراً. ثم لم يلبث ورقة أن توفى وفتر الوحى عن النبي صلى الله عليه وسلم مدّة اختلف فى مقدارها ليذهب روعه ولتشتاق نفسه ثم نزل عليه قوله تعالى: ياأيها المدّثر قم فأنذر. ثم تتابع الوحى بعد ذلك فكانت نبوته فى سورة العلق ورسالته فى سورة المدّثر.

وأوّل مافرض عليه من أحكام الاسلام الانذار والدعاء الى الله بالتوحيد والتبرء من الاوثان ثم فرضت عليه الصلاة فأتاه جبريل وعلمه الوضوء والصلاه ركعتين. وأقام صلى الله عليه وسلم يدعو الله سراً قبل أن يؤمر بالاعلان فكان لا يظهر الدعوة إلا لمن يثق به فتبعه أناس من النساء والرجال منهم خديجة زوجته وعلى بن أبى طالب وهو صبي لم يبلغ الحلم وأبو بكر وزيد بن حارثة مولاه رضوان الله عليهم أجمعين وجميعهم كما هو واضح من أهله واخص اصدقائه اى ممن وقفوا بأجمعهم — كما كان لا بد منه — على أسرار حياته فلم يكن ثمة مانع من أن يظهروا تلك الاختلاقات التى لم تزل تفترى عنه ويذيعها فى العالم بلا انقطاع بعض الجهلة المتعصبين لو كان لما يختلقونه اثر من الصحة.

وكان صلى الله عليه وسلم قبل الاعلان يخرج ومعه على بن أبى طالب مستخفين من الناس الى شعاب مكة ويصليان فاذا أمسيا رجعا فعثر عليهما أبو طالب يوما وهما فى صلاتهما فقال للنبى صلى الله عليه وسلم: يا ابن أخى ما هذا الدين الذى أراك تدين به ؟ فقال : أى عم هذا دين الله ودين ملائكته ودين رسله ودين أبينا ابراهيم بعثنى الله رسولا الى العباد وأنت أى عم أحق من بذلت له النصح ودعوته الى الهدى وأحق من اجابنى اليه وأعاننى. فأجابه أبو طالب أنه لا يستطيع ان يفارق دين آبائه ولكنه وعده بان لا يخذله ما بقى. ثم أخذ العقلاء من العرب يتسابقون الى الاسلام فأسلم عثمان بن عفان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبى وقاص وكان قد دعاهم أبو بكر رضى الله عنه بعد اسلامه ثم أسلم أبو عبيدة عامر بن الجراح وعبيدة بن الحارث وسعيد بن زيد بن عم عمر بن الخطاب وعبد الله بن مسعود وعمار بن ياسر وكثير غيرهم ثم أمر عليه الصلاة والسلام بالبلاغ واظهار الدعوة فى قوله: فاصدع بما تؤمر واعرض عن المشركين.

فقام يدعو الله جهراً ويقيم الصـلاة علانية وترتب على ذلك معاداة قومه له واشتدادهم عليه بالأذى فنزل عليه قوله تعالى: وأنذر عشيرتك الاقربين. فجمع النبي صلى الله عليه وسلم بنى هاشم وبنى المطلب وبنى نوفل وبنى عبد شمس أولاد عبد مناف وقال لهم: « ان الرائد لا يكذب اهله والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم ولو غررت الناس جميعاً ما غررتكم والله الذى لا إله إلا هو انى لرسول الله اليكم خاصـة والى الناس كافة والله لتموتن كما تنامون ولتبعثن كما تستيقظون ولتحاسبن بما تعملون ولتجزون بالاحسان احسانا وبالسوء سوأ وانها لجنة ابداً أو لنار ابداً » فتكلم القوم كلاماً ليناً إلا عمه ابي لهب وكان خصماً لدوداً له فانه قال: خذوا على يديه قبل ان تجتمع عليه العرب. فقال ابو طالب: لنمنعنه ما بقينا ثم انصرف الجمع وكان فعله هذا عليه الصلاة والسلام نفاذاً لما أمر به من ربه فى الآية السابقة وحرصاً على اسـلام أهل بيته ثم قام عليه الصلاة والسلام مجاهراً غير مكترث بما يلاقيه من الأذى والمعاداة مرتباً دعوته على ما أمر به فى قوله تعالى

« ادع الى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن» فكانت دعوته لا تخرج عن البلاغ الحسن ولا يمكن ان يتصور فيه غير ذلك لانه عليه الصلاة والسلام جبل على الكمالات وأُدّب بأحسن الآداب ولا عجب فمؤدّبه مولاه وحق له ان يفتخر بقوله: أدبني ربي فأحسن تأديبي.

أذى قريش النبي والاصحاب والهجرة الحبشة: — ومع هذا فقد استهزأ به كثيرون اذا مر بهم ومعه أصحابه يقولون: هذا محمد وملوك الارض الذين يرثون ملك كسرى وقيصر !! ويصفرون خلفه مصفقين ومنهم من يقول: أما وجد الله من يبعثه غيرك ان ههنا من هو أسن منك وايسر ؟! ومنهم من يقول له: أما كلمت اليوم من السماء؟! ومن يقول: هذا ساحر. ومن يقول: هذا كاهن. ومن يقول: هذا مجنون. ومن يقول: كذاب ومن أخذه الحنق والغيظ الى ايذائه بالقاء القاذورات والنجاسات على بابه ولم يفتهم أذى اصحابه السابقين الى الاسلام: فانهم أذوهم واهانوهم بكل اصناف الاهانة ولقد عذبوا المستضعفين

منهم بعد ان حاولوا مثل ذلك مع من اسلم من العشائر العظيمة ومن له قوة تمنعه منهم فتركوهم ومالوا على المستضعفين من كل القبائل فكانوا يعذبونهم بالحبس والضرب والجوع والعطش ورمضاء مكة المحرقة والنارکی يفتنوهم عن دين الله الحق فمنهم من يفتتن لشدة البلاء وقلبه يطمئن بالايمان ومنهم من ينجو بعد العذاب الشديد ومنهم من يموت شهيداً ! وكلموا مراراً عمه أباطالب — الذي أخذ على نفسه حمايته — وطلبوا منه ان يخلي بينهم وبينه او يكفه عما يقول فحاول ابو طالب أن يرجع النبي عن خطته فظن الرسول ان عمه خاذله فقال : والله يا عم لو وضعوا الشمس فی يميني والقمر فی يساری على أن أترك هذا الامر ما فعلت حتى يظهره الله او اهلك دونه . فقال له أبو طالب: إذهب يابن أخي وقل ما احببت والله لا أسلمك. ورأى رسول الله من المشركين كثير الأذى وعظيم الشدّة كما أوذى اصحابه بما لا يمكن تصوره من انواع الأذى والتعذيب حتى اشفق النبي صلى الله عليه وسلم عليهم وأمرهم بالهجرة الى الحبشة بقوله لهم: لو خرجتم الى ارض الحبشة فان

فيها ماـكا لا يظلم عنده احد حتى يجعل الله لـكم فرجا مما انتم فيه فخرجوا الى الحبشة مخافة وفراراً الى الله بدينهم وكان فيمن خرج عثمان بن عفان وزوجته رقية ابنة النبي صلى الله عليه وسلم فى السـنة الثانية من اظهار الدعوة ثم عادوا بعد شهرين لما لم تحل لهم العيشة فى الغربة ولما بلغهم من إسلام أهل مكة كذبا ولـكنهم لما حضروا لم يستطيعوا دخول مكة الا فى جوار او اختفاء واقاموا بها على الأذى حتى هاجروا ثانية الى الحبشة وكانوا أكثر منهم قبل

اشتداد الاذى بالرسول وأصحابه — ولقد اسـتعمل المشركون جميع طرق التهديد والوعيد والتحايل والاقناع فلم يجدهم نفعاً بل كلما زادوا المسلمين أذى ازداد يقينهم وزاد النبي ثباتا وانخاما لهم . ولـكم ارسلوا له عليه الصلاة والسلام وفودا بقصد إرجاعه فباؤا بما يسيء المشركين ويزيدهم حنقا فيرمون وفودهم بأنهم خدعوا او سحرهم محمد . ثم عرضوا عليه بعد ذلك ان يشاركهم فى عباداتهم ويشاركونه فى عبادته فأنزل الله تعالى فى ذلك « قل يا أيها الـكافرون لا أعبد ما تعبدون

ولا أنتم عابدون ما أعبد ولا أنا عابد ما عبدتم ولا أنتم عابدون ما أعبد لكم دينكم ولى دين» فآيسوا منه وطابوا بعد ذلك ان ينزع من القرآن ما يغيظهم من ذم الاوثان والوعيد الشديد فيأتى بقرآن غيره او يبدله فأنزل الله جوابا لهم «قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلاّ ما يوحى الىّ» . ولما رأى المشركون أن هذه المطالب التى يعرضونها لا تقبل منهم وضاقت بهم الحيل ورأوا عزة النبي صلى الله عليه وسلم بمن معه وعزة اصحابه بالحبشة واسلام عمر بن الخطاب واسلام عمه حمزة رضى الله عنهم أجمعوا أمرهم على منابذة بنى هاشم وبنى المطلب ان لا يناكحوهم ولا يبايعوهم ويقطعوا عنهم الاسواق ولا يقبلوا منهم صلحاً ولا تأخذهم بهم رأفة حتى يسلموا رسول الله صلى الله عليه وسلم للقتل وكتبوا بذلك صحيفة علقوها فى جوف الكعبة هلال المحرم سنة سبعة من مبعثه فانحاز بنو هاشم الى أبى طالب وخرج من بنى هاشم أبو لهب فانه انحاز لقريش وكانت امرأته على رأيه فى عداوة النبي صلى الله عليه وسلم فكانت تنم عليه وتفسد القلوب من

جانبه فسماها الله تعالى : حمالة الحطب. وانخذل عنهم بنو عميه عبد شمس ونوفل بن عبد مناف وكان بنو هاشم محصورين فى الشعب لا يخرجون إلا من موسم الى موسم حتى جهدوا وكان لا يصل اليهم أحد إلا سرّاً وكان اعداؤهم يمنعون التجار من مبايعتهم. وبعد دخول الرسول وقومه الشعب أمر جميع المسلمين أن يهاجروا للحبشة حتى يساعدوا بعضهم على الاغتراب فهاجر معظمهم ولما رأت قريش ذلك أرسلت فى أثرهم عمراً بن العاص وعمارة بن الوليد بهدايا الى النجاشى ليسلمهم المسلمين فرجعا شر رجعة ولم ينالا من النجاشى الا الإهانة لما خاطباه به من خفر ذمته فى قوم لاذوا به. أما بنو هاشم فمكثوا فى الشعب قريباً من ثلاث سنوات فى شدة الجهد والبلاء لا يصلهم شئ من الطعام الا خفية حتى قام خمسة من أشراف قريش يطالبون بنقض الصحيفة الظالمة واتفقوا على ذلك ليلا فلما اصبحوا غدا أحدهم فطاف بالبيت ثم أقبل على الناس فقال: «يا أهل مكة أنأكل الطعام ونلبس الثياب وبنو هاشم والمطلب هلكى لا يبيعون ولا يبتاعون ؟ والله لا أقعد حتى تشق هذه

الصحيفة.» ثم أن النبي أخبر عمه أبا طالب ان الله ساط الأرضة على الصحيفة فلم تدع فيها غير اسم الله تعالى الذى كانت قريش تستفتح بها كتابها — وهو لفظ اللهم باسمك — فانطلق أبو طالب في عصابة حتى اتوا المسجد فلما رأتهم قريش ظنوا أنهم خرجوا من شدّة البلاء ليسلموا النبي فقال أبو طالب: انما أتيت فى امر هو نصف فيما بيننا وبينكم: ان ابن أخى أخبرنى بأمر فان كان الحديث كما يقول فلا والله لا نسلمه حتى نموت عن آخرنا. وان كان الذى يقول باطلاً دفعنا لكم صاحبنا فقتلتم أو استحييتم. واخبرهم الخبر فارتضوا به وفتحوا الصحيفه فوجدوها كما قال فقالوا هذا سحر من ابن اخيك وزادهم ذلك بغياً ثم مشى فى نقض الصحيفة قوم من قريش واخرجوا بنى هاشم وبنى المطلب من الشعب وذلك فى السنة العاشرة من مبعثه صلى الله عليه وسلم

وبعد ما خرج بنو هاشم من الحصار بالشعب بقليل توفيت خديجة فحزن عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم حزنا شديداً ولقد زاد حزنه ان توفى بعدها بقليل ابو طالب عمه

حتى سمى هذا العام بسنة الحزن وكانوا يؤرخون به ولما حضرت أبا طالب الوفاة جمع اليه وجوه قريش فأوصاهم وقال يا معشر قريش « أنتم صفوة الله من خلقه وقلب العرب وفيكم السيد المطاع وفيكم المقدم الشجاع والواسع البال واعلموا أنكم لم تتركوا للعرب فى المآثر نصيباً إلا احرزتموه ولا شرفاً إلا ادركتموه فلكم بذلك على الناس الفضيلة ولهم اليكم الوسيلة والناس لكم حرب وعلى حربكم ألد وانى اوصيكم بتعظيم هذه البينة فان فيها مرضاة للرب وقواما للمعاش ونبأة للوطأة صلوا ارحامكم ولا تقطعوها فان فى صلة الرحم منسأة للاجل وزيادة للعلم واتركوا البغى والعقوق فبهما هلكت القرون قبلكم وأجيبوا السائل واعطوا الداعى فان فيهما شرف الحياة والممات وعليكم بالصدق فى الحديث وادوا الامانة فان فيهما محبة للخاص ومكرمة فى العام . وانى اوصيكم بمحمد خيراً فانه الامين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما اوصيتكم به وقد جاء بأمر قبله الجنان وأنكره اللسان مخافة الشنآن وايم الله كأنى انظر الى صعاليك العرب واهل الوبر فى

الاطراف والمستضعفين من الناس قد اجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها اذناباً ودورها خراباً وضعفاؤها ارباباً واعظمهم عليه احوجهم اليه وانفرهم منه احظاهم عنده قد محضته العرب ودادها واصفت له فؤادها واعطمت له قيادها. دونكم يا معشر قريش وكونوا له ولاة ولحزبه حماة والله لا يسلك أحدكم سبيله الا رشد ولا يأخذ احد بهديه إلا سعد ولو كان لنفسي مدة أو لاجلي تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهي » ثم توفى وبوفاته نالت قريش من النبي صلى الله عليه وسلم ما لم تكن نالته فى حياته فهاجر الى الطائف فى شوال سنة عشر من البعثة وهو مكروب مشوش الخاطر مما لقي من قريش ومن قرابته وعترته خصوصاً من ابى لهب وزوجته من الهجو والسب والتكذيب فخرج الى الطائف مع مولاه زيد بن حارثة يلتمس من ثقيف الاسلام أو ان يناصروه ويقوموا معه على من خالفوه من قومه لأنهم كانوا اخواله فلم يجد منهم ذلك . ومع استدامة اهل

مكة على أذاه كان صلى الله عليه وسلم يعرض نفسه على القبائل في مواسم الحج ويدعو الناس الى دين الله وقبل الهجرة بسنة أسرى الله به من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى (١) ولما أصبح قص على قريش ذلك ووصف لهم البيت المقدس وأعطاهم علامات وأمارات تحققوا من صدقها ولكنهم طمس على بصائرهم فلم يجدوا طريقة الا أن يرموه بالسحر وكذبوه

(١) اختلف في الاسراء هل كان بالجسد والروح أو بالروح فقط. على أن لا شئ يمنع من قبول أن الاسراء كان بالجسد والروح نعم ان الطبيعيين ينكرون صعود الاجسام الثقيلة الى الجو واختراقها الافلاك لوقوفهم عند المحسوسات ونحن لا ننكر على الله تعالى الذى رفع مثل سيدنا عيسى عليه السلام أن يسرى بمحمد خصوصاً بعد علمنا أن الكواكب أجرام متحيزة في مراكزها غير مرتكزة على شيء ولا معلقة بشيء فالذى رفعها وسيرها مع فرط فخامتها لا يعجزه رفع جسم صغير جداً بالنسبة اليها كيف ونحن نرى الأجرام الثقيلة ترتفع الى الجو بالبخار المخلوق لله تعالى فاذا وقع الشيء بأثر من آثار الله تعالى كيف يمتنع وقوعه بأمره ومشيئته. لا يقف في ذلك الا من أضله الله تعالى وسلبه نور الهداية فبقى متخبطاً في ظلمات الغواية ومن يضلل الله فما له من هاد

وازداد بعض خصومه تمردا عليه وطغيانا ولكن الاسلام كان قد فشا فى قريش وفى القبائل . وبينما كان الرسول عليه السلام فى بعض المواسم عند عقبة الجمرة سنة احدى عشرة من النبوة إذ لقى رهطا من الخزرج وكانوا ستة وقيل ثمانية أراد الله بهم خيرا فجلسوا معه فدعاهم الى الاسلام ورأوا امارات الصدق عليه لائحة فأجابوه وصدقوه واسلموا وقالوا انا تركنا قومنا — الاوس والخزرج — بينهم من العداوة والشر ما بينهم فان يجمعهم الله عليك فلا رجل أعز منك ووعدوه المقابلة فى الموسم المقبل فرضى بذلك — وهذا ابتداء اسلام الانصار — وفى السنة التالية جاءه اثنا عشر رجلا منهم عشر من الخزرج واثنان من الأوس فاجتمعوا عند العقبة فبايعهم وعاهدوه على ان يمنعوه مما يمنعون به نساءهم ولما انصرفوا راجعين أرسل معهم ابن أم مكتوم — وهو ابن خال خديجة — ومصعب بن عمير الى المدينة ليتلوا على أهلها القرآن ويفقهانهم فى الدين فكان يسلم بسماع القرآن أناس كثيرون حتى أسلمت كل بيوت الانصار إلا بيت أمية بن زيد . وفى السنة الثالثة

عشر من البعثة قدم اليه صلى الله عليه وسلم ثلاثة وسبعون رجلا من الانصار وامرأتان فى أيام التشريق بالعقبة وبايعوه بيعة العقبة الثانية وجاءهم النبي صلى الله عليه وسلم ومعه العباس بن عبد المطلب فقال العباس لهم: « يا معشر الخزرج ان محمدا منا حيث علمتم وقد منعناه من قومنا فمن هو على مثل ما رأينا فهو فى عز من قومه ومنعة فى بلده وانه قد أبى إلا انحيازاً اليكم واللحوق بكم فان كنتم ترون انكم وافون له بما دعوتموه اليه ومانعوه ممن خالفه فأنتم وما تحملتم من ذلك. وان كنتم ترون أنكم مسلموه وخاذلوه بعد الخروج به اليكم فمن الآن دعوه فى بنى عشيرته فانه منهم لبمكان عظيم.» فقالوا: قد سمعنا ماقلت والله لو كان لنا فى انفسنا غير مانطقنا به لقلناه ولكنا نريد الوفاء والصدق وبذل مهجنا دون رسول الله. وعند ذلك قالوا للنبي عليه الصلاة والسلام: خذ لنفسك ولربك ما أحببت. فتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم القرآن ودعا الى الله ورغب فى الاسلام ثم قال: أبايعكم على ان تمنعونى مما تمنعون به أنفسكم ونساءكم وابناءكم متى قدمت عليكم. فأخذ

البراء بن معرور — كبيرهم والمتكلم عنهم — بيده وقال: والذي بعثك بالحق لنمنعنك مما نمنع به أزرنا. فبايعوا رسول الله صلى الله عليه. وقال بعضهم: يا رسول الله ان بيننا وبين الرجال عهوداً وانا قاطعوها فهل عسيت ان نحن فعلنا ذلك ثم أظهرك الله أن ترجع الى قومك وتدعنا؟! فتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: « بل الدم الدم والهدم الهدم أنا منكم وأنتم منى أحارب من حاربتم وأسالم من سالمتم »

الهجرة للمدينة والانصار والمهاجرون — ولما تم أمر البيعة بين النبي وبين أهل المدينة على الصورة المتقدمة وبقى أصحابه فى ضنك من ايذاء المشركين شكوا الى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم استأذنوه فى الهجرة فمكث أياما وخرج الى أصحابه يوما مسروراً وأخبرهم ان الله اختار له يثرب دار هجرة وأمر من يريد من اصحابه الخروج بأن يخرج اليها فصار القوم يتجهزون ويرحلون من مكة سراً إلا عمر بن الخطاب فانه أعلن بالهجرة ولم يمنعه أحد من المشركين. ولما قدموا المدينة أنزلهم الانصار فى دورهم وواسوهم ولم يبق بمكة

إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعلى رضى الله عنهما . ثم لما رأت قريش ان رسول الله صارت له شيع واصحاب من غيرهم بغير بلدهم ورأوا خروج شيعة أصحابه من المهاجرين اليهم تحذروا خروجه واجتمعوا فى دار الندوة واجمعوا على قتله واختاروا لذلك نفرا من كل القبائل كى يتفرق دمه فى القبائل كلها فيأمنون قتال قومه . فاجتمع القوم على بابه يرصدونه حتى ينام فيثبوا عليه مرة واحدة ويقتلوه ولكن الله أوحى اليه بالهجرة وبأن لا يبيت تلك الليلة فى فراشه فأخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عليا بذلك وأمره ان ينام محله وغطاه ببرده كى لا يقع الشك فى وجوده أثناء الليل فانهم كانوا يرددون النظر من شقوق الباب ليعلموا وجوده فامتثل على — وكان أول من شرى نفسه ونزل فيه قوله تعالى «ومن الناس من يشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله» — وخرج رسول الله وقد أخذ الله على ابصار القوم فلم يره احد ونثر على رؤسهم ترابا فى يده وهو يتلو « وجعلنا من بين ايديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون » ثم انصرف حتى

وصل الى دار أبي بكر وأخبره الخبر فرافقه الى غار ثور واختفيا فيه. أما الذين يرصدون الباب لما استيقظوا من نومتهم هجموا على النائم ولكنهم زادوا تعجباً واستغراباً حينما وجدوا امامهم علياً بدل النبي فسألوه عن محمد صلى الله عليه وسلم فقال: لا أدرى ولست عليه حارساً! فشق على المشركين خلاصه من أيديهم وجدّوا فى طلبه من الاودية والجبال وبعثوا فى إثره من يقتله أو يأتيهم به. وهنا يستغرب الانسان من صدق اصحاب محمد صلى الله عليه وسلم واخلاصهم له فما بايعه أحد وخذله أو همّ بخيانة ضده بل جميعهم تحملوا الأذى والمكروه الشديد من أجله وكانوا كلما ازداد القوم تعذيباً لهم ازدادوا هم تعلقاً به صلى الله عليه وسلم!! فرضوان الله على هؤلاء الاصحاب الذين لم يسبق لوفائهم فى التاريخ مثل! وأين من وفائهم وفاء الحواريين مثلا وهم أصحاب عيسى عليه السلام ومنهم من انكره ومن دل عليه اعداءه ومن خذله؟! فلم نسمع ان أحد اصحاب عيسى استمر معه كما استمر مع رسول الله صلى الله عليه وسلم اصحابه بل ولا ان من بينهم من قدم نفسه فداء

له كما عمل عليّ رضى الله عنه . وبالجملة فان كل شئ للنبي صلى الله عليه وسلم حتى أصحابه ووفاؤهم له وصدقهم في محبته وعهده كان خوارق عادات ومعجزات بينات يحار فيها عقل كل لبيب ولا ينكرها إلا كل مكابر. وانا لو تدبرنا ذلك لعلمنا ان أولئك الاصحاب الكرام كانوا على يقين تام من صدقه ومن أن ما أتى به حق لا مرية فيه ومن أن وعده إياهم بالنجاة مقطوع بصحته وإلا فلا معنى لهذا الاستسلام الاعمى والطاعة لهذا الحد مع ما يعلمه الكل فى حالة العرب !!! ولنرجع لما كنا عليه من هجرة المصطفى عليه الصلاة والسلام فلقد أسلفنا أنه أخذ ابا بكر واختفيا بغار بجبل ثور وان المشركين لما علموا بفساد مكرهم وانهم انما باتوا يحرسون علياً بن ابى طالب لا محمداً بن عبدالله هاجت عواطفهم وأرسلوا فى طلبه من كل جهة وجعلوا الجوائز لمن يأتى بمحمد او يدل عليه وقد وصلوا فى طلبهم إلى ذلك الغار الذى فيه طلبتهم بحيث لو نظر احدهم تحت قدميه لنظر من فيه فبكى أبو بكر فقال له عليه السلام: لا تحزن ان الله معنا. فأعمى الله أبصار

المشركين عنهما واراد الله ان ينسج العنكبوت على باب الغار فزاد القوم حيرة واستبعدوا أن يكونا دخلاه والعنكبوت ناسج عليه وفاتوا الغار وظلوا فى طريقهم مجدين البحث على غريمهم . فأقام النبي صلى الله عليه وسلم وابو بكر في الغار ثلاث ليال ولما انقطع الطلب خرجا وسارا متبعين طريق الساحل وفى الطريق لحقهم سراقة بن جعشم فدنا من الرسول واراد الايقاع به فساخت قوائم فرسه وانتهى الامر به ان انقلب من عدو عتيد الى طالب أمان من خصمه الذى كان يطارده وينوى قتله فنجاه الله من كيده وكيد المشركين. ثم سار النبي صلى الله عليه وسلم الى ان وصل بلدة قباء وذلك يوم الاثنين الثامن من شهر ربيع الأوّل وهذا أوّل تاريخ جديد لظهور الاسلام بعد ان مضى عليه ثلاث عشرة سنة وهو مضيق عليه من مشركى قريش (١)

(١) أجمع الكل على أن الهجرة كانت يوم اثنين واختلفوا فى أى الاثانين كانت فزعم بعضهم انها فى اليوم الثانى من ربيع الاول وزعم آخرون انها فى اليوم الثامن منه كما قال غيرهم انها فى اليوم

وأقام رسول الله عليه الصلاة والسلام بقباء بضع عشرة ليلة أسس فيها مسجد قباء وصلى فيه بمن معه من الانصار والمهاجرين الذين وفدوا عليه بمجرد سماعهم بخبر قدومه وهم آمنون مطمئنون ثم تحول عليه السلام الى المدينة والانصار محيطون به متقلدين سيوفهم فكان على أهل المدينة يوما سعيدا لم ير هم أخذ فرحين بشئ فرحهم برسول الله وخرج النساء والولائد يضربن بالدفوف ويقلن

أشرق البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
ايها المبعوث فينا جئت بالامر المطاع

وكان الناس يسيرون وراء رسول الله ما بين ماش وراكب يتنازعون زمام ناقته كلٌّ يريد أن يكون نزيله فيقول دعوها فانها مأمورة وأدركته عليه السلام صلاة الجمعة فى بنى

الثانى عشر منه والمتفق عليه الثامن ولا يجوز أن يكون الثانى ولا الثانى عشر لانهما ليسا بيوم اثنين من أجل أن أول ربيع الاول فى تلك السنة كان يوم الاثنين . وذلك نقلا عن رسالة للمرحوم محمود باشا الفلكى

سالم بن عوف فنزل وصلاّ ها وهذه أوّل جمعة له صلى الله عليه وسلم. ولم تزل الناقة سائرة حتى أتت بفناء بنى عدى بن النجار — وهم أخواله الذين تزوّج منهم هاشم جدّه — فبركت بمحلة من محلاتهم أمام دار أبي ايوب الانصاري وذلك محل مسجده الشريف. فقال عليه السلام: « ههنا المنزل إن شاء الله: رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين » فاحتمل ابو ايوب رحله ووضعه فى منزله وتنافس الانصار فى إكرامه عليه الصلاة والسلام وصار كل يود لو أن يكون عليه السلام فى داره أو ان يضيف مهاجراً ! وبلغ التنافس عندهم فى ذلك حد أن حكموا القرعة بينهم فما نزل مهاجرى على انصارى إلا بقرعة! ومن يتأمل الى هذه المحبة التى يستحيل ان تكون إلا بفضل من الله ورحمته يعلم كيف انتصر هؤلاء الاقوام على معانديهم من المشركين وأهل الكتاب مع قلة العدد والعدة!! وكان الانصار يؤثرون اخوانهم المهاجرين على أنفسهم وهذا اعلى درجات الاخوة فان رسول الله عليه السلام — لتمكن بينهم الإخاء — آخى بين المهاجرين والانصار فكان كل انصارى ونزيله

اخوين فى الله. ومن العبث ان نكلف القلم بأن يوضح ان هذه الاخوة كانت ارقى بكثير من الاخوة العصبية بل نكل ذلك للاحساس الاسلامى فانه افصح منطقاً من القلم! وبالجملة فتلك قلوب ألف الله بينها حتى صارت شيئاً واحداً من اجسام متفرقة وعسى ان يوفق الله مسلمى عصرنا هذا إلى هذا الاخاء أو إلى بعضه حتى يسودوا كما ساد المتحدون من قبل! وكان هناك الاخاء على المواساة والحق وان يتوارثوا بعد الموت دون ذوى الارحام وكان عليه السلام يقول لكل اثنين: «تآخوا فى الله اخوين اخوين» ودام هذا الميراث الى ان نسخه الله بقوله: «وأولو الارحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله»

ولما استقر عليه السلام بالمدينة أرسل زيداً بن حارثة وأبا رافع الى مكة ليأتيا بمن تخلف من أهله فقدما بفاطمة وأم كلثوم — بنتيه عليه السلام — وسودة زوجه وأم أيمن زوج زيد وابنها أسامة. أما زينب فمنعها زوجها ابو العاص بن الربيع وخرج مع الجميع عبد الله بن أبى بكر بأم رومان زوج أبيه وعائشة أخته وأسماء زوج الزبير بن العوام وكانت حاملا بابنها عبدالله

وهو أوّل مولود للمهاجرين بالمدينة . ولم يكن هواء المدينة في البدء موافقاً للمهاجرين من أهل مكة فأصاب كثيراً منهم الحمى فقال عليه السلام : « اللهم حبب الينا المدينة كما حببت الينا مكة واشد وبارك في مدها وصاعها وانقل وباءها الى الجحفة » فاستجاب الله جل وعلا دعوته وعاش المهاجرون في المدينة بسلام . ومنع مشركو مكة بعضاً من المسلمين عن الهجرة وحبسوهم وعذبوهم فكان عليه الصلاة والسلام يدعو لهم في صلاته وهذا اصل القنوت. ثم شرع عليه السلام في بناء مسجده في مبرك ناقته أمام محلة بني النجار وكان محله مربدا للتمر لغلامين يتيمين فاشتراه منهما وكانا ارادا إن يهباه إياه فأبى عليه السلام إلا اخذه شراء وقد عمل فيه رسول الله بنفسه ليرغب المسلمين في العمل وبنى بجانبه حجرتين إحداهما لسوده والاخرى لعائشة زوجتيه — ولم يكن عليه السلام متزوجا غيرهما اذ ذاك بعد وفاة خديجة — وصارت الحجرات تبنى بجوار المسجد كلما جاءت زوجة. ثم سنّ الله الآذان لتنبيه الغافل وتذكير الساهي للصلاة حتى يكون الاجتماع عاما وكان بلال

أول مؤذن فى الاسلام.

هذا وكما ابتلى الله المسلمين فى مكة بمشركى قريش ابتلاهم فى المدينة بيهودها وهم بنو قينقاع وقريظه والنضير فانهم اظهروا العداوة والبغضاء حسداً من بعد ما تبين لهم انه الحق وكانوا قبل مجىء الرسول يستفتحون على المشركين من العرب اذا شبت الحرب بين الفريقين بنبي يبعث قد قرب زمانه فلما جاءهم ما عرفوا استعظم رؤساؤهم ان تكون النبوة فى ولد اسماعيل فكفروا بما انزل الله بغيا مع أنهم يرون ان رسول الله محمداً لم يأت الا مصدقا لما بين يديه من كتب الله التى انزلها على من سبقه من المرسلين مبيناً ما أفسده التأويل منها ولكنهم نبذوه وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون !! وقد تبين الهدى لاحد رؤساء قينقاع — وهو عبدالله بن سلام — فترك هواه واسلم بعد ان سمع القرآن . وبعد ان كان اليهود يعدونه من اعظم رؤسائهم عدوه من سفهائهم حينما بلغهم اسلامه!! ولما استحكمت فى قلوبهم عداوة الاسلام صاروا يجهدون أنفسهم فى اطفاء نوره وكان يساعدهم على مقاصدهم هذه جماعة من

عرب المدينة اعمى الله بصائرهم فأخفوا كفرهم خوفا على حياتهم ولا يخفى ان ضرر المنافقين أشدّ على المسلمين من ضرر الكفار لان أولئك يدخلون بين المسلمين فيعلمون أسرارهم ويشيعونها بين الاعداء من اليهود وغيرهم كما حصل ذلك مراراً . والاساس الذى كان عليه عليه السلام ان يقبل ما ظهر ويترك لله ما بطن ولكنه مع ذلك كان لا يأمنهم فى عمل ما فكثيراً ما كان يتغيب عن المدينة ويولى عليها بعض الانصار ولكن لم يعهد انه ولى رجلا ممن عهد عليه النفاق لأنه عليه السلام يعلم ما يكون منهم لو ولوا عملاً فانهم بلا شك يتخذون ذلك فرصة لاضرار المسلمين. وهذا مثال لامراء الاسلام يدلهم على انهم لو عهدوا بمهم الاعمال الى أصحاب النفاق لعاد عليهم وعلى الاسلام بالضرر الذى لا تخفى عواقبه على أحد كما حصل مراراً مما يئن منه المسلمون حالاً فى كل البلاد!

وبالجملة فقد قبل الرسول من المنافقين ظواهرهم وعقد مع اليهود عهداً مقتضاه ترك الحرب والأذى فلا يحاربهم ولا يؤذيهم ولا يعينون عليه أحداً وان دهمه بالمدينة عدوّ ينصرونه

وأقرهم على دينهم. ومن ذلك يعلم انه عليه الصلاة والسلام لم يكن يقاتل لحد ذلك الوقت أحداً على الدخول فى الدين. وبعد الهجرة اذن الله للمهاجرين بقتال مشركى قريش بقوله: «أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وان الله على نصرهم لقدير الذين أخرجوا من ديارهم الا ان يقولوا ربنا الله» ثم أمرهم بذلك أيضاً فى قوله: «وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين. واقتلوهم حيث ثقفتموهم واخرجوهم من حيث أخرجوكم والفتنة أشد من القتل. ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فان قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين. فان انتهوا فان الله غفور رحيم وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله فان انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين» ولما تمالأ على المسلمين قوم من غير أهل مكة أمر الله بقتال المشركين كافة

ولما نقض اليهود العهد وساعدوا المشركين فى حروبهم مع المسلمين امر الله بقتالهم بقوله «وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ اليهم على سواء ان الله لا يحب الخائنين». فبناء

على ذلك قد ابتدأ القتال على المبادئ الآتية :

١ — اعتبار مشركي قريش محاربين لأنهم بدأوا بالعدوان. فصار للمسلمين قتالهم ومصادرة تجارتهم حتى يأذن الله بفتح مكة أو تعقد هدنة وقتية بين الطرفين

٢ — متى رؤى من اليهود خيانة وتحيز للمشركين قوتلوا حتى يؤمن جانبهم .

٣ — متى تعدت قبيلة من العرب على المسلمين أو ساعدت قريشاً قوتلت حتى تدين بالاسلام

٤ — من بادأ بعداوة من أهل الكتاب قوتل حتى يذعن بالاسلام أو يعطى الجزية

٥ — كل من أسلم فقد عصم دمه وماله إلا بحسابه والاسلام يقطع ما قبله

غزواته عليه السلام — وعملا بهذه المبادئ رأى النبي صلى الله عليه وسلم ان يبدأ بمصادرة تجارة قريش وهى مترددة بين مكة والشام وغيرها ليكون فى ذلك إضعاف لقوتهم المالية فيكون ادعى للخذلان فى ميدان القتال فأرسل عمه حمزة في

ثلاثين رجلاً من المهاجرين وعقد له لواء أبيض حمله أبو مرثد حليف حمزة ليعترض عيرا لقريش آيبة من الشام فيها أبو جهل وثلثمائة من كبار المشركين ولما التقى بهم كاد أن يكون قتال بين الطرفين لولا ان حجز بينهما مجدى بن عمرو الذى شكره النبي عليه الصلاة والسلام على عمله لما كان من قلة عدد المسلمين وكثرة عدوّهم . ثم أرسل أيضاً بعد ذلك عبيدة بن الحارث ابن عم حمزة فى ثمانين فارساً من المهاجرين ليعترض عيرا لقريش فيها مائتا رجل فوافوا العير ببطن رابغ فكان بينهم الرمى بالنبال ثم خاف المشركون ان يكون للمسلمين كمين فانهزموا ولم يتبعهم المسلمون وفر من المشركين الى المسلمين المقداد بن الاسود وعتبة بن غزوان وكانا اسلما وخرجا ليلحقا بالمسلمين

وممن توفى من المهاجرين فى بحر هذه السنة — وهى الاولى من الهجرة — عثمان بن مظعون أخو رسول الله صلى الله عليه وسلم من الرضاع اسلم قديماً وهاجر الهجرتين ولما دفن أمر عليه السلام بأن يرش قبره بالماء ويوضع على قبره حجراً

قال : أتعلم به قبر أخى وأدفن اليه من مات من أهلى . وهذا كان القصد من وضع الاحجار على المقابر . ولاثنتى عشرة ليلة خلت من صفر السنة الثانية خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم من المدينة بعد ان استخلف عليها سعد ابن عبادة ليعترض عيرا لقريش فى طريق مكة ولكنه رجع بدون أن يلقى حرباً لأن العير كانت قد سبقته وفى هذه الغزوة صالح بنى حمزة على انهم آمنون على انفسهم ولهم النصر على من رامهم وان عليهم نصرة المسلمين اذا دعوا ثم رجع الى المدينة بعد مضى خمس عشرة ليلة . ولم يمض على رجوعه غير قليل حتى بلغه ان عيرا لقريش آيبة من الشام فيها أمية بن خلف ومائة من قريش وألفان وخمسمائة بعير فسار اليها فى مائتين من المهاجرين وذلك فى ربيع الاول وكان يحمل لواءه سعد بن أبى وقاص فلما بلغ بواط وهو جبل بينبع وجد العير قد فاتته فرجع كذلك ولم يلق كيداً وذلك كله لما كان يأخذه المشركون من الحذر على أنفسهم والاجتهاد فى اخفاء اخبارهم عن اهل المدينة وأعقب رجوعه عليه السلام خروج قريش بأعظم عير لها

ـــ فقد جمعوا فيها أموالهم حتى لم يبق بمكة قرشى أو قرشية لهما مثقال فصاعدا الا بعثت به فى تلك العير ـــ وكان يرأسها أبو سفيان بن حرب فخرج لها الرسول فى جمادى الأوّل ومعه مائة وخمسون من المهاجرين واستخلف على المدينة أبا سلمة بن عبد الأسد وحمل لواءه عمه حمزة ولم يزل سائراً حتى بلغ العشيرة وهى موضع بطريق ينبع فوجد العير قد مضت وحالف فى هذه الغزوة بنى مدلج وحلفاءهم ثم رجع عليه السلام الى المدينة ينتظر هذه العير حينما ترجع وبعد رجوعه بقليل جاء كرز بن جابر الفهرى وأغار على سرح المدينة وهرب فخرج الرسول فى طلبه واستخلف على المدينة زيداً بن حارثة الانصارى وحمل لواءه على بن أبى طالب فسار حتى بلغ سفوان ـــ وهو واد من ناحية بدر ـــ وفات كرز فلم يلق حرباً . وفى رجب من هذه السنة أرسل سرية عدتها ثمانى رجال عليها عبد الله بن جحش وأمره باكتشاف خبر عير لقريش ستمر من نخلة فسار عبد الله الى ان وصل نخلة وهناك مرّت بهم عير قرشية تريد مكة فحمل المسلمون

عليهم فى أول يوم من رجب فقتلوا عمراً بن الحضرمى واسروا عثمان بن عبد الله بن المغيرة والحكم بن كيسان واستاقوا العير وهى أول غنيمة غنمها المسلمون من أعدائهم قريش ثم رجعوا ولم يتمكن المشركون من اللحاق بهم فلما قدموا المدينة وشاع انهم قاتلوا فى الاشهر الحرم وعابتهم قريش واليهود بذلك عنفهم المسلمون وقال لهم عليه السلام ما أمرتكم بقتال فى الاشهر الحرم فندموا فأنزل الله : « ويسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه؟ قل قتال فيه كبير وصدّ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام واخراج أهله منه اكبر عند الله والفتنة اكبر من القتل » وقد طلب المشركون فداء اسيريهم فقال عليه السلام حتى يرجع سعد وعتبة فلما رجعا قبل عليه السلام الفدية فى الاسيرين فأما الحكم بن كيسان فأسلم وحسن اسلامه وبقى مع المسلمين وأما عثمان فلحق مكة كافراً

وفى هذه السنة أمر عليه السلام بتحويل القبلة الى الكعبة بعد ان مكث مدة يستقبل بيت المقدس وقد أكثر اليهود من التنديد على الاسلام لهذا التحويل وما دروا ان

لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء الى صراط مستقيم. وفى شعبان من هذه السنة أوجب الله صوم رمضان على المسلمين وكان عليه الصلاة والسلام قبل ذلك يصوم ثلاثة أيام من كل شهر. ولا تفوت اللبيب حكمة الصوم فانها تلين النفس وتهذب الاخلاق فتسهل على الانسان بذل الصدقات ولذلك أوجب الله عقب الصيام زكاة الفطر فترى الانسان يبذلها بسخاء نفس ونية خالصة. وفى هذا العام فرضت زكاة الاموال وهذه هى النظام الوحيد الذى به يأكل الفقراء والمساكين من اخوانهم الاغنياء بلا ضرر على هؤلاء. واللبيب العاقل البعيد عن التعصب يحكم لاول نظرة ان هذا النظام مع عدم إضراره بالاغنياء مقلل لمصائب الفقر التى الجأت كثيرين من الفقراء بالبلاد الاجنبية ان يخالفوا نظام دولهم ويؤسسوا مبادئ غاية فى القبح لتقويض دعائم العمران وأركان المدنية كما يفعله الاشتراكيون والنهيليست وغيرهم من الفرق الكثيرة التى نسمع لها كل يوم إسماً جديداً

وفى رمضان من السنة الثانية للهجرة غزا غزوة بدر

فكانت الدائرة فيها على أبي جهل وقومه وهم تسعمائة وخمسون رجلا والنبي وأصحابه ثلاثمائة وثلاثة عشر رجلا وفيها نزل قوله تعالى : اذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم انى ممدكم بألف من الملائكة .... الآية. وقد قتل من المشركين كثيرون منهم عقبة وشيبة ابنا ربيعة والوليد بن عقبة وعقبة بن أبي معيط والنضر بن الحارث الذين كانوا بمكة من أشد المستهزئين بالمسلمين. وقد استشار عليه السلام أصحابه بشأن الاسرى فأشار عمر بقتلهم حتى يعلم أنه ليس فى قلوب المسلمين مودّة للمشركين ووافقه على ذلك سعد بن معاذ وعبدالله بن رواحة وقال أبو بكر : يا رسول الله هؤلاء أهلك وقومك قد أعطاك الله الظفر والنصر عليهم أرى ان تستبقيهم وتأخذ الفداء منهم فيكون ما أخذنا منهم قوة لنا على الكفار وعسى ان الله يهديهم بك فيكونوا لله عضداً. فقال عليه السلام: إن الله ليلين قلوب أقوام حتى تكون ألين من اللين وان الله ليشدّد قلوب أقوام حتى تكون أشد من الحجارة وان مثلك يا أبا بكر مثل ابراهيم قال : فمن اتبعنى فانه منى ومن عصانى

فانك غفور رحيم . وان مثلك يا عمر مثل نوح قال : رب لا تذر على الارض من الكافرين دياراً. ورأى عليه السلام رأى أبي بكر بعد ان مدح كلا من الصاحبين لأن الوجهة واحدة وهى اعزاز الدين وخذلان المشركين . ثم قال لاصحابه : أنتم اليوم عالة فلا يفلتن أحد من أسراكم الا بفداء وقد بلغ قريشاً ما عزم عليه الرسول فى أمر الاسرى فناحت على القتلى شهراً ثم أشير عليهم من كبارهم ان لا يفعلوا كى لا يبلغ محمداً وأصحابه جزعهم فيشمتوا بهم فسكتوا وصمموا ان لا يبكوا قتلاهم حتى يأخذوا بثارهم وتراضوا فيما بينهم ان لا يعجلوا فى طلب الفداء لئلا يتغالى المسلمون فيه فلم يلتفت بعضهم الى ذلك وبعثوا فى فداء أسراهم — وكان من أربعة آلاف الى ألف درهم ومن لم يكن معه فداء وهو يحسن القراءة والكتابة أعطوه عشرة من غلمان المدينة يعلمهم وكان ذلك فداؤه — وهذه الغزوة هى التى أعز الله بها الاسلام وقوى أهله مع قلة المسلمين وكثرة عدوّهم فهى آية ظاهرة على عناية الله تعالى بالاسلام ولذلك قال الله متمنياً على عباده بهذا النصر : « ولقد نصركم الله ببدر

وأنتم أذلة » . فهي أعظم الغزوات اذ قد قتل فيها من صناديد قريش من كانوا الاعداء الالداء للاسلام ودخل الرعب فى قلوب باقى العرب فكانت للمسلمين هيبة بها يكسرون الجيوش ويهزمون الرجال فلا جرم ان شكرنا الله تعالى على هذه العناية وما أحرى المسلمين بأن يتخذوا هذا اليوم عيداً يشكرون فيه الله على ما أولاهم من نعمة النصر . ولقد أظهر يهود بنى قنقاع التغيظ والحنق من هذا النصر المبين وأبدوا مكنون ضمائرهم فبدت البغضاء من أفواههم وانتهكوا حرمة سيدة من نساء الانصار فدعا عليه السلام رؤساءهم وحذرهم عاقبة البغى ونكث العهد فقالوا : يا محمد لا يغرنك ما لقيت من قومك فانهم لا علم لهم بالحرب ولو لقيتنا لتعلمن أنا نحن الناس ! وكانوا أشجع اليهود فأنزل الله « قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون الى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آية فى فئتين التقتا : فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء ان فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار » . وعند ما تظاهر اليهود بالعداوة

وتحصنوا بحصونهم سار اليهم عليه السلام وقاتلهم حتى انهزموا شر هزيمة وطلبوا منه الأمان على أن يخرجوا من المدينة ولهم النساء والذرية وللمسلمين الاموال . فقبل ذلك عليه السلام . ثم كانت غزوة السويق وسببها ان أبا سفيان ذكر قتلاه ببدر وآلى على نفسه انه لا يمس الطيب والنساء حتى يأخذ بثارهم فبعث رجالاً الى المدينة قتلوا بعض الانصار وخرج هو فى مائتى رجل فجد النبي صلى الله عليه وسلم فى طلبهم فلما أحسوا به هرب أبو سفيان وتبعه قومه وألقوا جرب السويق فأخذه المسلمون ولذا سميت غزوة السويق . وفى هذه السنة سن الله للعالم الاسلامى سنة عظيمة بها يتمكن أبناء البلدة الواحدة من المسلمين أن يجددوا عهود الأخاء ويقووا عروة الدين الوثقى وهى الاجتماع فى يومى عيد الفطر وعيد الاضحى وكان عليه السلام يجمع المسلمين فى صعيد واحد ويصلى بهم ركعتين تضرعاً الى الله أن لا ينفصم عروتهم وأن ينصرهم على عدوهم ثم يخطب فيهم حاضاً على الائتلاف ثم يصافح المسلمون بعضهم بعضاً . ثم غزا غزوة أحد فى شهر

شوّال للسنة الثالثة من الهجرة وكان عدد المشركين ثلاثة آلاف وخلفهم هند امرأة أبي سفيان فى نسوة يضربن الدفوف وينحن على قتلى بدر ويحرضن القوم على الاخذ بالثار وكان عدد المسلمين ألف رجل فقتل من المشركين اثنان وعشرون ومن المسلمين سبعون فيهم حمزة وفى هذه الغزوة شج وجه النبي صلى الله عليه وسلم وكلمت شفتاه وجرح على وأبو بكر وكانت هند وصواحبها يمثلن بالشهداء فجدعن الانوف والآذان وتخذن منها قلائد وبقرت هند بطن حمزة ولاكت كبده ونزل فى هذه الغزوة قوله تعالى: ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فانهم ظالمون. وقد كان يقاتل مع قريش بنو المصطلق وبنو الهون بن خزيمة ومعهم ابو عامر الراهب الاوسي. وكان فارق المدينة كراهية فى الرسول عليه السلام ومعه عدد ممن هم على شاكلته وخرج معهم جماعات من أعراب كنانة وتهامة وقد لحق بالمسلمين فى هذه الغزوة خسائر جمة ومات منهم كثيرون وذلك لما خالف الرماة وصايا النبي صلى الله عليه وسلم إذ أوقفهم خلف

الجيش على ظهر الجبل وقال : لا تبرحوا : إن رأيتمونا ظهرنا عليهم فلا تبرحوا وإن رأيتموهم ظهروا علينا فلا تبرحوا. ولما دارت رحى الحرب بين الفريقين كانت الدائرة على المشركين فانطلق الرماة ينهبون اسلابهم ناسين ان ما قاله لهم الرسول لا بد وان يكون لحكمة عرفوها فيما بعد. فلما رأى الاعداء تفرق المسلمين انطلق أحد رؤسائهم ببعض الجيش وأتى المسلمين من ورائهم وهم مشتغلون بدنياهم فلما رأوا ذلك البلاء دهشوا وتركوا ما بأيديهم وانتقضت صفوفهم واختلطوا من غير شعور حتى صار يضرب بعضهم بعضاً وأشاع أحد المشركين أن محمداً قد قتل فدخل الفشل بالمسلمين وانهزم جماعة منهم وتوجهوا المدينة ولكنهم استحوا أن يدخلوها فرجعوا وثبت رسول الله ومعه جماعة كانوا يتلقون عنه رمى النبال — وقد أصابه عليه السلام فى هذه الغزوة شدائد عظيمة تحملها بما أعطاه الله من الثبات — وكان أبو عامر الراهب قد حفر حفراً وغطاها ليقع فيها المسلمون فوقع الرسول فى حفرة فيها فأغمى عليه وخدشت ركبتاه فأخذه علىّ بيده ورفعه

طلحة بن عبيد الله – وهما ممن ثبت معه – حتى استوى قائماً فرماه عتبة بن أبي وقاص بحجر كسر رباعيته فتبعه حاطب بن أبي بلتعة فقتله وشج وجهه عليه السلام كما أسلفنا وجرحت وجنتاه ثم سار الى الشعب فجاءت له فاطمة وغسلت دمه . ولقد أصاب المسلمين الذين كانوا يحوطون به كثيرا من الجراحات لان الشخص منهم كان يتلقى السهم خوفاً أن يصل للرسول فوجد بطلحة ست وسبعون جراحة وشلت يده وأصاب كعب بن مالك سبع عشرة جراحة . وقد فرح المشركون بذلك ورجعوا الى مكة . وفى هذه الحادثة عبرة لمن يعتبر : فسبب هذا الابتلاء عصيان أمر الرسول والتنازع قال الله تعالى فى ذلك: « ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بأذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الامر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون : منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين» ولما رجع الرسول المدينة نادى فى اصحابه بالخروج خلف العدوّ وأن لا يخرج إلا من كان معه بالأمس

مخافة أن يشن المشركون الغارة على المدينة ويتموا إنتصارهم فكان ذلك وخرجوا واللواء معقود لم يحل فأعطاه لعلى بن أبى طالب وولى على المدينة ابن أم مكتوم ثم سار الجيش حتى وصلوا مكاناً يدعى حمراء وهو على ثمانية أميال من المدينة فى طريق مكة . وقد كان ما ظنه الرسول حقاً فان المشركين تلاوموا على ترك المسلمين من غير شن الغارة على المدينة حتى يتم لهم النصر فأصروا على الرجوع ولكن لما بلغهم خروج الرسول فى أثرهم ظنوا أنه قد حضر معه من لم يحضر بالأمس وألقى الله الرعب فى قلوبهم فتمادوا من سيرهم الى مكة. وظفر عليه السلام وهم فى حمراء الأسد بأبى عزة الشاعر الذى كان يحرض المشركين على قتال النبى — وكان أسر فى بدر وأطلقه الرسول بعد أن عاهده على أن لا يساعد ولا يعين على قتاله — فأمر بقتله فقال: يا محمد أقلنى وامنن على ودعنى لبناتى وأعطك عهداً أن لا أعود لمثل ما فعلت فقال عليه السلام: لا والله لا تمسح عارضيك بمكة تقول خدعت محمداً مرتين: لا يلدغ المؤمن من جحر مرتين . وضرب عنقه . وفى هذه السنة

حرم الله الخمر والميسر فكان من وراء ذلك أن نجت الامم الاسلامية من مرض المسكرات وهى الداهية التى تفجع اليوم أمماً كثيرة من المسيحيين وغيرهم وكانت احدى الأسباب فى اضطراب المجتمع الانسانى وظهور مذهب الفوضويين مما تجهله الامم الاسلامية ولكن ربما لا يمر زمن إلا وتعرفه هى أيضاً لابتعادها عن الدين وانهماك كثير من أفرادها وشبانها على اللذات والمسكرات بفضل المدنية والحرية اللتين هادتنا بهما أوروبا المتمدنة وتمن علينا بهما !! وفى السنة الرابعة غزا بنى النضير من اليهود الذين تجمعوا على قتاله صلى الله عليه وسلم وشدد عليهم الحصار حتى طلبوا الخروج فأخرجهم بأمتعتهم إلا السلاح فأم بعضهم خيبر وأم البعض الشام . وفى السنة نفسها كانت غزوة ذات الرقاع مع جموع غطفان وغزوة بدر الثانية مع أبى سفيان ولم يكن فيها حرب ثم جاءت السنة الخامسة وفيها غزا غزوة الخندق المسماة بغزوة الأحزاب لتحزب قبائل العرب كقريش وكنانة وغطفان وقبائل نجد وبنى قريظة فدارت الدائرة على آلافهم المجتمعة

وفيها نزل قوله تعالى : يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم اذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها . وفيها أشار سلمان الفارسى رضى الله عنه على النبى صلى الله عليه وسلم بأن عادة الفرس أن يطوقوا مدنهم بخندق حين يحاصرها العدوّ إتقاء هجومه وأخذ النبى صلى الله عليه وسلم برأيه وحفر خندقاً حول المدينة وعمل فيه بنفسه ترغيبا للمسلمين. وفى هذه السنة غزا بنى قريظة وحاصرهم خمسا وعشرين ليلة فى شهر ذى القعدة وسبا منهم سبعمائة رجل يزيدون أو ينقصون. وفى السنة عينها أو فى سنة ست غزا بنى المصطلق وقاتلهم على ماء لهم يسمى المريسيع وقتل وسبا وغنم. وسببها أن الحارث بن ضرار — سيد بنى المصطلق الذين ساعدوا قريشاً على المسلمين فى أحد — كان أخذ يجمع الجموع لحرب النبى فسمع الرسول بذلك فخرج له وتقاتلوا بعد أن عرض النبى عليهم الاسلام فلم يقبلوا وحمل عليهم المسلمون حملة رجل واحد كانت الدائرة فيها على بنى المصطلق وأسر المسلمون كثيراً منهم ومن نسائهم ففرقهم النبى على المسلمين ومن ذلك

يظهر حسن السياسة ومنتهى الكرم فان بنى المصطلق من أعز العرب داراً فأسر نسائهم بهذه الحال صعب جداً فأراد عليه السلام أن يجعل المسلمين يمنون على النساء بالحرية من تلقاء أنفسهم فتزوج برة بنت الحارث التى سماها جويرية فقال المسلمون : أصهار رسول الله لا ينبغى أسرهم فى أيدينا . فمنوا عليهم بالعتق وتسبب عن هذا الكرم العظيم وهذه المعاملة الجليلة أن أسلم بنو المصطلق عن بكرة أبيهم وكانوا للمسلمين بعد ان كانوا عليهم . وقد حصل فى هذه الغزوة نادرتان لولا أن صاحبتهما حكمة رسول الله لعادتا بالتفريق على المسلمين (١)

(١) فأولاهما أن أجيراً لعمر بن الخطاب اختصم مع حليف للخزرج فضرب الاجير الحليف حتى سال دمه فاستصرخ بقومه الخزرج واستصرخ الاجير بالمهاجرين فعلت الشحناء وكادوا يقتتلون لولا أن خرج عليهم رسول الله فأخبروه الخبر ثم كلم المضروب حتى أسقط حقه وبذلك سكنت الفتنة فلما بلغ عبد الله بن أبى هذا الخصام غضب وكان عنده رهط من الخزرج فقال : ما رأيت كاليوم مذلة أو قد فعلوها نافرونا فى ديارنا والله ما نحن والمهاجرون الا كما قال الاول سمن كلبك يأكلك اما والله لئن رجعنا الى المدينة

وهما من مضار المنافقين الذين يدخلون بين الامم مظهرين المحبة لهم وقلوبهم مملوءة حقداً يتربصون الفتن فمتى رأوا باباً

ليخرجن الاعز منها الاذل ثم التفت الى من معه وقال : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتوهم بلادكم وقاسمتوهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم بأيديكم لتحولوا الى غير داركم ثم لم ترضوا بما فعلتم حتى جعلتم أنفسكم غرضاً للمنايا دون محمد فأيتمتم أطفالكم وقللتم وكثروا فلا تنفقوا عليهم حتى ينفضوا من عنده. وكان فى مجلسه شاب حديث السن قوى الاسلام اسمه زيد بن أرقم فأخبر رسول الله الخبر فتغير وجهه وقال : يا غلام لعلك غضبت عليه فقلت ما قلت؟ فقال: والله يا رسول الله لقد سمعته . قال : لعله أخطأ سمعك ؟ فاستأذن عمر الرسول فى قتل ابن أبى أو أن يأمر أحداً غيره بقتله فنهاه عن ذلك. وقال : كيف يا عمر اذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟! ثم أذن بالرحيل فى وقت لم يكن يرتحل فيه حين اشتد الحر يقصد بذلك عليه السلام اشغال الناس عن التكلم فى هذا الموضوع فجاءه أسيد بن حضير وسأله عن سبب الارتحال فى هذا الوقت فقال : أو ما بلغك ما قال صاحبكم: زعم انه ان رجع الى المدينة ليخرجن الاعز منها الاذل. قال: أنت والله يارسول الله تخرجه ان شئت هو والله الذليل وأنت العزيز . ثم سار عليه السلام بالناس سيراً حثيثاً حتى آذتهم الشمس فنزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الارض حتى وقعوا نياماً وكلم رجال من الانصار عبد الله بن أبى فى أن

لهـا وجوه فنعوذ بالله منهم . وفى هذا العام — على ما عليه الاكثرون — فرض الله على المسلمين حج البيت الحرام من

يطلب من الرسول الاستغفار فلوى رأسـه واستكبر وهنا نزل على الرسول سورة المنافقين التى فضحت عبد الله بن أبى واخوانه وصدقت زيد بن أرقم ولمـا بلغ ذلك عبد الله بن عبد الله بن أبى اسـتأذن رسول الله فى قتل أبيه حذراً من أن يكلف بذلك غيره فيكون عنده من ذلك أضغان وأحقاد فأمره عليه السلام بالاحسان الى أبيه

(النادرة الثانية) وهى أفظع من الاولى وأجلب منها للمصائب وهى رمى عائشة الصديقة — زوج رسول الله — بالافك فاتهموها بصفوان بن المعطل السلمى وذلك انهم لمـا دنوا من المدينة آذن عليه السلام ليلة بالرحيل وكانت السـيدة قد مضت لقضاء حاجتها حتى جاوزت الجيش فلما قضت شأنها أقبلت الى رحلها فلمست صدرها فاذا عقد لها من جزع ظفار قد انقطع فرجعت تلتمس عقدها فحبسها ابتغاؤه فأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونها فاحتملوا هودجها ظانين انها فيه فلما جاءت منزل الجيش بعد ان وجدت عقدها لم تجد به أحداً فغلبتها عيناها فنامت وكان صفوان بن المعطل يسـير وراء الجيش يفتقد ضائعه فأصبح عند منزلها فعرفها لانه كان رآها قبل الحجاب فاسترجع فاستيقظت باسترجاعه وسـترت وجهها بجلبابها فأناخ راحلته وأركبها من غير أن يتكلما بكلمة ثم انطلق يقود بها الراحلة حتى وصـل الجيش وهو نازل للراحة فقامت قيامة أهل الافك وقالوا ما قالوا فى

استطاع اليه سبيلاً وفى ذلك من تقوية الرابطة واتحاد القلوب ما فيه للمسلمين الفائدة العظمى. وفى السنة السادسة خرج

عائشة وصفوان والذى تولى كبر الافك عبد الله بن أبى ولما قدموا المدينة مرضت عائشة شهراً والناس يفيضون فى قول أهل الافك وهى لا تشعر بشيء. وكانت تعرف فى رسول الله رقة اذا مرضت فلم يعطها نصيباً منها فى هذا المرض بل كان يمر على باب الحجرة لا يزيد على قوله كيف حالكم مما جعلها فى ريب عظيم فلما نقهت خرجت هى وأم مسطح بن أثاثة — أحد أهل الافك — للتبرز خارج البيوت فعثرت أم مسطح فى مرطها فقالت: تعس مسطح. فقالت عائشة: بئس ما قلت أتسبين رجلا شهد بدراً فقالت: يا بنتاه أولم تسمعى ما قالوا؟ فسألتها عائشة عن ذلك فأخبرتها الخبر فازدادت مرضاً على مرضها ولما جاءها عليه السلام كعادته استأذنته أن تمرض فى بيت أبيها فأذن لها فسألت أمها عما يقول الناس فقالت يا بنية: هونى عليك فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر الا أكثرن عليها. فقالت: سبحان الله أو لقد تحدث الناس بهذا؟ وبكت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لها دمع ولا تكتحل بنوم وفى خلال ذلك كان عليه السلام يستشير كبار أهل بيته فيما يفعل. فقال له أسامة بن زيد لما يعلمه من براءة عائشة: أهلك أهلك ولا نعلم عليهم الا خيراً. وقال على بن أبى طالب: لم يضيق الله عليك والنساء سواها كثير. وسل الجارية تصدقك. فدعا عليه السلام بريرة جارية عائشة

صلى الله عليه وسلم وأصحابه من المهاجرين والانصار وكانوا ألفا وربعمائة وساق الهدى قاصداً مكة وبلغ ذلك قريشاً فبعثت

وقال لها : هل رأيت من شيء يريبك ؟ فقالت : والذي بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمضه غير انها جارية حديثة السن تنام عن عجينها فتأتى الداجن فتأكله. فقام عليه السلام وصعد المنبر والمسلمون مجتمعون. وقال : من يعذرنى من رجل قد بلغنى أذاه فى أهلى؟ والله ما علمت على أهلى الا خيراً ولقد ذكروا رجلاً ما علمت عليه الا خيراً وما يدخل على أهلى الا معى. فقال: سعد بن معاذ: أنا يارسول الله أعذرك منه فان كان من الاوس ضربت عنقه وان كان من اخواننا من الخزرج أمرتنا ففعلنا أمرك. فقام سعد بن عبادة الخزرجى وقال : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ولو كان من من رهطك ما أحببت أنه يقتل. فقام أسيد بن حضير وقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه فانك منافق تجادل عن المنافقين وكادت تكون فتنة بين الاوس والخزرج لولا أن رسول الله نزل من فوق المنبر وخفضهم حتى سكتوا أما عائشة فبقيت حزينة كئيبة لا يهنأ لها عيش ولا يهدأ لها بال. وبينما هى مع أبويها اذ دخل عليه السلام فسلم ثم جلس فقال : أما بعد يا عائشة انه بلغنى عنك كذا وكذا فان كنت بريئة فسيبرئك الله وان كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى اليه فان العبد اذا اعترف وتاب تاب الله عليه فتقلص دمع عائشة وقالت لابويها : أجيبا رسول الله . فقالا : والله ما ندرى ما

اليه عروة بن مسعود الثقفي سيد أهل الطائف فقال له : أن قريشاً عاهدوا الله أن لا تدخل عليهم مكة عنوة ورجع لهم فقال : جئت كسرى وقيصر فى ملكهما فوالله ما رأيت ملكاً

تقول . فقالت : انى والله لقد علمت أنكم سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم وصدقتم به . فلئن قلت لكم انى بريئة لا تصدقونى ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم انى منه بريئة لاتصدقونى فوالله لا اجد لى ولكم مثلاً الا أبا يوسف قال : « فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون ». ثم تحولت واضطجعت على فراشها ولم يزاول رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسه حتى نزلت عليه الآيات من سورة النور ببراءة السيدة المطهرة عائشة الصديقية وأولها « ان الذين جاؤا بالافك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكل امرئ منهم ما اكتسبت من الاثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم » فسرى من رسول الله وهو يضحك وبشر عائشة بالبراءة فقالت لها أمها : قومى فاشكرى رسول الله . فقالت : لا والله لا أشكر الا الله الذى برأنى. وبعد ذلك أمر عليه السلام بأن يجلد من صرح بالافك ثمانين جلدة وهى حد القاذف وكانوا ثلاثة حمنة بنت جحش ومسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت. وكان ابو بكر ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه فلما تكلم بالافك قطع منه النفقة فأنزل الله « ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى واليتامى والمساكين

فى قومه مثل محمد فى اصحابه . وبعث صلى الله عليه وسلم عثمان بن عفان ليخبر أبا سفيان وأشراف مكة أن الرسول لم يأت محاربا وانما أتى زائراً معظما البيت فقالوا له : ان أحببت أن تطوف بالبيت فطف فقال لا إلاّ أن يطوف رسول الله . فحبسوه وبلغ الرسول صلى الله عليه وسلم أنهم قتلوه فدعا من معه الى البيعة فبايعوه بيعة الرضوان تحت الشجرة قال الله تعالى : لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة . ولما علمت قريش بهذه البيعة خافوا وأشار اهل الرأى منهم بالصلح فبعثوا الى النبي صلى الله عليه وسلم سهل ابن عمرو فأجابه الى ما طلبت قريش من وضع الحرب على شروط[1] ونحر هديه وحلق رأسه وفعل مثله صحبه وعادوا

والمهاجرين فى سبيل الله وليعفوا وليصفحوا الا تحبون أن يغفر الله لكم والله غفور رحيم » فقال : أبو بكر بلى نحب ذلك يا رسول الله واعاد النفقة على مسطح

(١) وهذه هى الشروط وتسمي بصلح الحديبية نسبة الى المكان الذى عقدت فيه

١ — وضع الحرب بين المسلمين وقريش أربع سنوات

وفى شهر المحرم من السنة السابعة غزا خيبر وصالحه أهلها على ان يساقيهم بنصف الثمار ويخرجهم متى شاء ففعل وفيها اكل صلى

---

٢ — من جاء المسلمين من قريش يردونه ومن جاء قريشاً من المسلمين لا يلزمون برده

٣ — أن يرجع النبي من غير عمرة هذا العام ثم يأتى العام المقبل فيدخلها بأصحابه بعد ان تخرج منها قريش فيقيم فيها ثلاثة أيام ليس مع أصحابه من السلاح الا السيف فى القراب والقوس

٤ — من أراد أن يدخل فى عهد محمـد من غير قريش دخل فيه ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل فيه

ولما قبل النبي هذا الشرط داخل المسلمين منه أمر عظيم وقالوا : سبحان الله كيف نرد اليهم من جاءنا مسلماً ولا يردون من جاءهم مرتداً؟ فقال عليه السلام : ان من ذهب منا اليهم فأبعده الله ومن جاءنا منهم فرددناه اليهم فسيجعل الله له فرجاً ومخرجاً . أما الامر الثالث وهو صد المسلمين عن الطواف بالبيت فكان أشد تأثيراً على قلوبهم لان الرسول أخبرهم أنه رأى فى منامه أنهم دخلوا البيت آمنين وقد سأل عمر أبا بكر فى ذلك فقال رضى الله عنه : وهل ذكر أنه فى هذا العام ؟ . وكتب شروط الصلح بين الطرفين وكان الكاتب على بن أبى طالب فأملاه عليه السلام بسم الله الرحمن الرحيم فقال سفير قريش : اكتب باسمك اللهم فأمر الرسول أن يكتب ذلك ثم قال هذا ما صالح عليه محمد رسول الله فقال السفير : لو نعلم

الله عليه وسلم من الشاة المسمومة التي اهدتها اليه زينب بنت الحرث اليهودية أكلة لم تزل تعاوده الى وفاته وتفل في عين

انك رسول الله ما خالفناك اكتب محمد بن عبد الله فأمر عليه السلام عليًا بمحو ذلك وكتابة محمد بن عبد الله فامتنع علي وتوقف فمحاها النبي بيده وكتبت نسختان لكل من الطرفين نسخة وهذه هي أول معاهدة دولية ظهرت في العالم وبعد كتابتها قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي: سيكون لك مثل هذه الواقعة. وقد حصل بالفعل له مثل ذلك حين كتابة شروط التحكيم بينه وبين معاوية

وبعد كتابة الشروط جاءهم أبو جندل بن سهيل يحجل في قيوده وكان من المسلمين الممنوعين من الهجرة فهرب للمسلمين هذه المرة ليحموه فقال له الرسول : اصبر واحتسب فان الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً انا قد عقدنا بين القوم صلحاً وأعطيناهم وأعطونا على ذلك عهداً فلا نغدر بهم . وكذلك رد الى قريش أبو بصير رضي الله عنه حين فر وأرسلت في طلبه اثنين ولكن أراد الله تعالى أن أهل قريش طلبوا نفسهم ابطال هذه الشروط وأعطوا للنبي الحق في امساك من جاءه بأن اجتمع المسلمون الذين بمكة وفروا لجهة الشام واتحدوا مع جمع من الاعراب وقطعوا الطريق على تجارة قريش كما قطعوا عنهم الأمداد فاستغاثت قريش لمنع ذلك برسول الله فقبل منهم ابطال هذا الشرط وأزاح الله عن المسلمين هذه الغمة التي صعب عليهم تحملها في الحديبيــة حينما أمرهم عليه

على وكانت رمداء فبرئ واعطاه الراية فقاتل اهل الحصن حتى فتح الله عليه بقلع بابه ثم انصرف صلى الله عليه وسلم الى وادى القرى فحاصره وفتحه عنوة وفى هذه السنة كانت عمرة القضاء التى خرج لاجلها صلى الله عليه وسلم فى ألفين من أصحابه وأدوها وفى السنة الثامنة أسلم خالد بن الوليد وعمرو ابن العاص وعثمان بن طلحة بن عبد الدار وفيها كانت غزوة مؤتة بين الروم والمسلمين ونال المسلمون الفتح فيها على يد

الصلاة والسلام برد أبى جندل وعلموا أن رأى الرسول أفضل وأحسن من رأيهم حيث كان فى أمر تسبب عنه اختلاط الكفار بالمسلمين فخالطت بشاشة الاسلام قلوبهم حتى قال أبو بكر: ما كان فتح فى الاسلام أعظم من فتح الحديبية ولكن الناس قصر رأيهم عما كان بين محمد وربه والعباد يعجلون والله لا يعجل لعجلة العباد حتى تبلغ الامور ما أراد . وفى رجوعه عليه الصلاة والسلام من الحديبية نزلت عليه سورة الفتح وقال سبحانه وتعالى فى أولها (انا فتحنا لك فتحاً مبينا) وفى الحقيقة انه ترتب على هذه المهادنة — التى لم تعجب المسلمين فى مبدأ الامر — دخول كثيرين فى الاسلام اذ لما كانت الهدنة ووضعت الحرب أوزارها وأمن الناس بعضهم بعضاً التقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة فلم يكلم أحد بالاسلام أحداً الا دخل فيه

خالد بن الوليد بعد أن استشهد من قواد المسلمين ثلاثة هم زيد بن حارثة وجعفر بن أبي طالب وعبد الله بن رواحة. وفي هذه السنة خرج صلى الله عليه وسلم باثنى عشر الفا من المهاجرين والانصار وطوائف غيرهما الى قرب مكة قاصدا فتحها لنقض قريش العهد ولما مقربة من مكة ركب العباس عمه الى مكة ليخبر أشرافها فيأتوا الى النبي صلى الله عليه وسلم ويستأمنوه فوجد أبا سفيان فأتى به واسلم ثم امر النبي الجنود لتدخل مكة فدخلوها يوم الجمعة لعشر بقين من رمضان واطمأن الناس وطاف صلى الله عليه وسلم بالبيت وصلى فيه وكسر الاصنام قائلاً : قل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقاً . ثم ارسل السرايا لتدعو من هم حول مكة الى الاسلام وكانت منها سرية خالد بن الوليد التى نزل بها على ماء بنى جذيمة ولكونهم أبوا الاسلام قاتلهم وقتل منهم ولما بلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ولم يكن امر بالقتال . قال : اللهم انى أبرأ اليك مما صنع خالد ثم أرسل علياً بمال أدى به دية القتلى وبقى معه مال دفعه اليهم تطييباً لخواطرهم وفى هذه

لسنة كانت غزوة حنين وكان النبي فى اثنى عشر ألفاً من اصحابه فنالوا النصر المبين وأعجب المؤمنون فيها بكثرتهم حتى قال احدهم: لن نغلب اليوم عن قلة! فنزل قوله تعالى: ويوم حنين اذ أعجبتكم كثرتكم. وتجمع المشركون من ثقيف بالطائف بعد هزيمتهم فى حنين فسار اليهم النبي وحاصرهم اياماً وقاتلهم بالمنجنيق وظهر عليهم وغنم شيئاً كثيراً بلغ على ما يقولون اربعة وعشرين ألف بعير واكثر من اربعين الف شاة واربعة آلاف أوقية من الفضة ففرقها صلى الله عليه وسلم على مسلمي الفتح فقط من أهل مكة فوجد الانصار فى نفوسهم فدعاهم فقال صلى الله عليه وسلم: اوجدتم يا معشر الانصار على لعاعة من الدنيا ألفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم الى اسلامكم أما ترضون ان يذهب الناس بالعير والشاه وترجعون برسول الله الى رحالكم؟ أما والذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الانصار ولو سلك الناس شعباً لسلكت شعب الانصار اللهم ارحم الانصار وابناء الانصار. واطلق النبي صلى الله عليه وسلم السبي وكانت عدته ثمانية آلاف وفى هذه

الغزوة اسلم مقدم هوازن مالك بن عوف واستعمله النبي صلى الله عليه وسلم على قومه ومن اسلم من تلك القبائل. ثم جاءت السنة التاسعة وفيها كاتب النبي صلى الله عليه وسلم الملوك والقياصرة ودعاهم الى الاسلام فبعث الى النجاشي ملك الحبشة عمراً بن أمية بكتاب فقبله وإلى المقوقس — عامل الروم على مصر — حاطب بن ابى بلتعة بكتاب فأكرم المقوقس حاطباً ورده بلطف واهدى الى النبي صلى الله عليه وسلم بغلة وحماراً وجاريتين احداهما مارية القبطية — والدة ابراهيم بن النبي صلى الله عليه وسلم — والى قيصر الروم دحية بكتاب فاحترمه واعتذر عن الاسلام لتهييج شعبه ونفرتهم منه والى كسرى — ملك الفرس — عبدالله بن حذافة بكتاب فمزقه كسرى وكتب الى عامله باليمن ان يرسل النبي اليه وبلغ النبي ذلك فدعا عليه فسلط الله على كسرى ابنه شيرويه فقتله. وكتب شيرويه الى عامل اليمن وكان اسمه باذان بأن لا يتعرض الى النبي صلى الله عليه وسلم فى شئ فأسلم باذان وجمع من فارس. وبعث الى الحارث بن أبى شمر الغسانى شجاع بن وهب الأسدى

بكتاب. نقرأه وقال: أنا سائر اليه فدعا عليه النبي صلى الله عليه وسلم فأباد الله ملكه.. والى هوذة ملك اليمامة سليط بن عمرو فقال: ان جعل الامر لى بعده. سرت اليه وأسلمت ونصرته وإلا حاربته. فقال النبي صلى الله عليه وسلم: اللهم اكفنيه. فمات بعد قليل والى المنذر ملك البحرين العلاء بن الحضرمى فأسلم وأسلمت معه عرب البحرين. وفى آخر هذه السنة غزا النبي صلى الله عليه وسلم الروم فى تبوك وكانت جيوش الاسلام ثلاثين ألفاً وتمت هذه الغزوة بالصلح وصالح المسلمون أهل أذرح ودومة الجندل. وبعد عودته صلى الله عليه وسلم وفدت عليه الوفود للاسلام من بلاد العرب تماماً ونزل قوله تعالى: اذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجاً... الآية. ثم بعث النبى صلى الله عليه وسلم علياً بكتاب الى اليمن فأسلمت همذان كلها بعد سماعه فى يوم واحد ثم تتابعت سكان الاطراف والشواطئ لتدين بالاسلام حتى طبق الدين الانحاء وملأ تلك الارجاء كل ذلك فى تمام السنة العاشرة من الهجرة. ثم حج النبى صلى

الله عليه وسلم — بعد ان عمم بغزواته انتشار المسلمين فى البلاد العربية — حجته المشهورة بحجة البلاغ لتبليغه المناسك للمسلمين فيها وهى حجة الاسلام المنزل فيها قوله تعالى: اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام ديناً. ويقال لها حجة الوداع لتوديع النبى صلى الله عليه وسلم فيها المسلمين وكان صلى الله عليه وسلم فى تسعين ألفاً أو مائة واربعة عشر ألفاً من المؤمنين وبعد ان علم الناس مناسكهم وارشدهم الى سنن حجهم خطب فيهم خطبته الشهيرة على عرفات وهو على ناقته القصواء فقال فيها: ان الحمد لله نحمده ونستغفره ونتوب اليه ونعوذ بالله من شرور انفسنا ومن سيئآت أعمالنا من يهد الله فلا مضل له ومن يضلل الله فلا هادى له واشهد ان لا إله إلا الله وحده لاشريك له واشهد ان محمداً عبده ورسوله. اوصيكم عباد الله بتقوى الله واحثكم على طاعة الله واستفتح بالذى هو خير. أما بعد ايها الناس اسمعوا منى أبين لكم فانى لا ادرى لعلّى لا ألقاكم بعد عامى هذا فى موقفى هذا. ايها الناس ان دماءكم واموالكم عليكم

حرام الى ان تأتوا ربكم كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ألا هل بلغت اللهم اشهد . فمن كانت عنده امانة فليؤدها الى الذى ائتمنه عليها. وان ربا الجاهلية موضوع وان اول ربا أبدأ به ربا عمى العباس بن عبد المطلب. وان دماء الجاهلية موضوعة وان اول دم ابدأ به دم عامر بن ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب. وان مآثر الجاهلية موضوعة غير السدانة والسقاية. والعمد قود وشبه العمد ماقتل بالعصا والحجر ففيه مائة بعير فمن زاد فهو من اهل الجاهلية . ايها الناس ان الشيطان قد يئس ان يعبد فى ارضكم هذا ولكنه رضى ان يطاع فيما سوى ذلك مما تحقرون من اعمالكم. ايها الناس انما النسيء زيادة فى الكفر يضل به الذين كفروا يحلونه عاماً ويحرمونه عاما ليواطؤا عدة ما حرم الله وان الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والارض وان عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً فى كتاب الله يوم خلق السموات والارض منها أربعة حرم ثلاثة متواليات وواحد فرد ذو القعدة وذو الحجة والمحرم ورجب الذى بين جمادى وشعبان

ألا هل بلغت اللهم أشهد . أيها الناس إن لنسائكم عليكم حقاً وان لكم عليهن حقاً: لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم غيركم ولا يدخلن أحداً تكرهونه بيوتكم الا باذنكم ولا يأتين بفاحشة فان فعلن فان الله أذن لكم أن تعضلوهن وتهجروهن في المضاجع وتضربوهن ضرباً غير مبرح فان انتهين وأطعنكم فعليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف. وانما النساء عندكم عوار لا يملكن شيئاً أخذتموهن بأمانة الله واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاتقوا الله في النساء واستوصوا بهن خيراً . أيها الناس انما المؤمنون اخوة فلا يحل لامرئ مال أخيه إلا عن طيب نفس ألا هل بلغت اللهم أشهد . فلا ترجعوا بعدي كفاراً يضرب بعضكم أعناق بعض فاني قد تركت فيكم ما إن أخذتم به لن تضلوا : كتاب الله وأهل بيتي ألا هل بلغت اللهم اشهد. أيها الناس ان ربكم واحد وان اباكم واحد كلكم لآدم وآدم من تراب أكرمكم عند الله اتقاكم ليس لعربي على عجمي فضل الا بالتقوى ألا هل بلغت. قالوا : نعم قال : فليبلغ الشاهد منكم الغائب . أيها الناس ان الله قسم

لكل وارث نصيبه من الميراث ولا يجوز لوارث وصية فى أكثر من الثلث والولد للفراش وللعاهر الحجر من دعى الى غير أبيه او تولى الى غير مواليه فعليه لعنة الله والملائكة والناس اجمعين لا يقبل الله منه صرفاً ولا عدلاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

هذه هى خطبة الوداع ولو اردنا شرح ماحوته من الحكم والتشريع لازم لذلك مجلدات وليس هنا موضعه

وفاته عليه السلام — وبعد ان فرغ صلى الله عليه وسلم من حجه عاد الى المدينة فأقام بها الى أواخر شهر صفر من السنة الحادية عشرة ثم اعتراه مرضه الذى توفى به. ولم تفارقه عليه الصلاة والسلام عنايته وشفقته على المسلمين حتى فى مرضه . من ذلك أنه خرج فى حال مرضه يوما مسنداً بين الفضل بن العباس وعلى بن أبى طالب قاصداً المسجد فصعد المنبر فحمد الله . ثم قال : أيها الناس من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ومن أخذت له مالاً فهذا مالى فليأخذ منه ولا يخشى الشحناء من قبلى فانها ليست من شأنى .

ونزل فصلى الظهر ورجع الى المنبر فعاد الى مقالته فادعى عليه رجل ثلاثة دراهم فأعطاه بدلها . ولما اشتد عليه مرضه استأذن أزواجه أن يمرض فى بيت عائشة أم المؤمنين فأذنّ له . وتأخر عن الصلاة بالناس ثلاثة أيام قال فى أول يوم منها مروا أبا بكر فليصل بالناس. فقالت عائشة : انه رجل رقيق وانه متى يقم مقامك لا يطيق ذلك فقال : مروا أبا بكر فليصل بالناس . فقالت : مثل ذلك فقال صلى الله عليه وسلم أنكن صواحبات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس فصلى أبو بكر بالناس ثلاثة أيام بعدها توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم لاثنتى عشر ليلة خلت من شهر ربيع الأوّل ٨ يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية فغسل وكفن فى ثلاثة أثواب وحفر له تحت فراشه صلى الله عليه وسلم ودفن فى قبره ليلة الاربعاء وله ثلاثة وستون سنة قمرية وثلاثة أيام

وتوفى عليه الصلاة والسلام مستريح البال والضمير إذ أتم العمل الذى كان دائما يفكر فيه وقام بالمهمة التى عهدها اليه ربه سبحانه وتعالى خير قيام فألف بين قلوب مختلفة وأهواء

متشتتة وأمم متفرقة وقبائل متباعضة بحيث أصبحوا بعد النفرة بنعمة الله اخوانا وأوجد وحدة قومية وجامعة دينية بين اقوام لم يعهدوها بل ولم يتخيلوها من قبل وأسس حكومة يصح ان تقول فيها إنها دستورية شورويه ملكية جمهورية امبراطورية فى آن واحد وما احراها ان تدعى بالحكومة الابوية كما لا يخفى على كل منصف وأسس ديناً هو خاتمة الأديان لأنه يأمر المتدين به ان يعمل لدنياه كأنه لا يموت أبداً ولآخرته كأنه يموت غداً فهو دين جمع بين حاجيات الدنيا وحاجيات الآخرة وهذا هو السبب الذى ساعد بالاكثر على انتشاره بالسرعة والسهولة التى عجب لها كل انسان وادهشت كل مناظر . لان الاديان المنزلة من قبله كانت إما اليهودية وهى دين دنيوى محض يقضى بأن يعامل كل انسان الآخر بمثل مايعامله به السن بالسن والعين بالعين وإما النصرانية وهى دين أخروى محض يوجب على صاحبه ان يتحمل كل شئ ويصبر على كل مكروه ويأمر من يضرب على خده اليسار ان يدير لضاربه خده اليمين وان يترك الدنيا

ويزهد فيها كل الزهد الخ .

ولا يخفى ان عاقبة السير على مقتضى كل من الدينين لا تؤدّى الى تأسيس حكومة نظامية ثابتة الاساس قوية الاركان ولقد عرف سيدنا عيسى عليه السلام كل ذلك فقال: لا تظنوا أنى جئت لالقى بينكم سلماً كلاّ بل سيفا . ولا يمكن فى الحقيقة ونفس الامر أن يكون إلاّ ما تنبأ به . فأوجد الله الاسلام جامعاً بين الدينين يأمر بالقصاص والعفو ويكلف الناس بالعمل للدنيا والآخرة وجعل المسلمين أمة وسطا فهو دين يطابق كل زمان وكل مكان يقبله العقل ويوافق كل ذوق سليم ولذلك قبله عقلاء العرب وتبعهم فى ذلك جم غفير من الاقوام الآخرين وما زال ولن يزال ينتشر بسرعة غريبة بدون مبشرين ولا مرسلين مما جعل الفرنج يتخوّفون من نتيجة ذلك الانتشار ويبحثون عن السر فيه ويجتهدون فى ايقاف تياره ولكنهم عبثاً يحاولون ذلك اذ أنّى لهم أن يقفوا فى سبيله وهو ما صادف قلباً إلا تمكن منه ولا يسع أحداً ان ينزعه منه بشهادة كثيرين من الباحثين فى هذا الموضوع وافاضل

علماء الفرنج فلا جرم اذا كان الاسلام خاتمة الاديان وحسبنا دليلاً على أن مرجع العالم كله اليه والى مباديه ما نراه من افتقار العالم أو بعبارة أخرى افتقار الدول العريقة فى التمدن كما تسمى نفسها الى الرجوع الى بعض أحكامه من حين لآخر وإلاّ أليس فى محاولة إدخال الطلاق والخدمة العسكرية الجبرية فى القوانين الاوربية الحديثة رجوع الى مبادئ الدين الاسلامى الذى طالما رماه بعض المتعصبين الجاهلين بالهمجية والتوحش؟ وأليس فى تلك الحقوق والامتيازات التى تطلبها نساء الفرنج ويسعى فى تقريرها لهن بعض متشرعى أوروبا رجوع كذلك لما منحه ذلك الدين منذ ثلاثة عشر قرنا لزميلاتهن المسلمات؟ وأليس ما نراه للآن بين دول أوروبا المسيحية التى يأمرها دينها بتحمل الضير والصبر على الذل والمكروه وعدم المقاتلة حتى مع أعدائهم من تلك الحروب التى تنشبها استحسان لما ورد فى الدين الاسلامى ورجوع اليه مع أنهم يستقبحون ذلك من المسلمين لو جاء منهم ويعدّونه توحشاً وهمجية؟ ولو تدبروا الامر لوجدوا الاسلام

لم يفرض الجهاد إلا لإعلاء كلمة الله والحق التى هى أساس كل مدنية ومصدر الانسانية وشتان بين هذا المقصد ومقصد حشد الجيوش وازهاق النفوس لاغتصاب البلاد واستعباد الانسان للأغراض الدنيوية المحضة كما هو شأن تلك الدول المتمدنة ولكنهم لغايات فى النفس ممن ينظرون للقذى الذى فى عين غيرهم ولا ينظرون للخشبة التى فى أعينهم ! ! !

سيرته عليه السلام بعد بعثته لحين وفاته — كان صلى الله عليه وسلم بشهادة ربه جل وعلا على خلق عظيم ولا يدفع السيئة بالسيئة وكان سديد الرأى وافر الحلم لباسه السكينة وشعاره البر والتقوى ومعقوله الحكمة وطبيعته الصدق والوفاء وخلقه العفو والمعروف وسيرته العدل وشريعته الحق وامامه الهدى وملته الاسلام استكمل الاوصاف الجبلية والكسبية من كمال خلقته وقوّة عقله وصحة فهمه وفصاحة لسانه وقوّة حواسه وشرف نسبه وعزة قومه وكرم أرضه وقوّة جأشه وتخلقه بالاخلاق العلية وكان راجح الرأى يعلم

ذلك من تدبيره أمر بواطن الخلق وظواهرهم وسياسته العامة والخاصة وما أفاضه على العالم من العلوم وقرره من الشرع من غير سبق تعلم. فأعجب به من أمى بلغ فى العلم الغاية القصوى كما يعلم من جوامع كلمه وحكم حديثه وقضايا أحكامه وأخباره عما فى التوراة والانجيل والكتب المنزلة وحكم الحكماء وسير الامم الخالية وأيامها وضرب الأمثال وسياسة الأنام وذلك فضل الله كما قال: «وعلمك ما لم تكن تعلم وكان فضل الله عليك عظيماً» وكان قليل النوم قليل الغذاء لم يمتلئ بطنه شبعا قط لا يسأل أهله طعاماً ولا يشتهيه إن أطعموه أكل وما سقوه شرب يجلس للأكل مستوفزاً مقعياً ويقول: «انما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد» لم يبق جوده فى يده شيئاً من المال فقد فتح عليه فى حياته بلاد الحجاز واليمن وكل جزيرة العرب وما تاخمها من أطراف الشام والعراق وجابت اليه أخماسها وجزيتها وصدقتها وسيقت اليه الغنائم وهداه بعض الملوك بالتحف وما استأثر بشئ من هذا ولا أمسك منه درهما ولا ديناراً بل صرفه فى جهته

وأغنى به غيره وقوى به المسلمين . وقال : ما يسرنى أن لى أحداً ذهباً يبيت عندى منه دينار الا ديناراً أرصده لدينى . وكان يلبس ماوجده ويلبس فى الغالب الشملة والكساء الخشن والبرد الغليظ ويقسم على من حضره أقبية الديباج المخوصة بالذهب ويرفع منها لمن لم يحضره . قد جبل على مكارم الأخلاق بجود إلهى وفضل ربانى . وكان يؤلف بين الناس ولا ينفرهم ولو كان فظاً غليظ القلب لانفضوا من حوله وكان يكرم كريم كل قوم ويوليه عليهم ويحذر الناس ويحترس منهم قد وسع الناس خلقه وبسطه فصار لهم أباً وصاروا عنده فى الحق سواء يجيب دعوة الحر والعبد والأمة والمسكين ويعود المرضى فى أقصى المدينة ويقبل عذر المعتذر ويبدأ من لقيه بالسلام وأصحابه بالمصافحة ما رؤى قط مادّا رجليه بين أصحابه يكرم من يدخل عليه وربما بسط له ثوبه ويؤثره بالوسادة التى تحته ويعزم عليه فى الجلوس عليها إن أبى ويكنى أصحابه ويدعوهم بأحب أسمائهم تكرمة ولا يقطع على احد حديثه وكان يكره نقل أحاديث الناس اليه ونهى عن ذلك . فقال :

لا يبلغني احد منكم عن احد من أصحابي شيئاً فاني أحب أن أخرج اليكم وأنا سليم الصدر . يصل ذوي رحمه من غير ان يؤثرهم على من هم أحق منهم . يتواضع بين اصحابه تواضع احدهم لرفيقه ويجلس حيثما انتهى به المجلس وفي بيته يكون في مهنة اهله. وكان مجلسه مجلس حلم وعلم وحياء وخير وأمانة إذا تكلم أطرق جلساؤه كأن على رؤسهم الطير لا يحب التوسع في المآكل والمشارب والفرش زهداً في الدنيا وزخرفها ولذائذها. وكان خوفه من ربه على قدر علمه به تعالى قد أبان طريقته المثلى في جوامع كلمه حيث قال: «المعرفة رأس مالي والعقل اصل ديني والحب اساسي والشوق مركبي وذكر الله انيسي والثقة كنزي والحزن رفيقي والعلم سلاحي والصبر ردائي والرضا غنيمتي والعجز فخري والزهد حرفتي واليقين قولي والصدق شفيعي والطاعة حسبي والجهاد خلقي وقرة عيني في الصلاة وثمرة فؤادي في ذكره وغمي لاجل أمتي وشوقي إلى ربي عز وجل » يعظم النعمة وان دقت وما انتصر لنفسه قط من مظلمة ظلمها ما لم تكن حرمة من

جرمات الله تعالى واقد صبر على معاداة قريش ومقاساة تحاماها واذى الجاهلية ومصابرة الشدائد الصعبة معهم إلى ان اظفره الله عليهم وحكمه فيهم وهم لايشكون فى استئصاله شأفتهم فما زاد على ان عفا وصفح يوم فتح مكة وقال: ماتقولون انى فاعل بكم؟ قالوا خيراً اخ كريم وابن اخ كريم. فقال: اقول كما قال اخى يوسف لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم اذهبوا فأنتم الطلقاء . وكان يجالس المرضى وذوى العاهات ويؤآكلهم ويكلم كل قبيلة بلغتها ويكتب الى ملوك العرب ورؤساء القبائل والاقيال بلغاتهم ويكرم الوفود على اى دين كانوا ويجادل بالحسنى ويناظر مع ملاحظة الآداب . وهو يصمت عند تطاول السفهاء ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر وبالجمله فقد كان على جانب عظيم من اللين يطمع الطفل ان يقعد فى حجره ويعبث فى ردائه وله هيبة فى القلوب كأنه ملك محاط بجنود واعوان دخل عليه فى بيته رجل فأخذته الهيبة فارتعد فقال له: هوّن عليك فانما انا ابن امرأة تأكل القديد. وهـذا منتهى الحلم ومكارم الاخلاق وكان مع ذلك

شجاعاً بطلاً أظهر من البسالة وحسن التدبير فى حروبه ما شهد له به الأعداء قديماً وحديثاً وكل ذلك ولا شك بتوفيق من الله سبحانه وتعالى



الفصل الثانى

القرآن وكونه معجزا — الدين الاسلامى او الاسلام — انتشار الاسلام بسرعة عجيبة لم يسبق لها مثيل فى التاريخ

القرآن وكونه معجزا — القرآن هو الكلام العربي المنزل على محمد صلى الله عليه وسلم المتحدى بأقصر سورة منه المنقول تواتراً وهو من معجزاته عليه الصلاة والسلام وذلك أنه لما كانت معجزة كل نبي من جنس ما غلب على اهل زمانه وتهالكوا عليه وتفاخروا به كالسحر فى زمن موسى والطب فى زمن عيسى والموسيقى فى زمن داود وكان زمن نبينا صلى الله عليه وسلم زمن فصاحة وبلاغة كانت معجزته القرآن المجيد الذى عجز فصحاء العرب وبلغاؤهم عن معارضته مع كونهم أحق بها إن أمكنت لكثرة اشتغالهم بما يناسب

ذلك وكمالهم فيه وفرط اهتمامهم بالمعارضة وتوفر دواعيهم وقد تحدى عليه السلام بما فيه من الأعجاز ودعاهم الى معارضته والاتيان بسورة من مثله فنكلوا عنه وعجزوا عن الاتيان بشيء منه . قال بعض العلماء : ان الذى أورده عليه السلام على العرب من الكلام الذى عجزهم عن الاتيان بمثله اعجب فى الآية وأوضح فى الدلالة من إحياء الموتى وابراء الاكمه والابرص لانه أتى اهل البلاغة وارباب الفصاحة ورؤساء البيان والمتقدمين فى اللسن بكلام مفهوم المعنى عندهم وكان عجزهم عنه أعجب من عجز من شاهد المسيح عند إحياء الموتى لانهم لم يكونوا يطمعون فيه ولا فى ابراء الاكمه والابرص مما لا يتعاطون علمه وقريش كانت تتعاطى الكلام الفصيح والبلاغة والخطابة فدل على ان العجز عنه انما كان ليصير علماً على رسالته وحجة لنبوته وقد ورد من الاخبار فى قراءة النبي صلى الله عليه وسلم لبعض ما نزل عليه على المشركين الذين كانوا من أهل الفصاحة والبلاغة وإقرارهم بأعجازه جمل كثيرة فمنها ما روى عن محمد بن كعب قال حدثت ان عتبة

بن ربيعة قال ذات يوم وهو جالس فى نادى قريش ورسول الله صلى الله عليه وسلم جالس وحده فى المسجد: يا معشر قريش ألا أقوم الى هذا فأعرض اليه أموراً لعله ان يقبل منا بعضها ويكف عنا؟ قالوا بلى يا أبا الوليد. فقام عتبة حتى جلس الى رسول الله صلى الله عليه وسلم فذكر الحديث فيما قاله عتبة وفيما عرضه عليه من المال وغير ذلك فلما فرغ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أفرغت يا أبا الوليد؟ قال نعم: قال فاسمع منى. قال افعل. فقال: بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم... حتى بلغ قرآنا عربياً فمضى رسول الله صلى الله عليه وسلم يقرؤها فلما سمعها عتبة أنصت لها وألقى بيديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه حتى انتهى رسول الله صلى الله عليه وسلم الى السجدة فسجد فيها ثم قال: سمعت يا أبا الوليد؟ قال سمعت فأنت وذاك! وقام عتبة الى أصحابه فقال بعضهم لبعض يحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به فلما جلس اليهم قالوا ما وراءك يا أبا الوليد؟ قال إنى والله قد سمعت قولاً ما سمعت بمثله قط!

والله ماهو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة. يا معشر قريش أطيعوني خلوا بين هذا الرجل وبين ماهو فيه فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ . قال فاجابني بشيء والله ما هو بسحر ولا بشعر ولا كهانة قرأ بسم الله الرحمن الرحيم حم تنزيل من الرحمن الرحيم حتى بلغ فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود فأمسكت فمه وناشدته الرحم ان يكف وقد علمت أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب نخفت ان ينزل بكم العذاب. وعن عكرمة في قصة الوليد بن المغيرة — وكان زعيم قريش في الفصاحة — أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم اقرأ علىّ فقرأ عليه ان الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى الى آخر الآية قال أعد فأعاد صلى الله عليه وسلم فقال والله ان له لحلاوة وإن عليه لطلاوة وان اعلاه لمثمر وان أسفله لمغدق وما يقول هـذا بشر ! ثم قال لقومه والله ما فيكم رجل أعلم بالاشعار مني ولا أعلم برجزه ولا باشعار الجن والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا وانه ليعلو وما يعلى. وروى عن رجل من بني سلمة قال لما أسلم فتيان بني سلمة قال عمرو بن الجموح

لابنه أخبرني ما سمعت من كلام هذا الرجل فقرأ عليه: الحمد لله رب العالمين الى قوله الصراط المستقيم فقال ما أحسن هذا وأجمله! أو كل كلامه مثل هذا قال يا أبت واحسن من هذا. وقال بعضهم ان هذا القرآن لو وجد مكتوبا في مصحف في فلاة من الارض ولم يعلم من وضعه هناك لشهدت العقول السليمة أنه منزل من عند الله وان البشر لا قدرة لهم على تأليف مثل ذلك. وقد كان بودنا ان نوفي هذا الموضوع حقه ونتكلم على الدين الاسلامي وما حوى من حكم وآداب وفضائل ولكن اطلعنا على كلام في هذا الصدد وفي انتشار الاسلام لحضرة صاحب الفضيلة الاستاذ الشيخ محمد عبده المصري مفتي الديار المصرية حالاً فآثرنا نقله برمته هنا اتماماً للفائدة فلقد اجاد فيما قال جزاه الله عن الاسلام والمسلمين خيراً خصوصاً وفضيلته حجة في هذا الموضوع قال حفظه الله في رسالة التوحيد التي طبعها ما يأتي تحت عنوان القرآن

جاءنا الخبر المتواتر الذي لا تطرق اليه الريبة أن النبي صلى الله عليه وسلم كان في نشأته وأميته على الحال التي ذكرنا

وتواترت أخبار الأمم كافة على أنه جاء بكتاب قال انه أنزل عليه وان ذلك الكتاب هو القرآن المكتوب فى المصاحف المحفوظ فى صدور من عنى بحفظه من المسلمين الى اليوم

كتاب حوى من أخبار الامم الماضية ما فيه معتبر للاجيال الحاضرة والمستقبلة نقب على الصحيح منها وغادر الأباطيل التى ألحقتها الاوهام بها ونبه على وجوه العبرة فيها. حكى عن الانبياء ما شاء الله ان يقص علينا من سيرهم وما كان بينهم وبين أممهم وبرأهم مما رماهم به اهل دينهم المعتقدون برسالاتهم

آخذ العلماء من الملل المختلفة على ما أفسدوا من عقائدهم وما خلطوا فى أحكامهم وما حرفوا بالتأويل فى كتبهم. وشرع للناس أحكاماً تنطبق على مصالحهم وظهرت الفائدة فى العمل بها والمحافظة عليها وقام بها العدل وانتظم بها شمل الجماعة ما

كانت عند حدّ ما قرّره ثم عظمت المضرة فى إهمالها والانحراف عنها أو البعد بها عن الروح الذى أودعته ففاقت بذلك جميع الشرائع الوضعية كما يتبين للناظر فى شرائع الامم ثم جاء بعد ذلك بحكم ومواعظ وآداب تخشع لها القلوب وتهش لاستقبالها

العقول وتنصرف وراءها الهمم انصرافها فى السبيل الأمم . نزل القرآن فى عصر اتفق الرواة وتواترت الاخبار على أنه أرقى الاعصار عند العرب وأغزرها مادّة فى الفصاحة وأنه الممتاز بين جميع ماتقدّمه بوفرة رجال البلاغة وفرسان الخطاب . وانفس ما كانت العرب تتنافس فيه من ثمار العقل ونتائج الفطنة والذكاء هو الغلب فى القول والسبق الى إصابة مكان الوجدان من القلوب ومقرّ الاذعان من العقول وتفانيهم فى المفاخرة بذلك مما لا يحتاج الى الاطاله فى بيانه . تواتر الخبر كذلك بما كان منهم من الحرص على معارضة النبي صلى الله عليه وسلم والتماسهم الوسائل قريبها وبعيدها لابطال دعواه وتكذيبه فى الاخبار عن الله واتيانهم فى ذلك على مبلغ استطاعتهم وكان فيهم الملوك الذين تحملهم عزة الملك على معاندته والامراء الذين يدعوهم السلطان الى مناواته والخطباء والشعراء والكتاب الذين يشمخون بأنوفهم عن متابعته وقد اشتدّ جميع أولئك فى مقاومته وانهالوا بقواهم عليه استكباراً عن الخضوع له وتمسكاً بما كانوا عليه من أديان آبائهم وحمية

لعقائدهم وعقائد اســلافهم وهو مع ذلك يخطئ آرائهم ويسفه احلامهم ويحتقر اصنامهم ويدعوهم الى ما لم تعهده أيامهم ولم تخفق لمثله اعلامهم ولا حجة له بين يدى ذلك كله إلا تحديهم بالاتيان بمثل أقصر سورة من ذلك الـكتاب أو بعشر سور من مثله وكان فى استطاعتهم ان يجمعوا اليه من العلماء والفصحاء البلغاء ما شاؤا ليأتوا بشئ من مثل ما أتى به ليبطلوا الحجة ويفحموا صاحب الدعوة؛ جاءنا الخبر المتواتر أنه مع طول زمن التحدى ولجاج القوم فى التعدى أُصيبوا بالعجز ورجعوا بالخيبة وحقت للـكتاب العزيز الكلمة العليا على كل كلام وقضى حكمه العلىّ على جميع الاحكام . أليس فى ظهور مثل هذا الكتاب على لسان أمىّ أعظم معجزة وأدل برهان على أنه ليس من صنع البشر وانما هو النور المنبعث عن شمس العالم الالهى والحكم الصادر عن المقام الربانى على لسان الرسول الامىّ صلوات الله عليه(١) هذا وقد جاء فى الكتاب

---

(١) مما يضحك الثكلى ان يقوم من بين علماء الفرنج فى هذه الايام مدع يجهل طبعاً حقيقة ما يقول يزعم ان القرآن غير فصيح

من أخبار الغيب ما صدّقته حوادث الكون كالخبر في قوله غلبت الروم فى أدنى الارض وهم من بعد غلبهم سيغلبون فى بضع سنين وكالوعد الصريح فى قوله : وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الارض كما استخلف الذين من قبلهم... الآية وقد تحقق جميع ذلك وفى القرآن كثير من مثل هذا يحيط به من يتلوه حق تلاوته . ومن الكلام عن الغيب فيه ما جاء فى تحدّى العرب به واكتفائه فى الرجوع عن دعواه بأن يأتوا بسورة من مثله مع سعة البلاد العربية ووفرة سكانها وتباعد أطرافها وانتشار دعوته على لسان الوافدين الى مكة من جميع ارجائهم. ومع أنه لم يسبق له صلى الله عليه وسلم السياحة فى نواحيها والتعرف برجالها وقصور العلم البشرى عادة عن الاحاطة بما أودع فى قوى أمة عظيمة

وانه لم ينزل بلغة العرب الفصحى!! ويقوم بكل تبجح يخطب فى مؤتمر المستشرقين الذى انعقد فى هذا العام — سنة ١٩٠٥ — ببلاد الجزائر بمثل . هـذه الاراجيف والاضاليل ولكن لله در مندوبى مصر فقد أوقفوه عند حده وردوا كيده فى نحره .

كالامة العربية فهذا القضاء الحاتم منه بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ما تحدّاهم به ليس قضاء بشرياً ومن الضرب بل من المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الارض لاتخلو من صاحب قوّة مثل قوّته وانما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه وقد أحاط علمه بقصور جميع القوى عن تناول ما استنهضهم له وبلوغ ما حثهم عليه . يقول واهم إن العجز حجة على من عجز فان العجز هي حجة الافحام والزام الخصم وقد يلتزم الخصم ببعض المسلمات عنده فيفحم ويعجز عن الجواب فتلزمه الحجة ولكن ليس ذلك بملزم لغيره فمن الممكن أن لا يسلم غيره بما سلمه فلا يفحمه الدليل بل يجد الى ابطاله أقرب سبيل وهو وهم يضمحل بما قدّمناه من البيان اذ لا يوجد من المشابهة بين إعجاز القرآن وإفحام الدليل إلا أنه يوجد عن كل منهما عجز وشتان بين العجزين وبَعُدَ ما بين وجهتي الاستدلال فيهما فان إعجاز القرآن برهن على أمر واقعي وهو تقاصر

القوى البشرية دون مكانته من البلاغة. وقلنا القوى البشرية لأنه جاء بلسان عربي. وقد عرف الكتاب عند جميع العرب في عهد النبوّة وكان حال العصر من البلاغة كما ذكرنا وحال القوم في العناد كما بينا ومع ذلك لم يمكن للعرب أن يعارضوه بشيء من مبلغ عقولهم فلا يعقل أن فارسياً أو هندياً أو رومانياً يبلغ من قوّة البلاغة في العربية ان يأتى بما عجز عنه العرب أنفسهم وتقاصر القوى جميعها عن ذلك مع التماثل بين النبي وبينهم في النشأة والتربية وامتياز الكثير منهم بالعلم والدراسة دليل قاطع على أن الكلام ليس مما اعتيد صدوره عن البشر فهو اختصاص من الله سبحانه لمن جاء على لسانه ثم ما ورد في القرآن من تسجيل العجز عليهم والتعرّض للاصطدام بجميع ما أوتوا من قوّة مما يدل على الثقة من أمره مع ما سبق تعداده من الامور التى لا يمكن معها لعاقل أن يقف ذلك الموقف مع طول الزمن وانفساح الاجل كل ذلك يدل على أن الناطق هو عالم الغيب والشهادة لا رجل يعظ وينصح على العادة. فثبت بهذه المعجزة العظمى وقام الدليل بهذا الكتاب

الباقى الذى لا يعرض عليه التغيير ولا يتناوله التبديل أن نبينا محمداً صلى الله عليه وسلم رسول الله الى خلقه فيجب التصديق برسالته والاعتقاد بجميع ما ورد فى الكتاب المنزل عليه والاخذ بكل ما ثبت عنه من هدى وسنة متبعة وقد جاء فى الكتاب أنه خاتم الانبياء فوجب علينا الايمان بذلك كذلك

بقى علينا ان نشير الى وظيفة الدين الاسلامى وما دعا اليه على وجه الاجمال وكيف انتشرت دعوته بالسرعة المعروفة والسر فى كون النبي صلى الله عليه وسلم خاتم المرسلين صلوات الله عليهم أجمعين

الدين الاسلامى أو الاسلام — هو الدين الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم وعقله من وعاه عنه من صحابته ومن عاصرهم وجرى العمل عليه حيناً من الزمن بينهم بلا خلاف ولا اعتساف فى التأويل ولا ميل مع الشيع وإنى مجمله فى هذا الباب مقتدياً بالكتاب المجيد فى التفويض لذوى البصائر أن يفصلوه وما سندى فيما أقول الا الكتاب والسنة القويمة وهدى الراشدين

جاء الدين الاسلامى بتوحيد الله تعالى فى ذاته وأفعاله وتنزيهه عن مشابهة المخلوقين فأقام الادلة على ان للكون خالقاً واحداً متصفاً بما دلت عليه آثار صنعه من الصفات العالية كالعلم والقدرة والارادة وغيرها وعلى أنه لا يشبهه شئ من خلقه وأن لا نسبة بينه وبينهم الا أنه موجدهم وأنهم له واليه راجعون « قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد » وما ورد من ألفاظ الوجه واليدين والاستواء ونحوها له معان عرفها العرب المخاطبون بالكتاب ولم يشتبهوا فى شئ منها وان ذاته وصفاته يستحيل عليها أن تبرز فى جسد أو روح أحد من العالمين وانما يختص سبحانه من شاء من عباده بما شاء من علم وسلطان على ما يريد أن يسلطه عليه من الأعمال على سنة له فى ذلك سنها فى علمه الازلى الذى لا يعتريه التبديل ولا يدنو منه التغيير وحظر على كل ذى عقل أن يعترف لأحد بشئ من ذلك إلا ببرهان ينتهى فى مقدّماته الى حكم الحس وما جاوره من البديهيات التى لا تنقص عنه فى الوضوح بل قد تعلوه

كاستحالة الجمع بين النقيضين أو ارتفاعهما معاً أو وجوب ان الـكل أعظم من الجزء مثلاً وقضى على هؤلاء كغيرهم بأنهم لا يملكون لانفسهم نفعاً ولا ضرًّا وغاية أمرهم أنهم عباد مكرمون وأن مايجريه على أيديهم فانما هو باذن خاص وبتيسير خاص فى موضع خاص لحكمة خاصة ولا يعرف شأن الله فى شئ من هذا الا ببرهان كما تقدّم

دل هذا الدين بمثل قول الكتاب « والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والابصار والافئدة لعلكم تشكرون » والشكر عند العرب معروف أنه تصريف النعمة فيما كان الانعام بها لاجله دل بمثل هذا على أن الله وهبنا من الحواس وغرز فينا من القوى ما نصرفه فى وجوهه بمحض تلك الموهبة فكل شخص كاسب لعمله بنفسه لها أو عليها وأما ماتتحير فيه مداركنا وتقصر دونه قوانا وتشعر فيه أنفسنا بسلطان يقهرها أو ناصر يمدّها فيما أدركها العجز عنه على انه فوق ماتعرف من القوى المسخرة لها وكان لا بد من الخضوع له والرجوع اليه والاستعانة به فذلك انما

يردّ الى الله وحده فلا يجوز أن تخشع الا له ولا أن تطمئن إلا اليه وكذلك جعل شأنها فيما تخافه وترجوه مما تقبل عليه فى الحياة الآخرة لا يسوغ لها أن تلجأ الى أحد غير الله فى قبول أعمالها من الطيبات ولا فى غفران أفاعيلها من السيئات فهو وحده مالك يوم الدين

اجتثت بذلك جذور الوثنية وما وليها مما لو اختلف عنها فى الصورة والشكل أو العبارة واللفظ لم يختلف عنها فى المعنى والحقيقة تبع هذا طهارة العقول من الاوهام الفاسدة التى لا تنفك عن تلك العقيدة الباطلة ثم تنزه النفوس عن الملكات السيئة التى كانت تلازم تلك الاوهام وتخلصت بتلك الطهارة من الاختلاف فى المعبودين وعليهم وارتفع شأن الانسان وسمت قيمته بما صار اليه من الكرامة بحيث أصبح لا يخضع لاحد إلاّ لخالق السموات والارض وقاهر الناس أجمعين وأبيح لكل أحد بل فرض عليه أن يقول كما قال ابراهيم « انى وجهت وجهى للذى فطر السموات والارض حنيفاً وما أنا من المشركين » وكما أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم

أن يقول « ان صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أوّل المسلمين »

تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة واطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره سواء كانت ارادة بشرية ظن انها شعبة من الارادة الالهية أو أنها هى كارادة الرؤساء والمسيطرين أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور والأحجار والاشجار والكواكب ونحوها وافتكت عزيمته من أسر الوسائط والشفعاء والمتكهنة والعرفاء وزعماء السيطرة على الاسرار ومنتحلى حق الولاية على أعمال العبد فيما بينه وبين الله الزاعمين أنهم واسطة النجاة وبأيديهم الاشقاء والاسعاد وبالجملة فقد أعتقت روحه من العبودية للمحتالين والدجالين وصار الانسان بالتوحيد عبد الله خاصة حرا من العبودية لكل ما سواه فكان له من الحق ما للحر على الحر لا علىّ فى الحق ولا وضيع ولا سافل ولا رفيع ولا تفاوت بين الناس إلا بتفاوت أعمالهم ولا تفاضل الا بتفاضلهم فى عقولهم ومعارفهم ولا يقربهم من الله الا طهارة العقل من

دنس الوهم وخلوص العمل والعوج والرياء ثم بهذا خلصت أموال الكاسبين وتمحض الحق فيها للفقراء والمساكين والمصالح العامة وكفت عنها أيدى العالة واهل البطالة ممن كان يزعم الحق فيها بصفته ورتبته لا بعمله وخدمته .

طالب الاسلام بالعمل كل قادر عليه وقرّر ان لكل نفس ما كسبت وعليها ما اكتسبت « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » « وان ليس للانسان الا ما سعى » وأباح لكل أحد أن يتناول من الطيبات ما شاء أكلاً وشرباً ولباساً وزينة ولم يحظر عليه الا ما كان ضارًّا بنفسه أو بمن يدخل فى ولايته أو ما تعدّى ضرره الى غيره وحدّد له فى ذلك الحدود العامة بما ينطبق على مصالح البشر كافة فكفل الاستقلال لكل شخص فى عمله واتسع المجال لتسابق الهمم فى السعى حتى لم يعد لها عقبة تتعثر بها الهمم الا حقاً محترماً تصطدم به . أنحى الاسلام على التقليد وحمل عليه حملة لم يردّها عنه القدر فبدّدت فيالقه المتغلبة على النفوس واقتلعت أصوله الراسخة فى المدارك

ونسفت ما كان له من دعائم وأركان فى عقائد الأمم صاح بالعقل صيحة أزعجته من ثباته وهبت به من نومة طال عليه الغيب فيها كلما نفذ اليه شعاع من نور الحق خلصت اليه هينمة من سدنة هيا كل الوهم « نم فان الليل حالك والطريق وعرة والغاية بعيدة والراحلة كليلة والازواد قليلة » علا صوت الاسلام على وساوس الطغام وجهر بأن الانسان لم يخلق ليقاد بالزمام ولكنه فطر على أن يهتدى بالعلم والاعلام أعلام الكون ودلائل الحوادث وانما المعلمون منبهون ومرشدون والى طرق البحث هادون صرّح فى وصف أهل الحق بأنهم « الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه » فوصفهم بالتمييز بين ما يقال من غير فرق بين القائلين ليأخذوا بما عرفوا حسنه ويطرحوا ما لم يتبينوا صحته ونفعه ومال على الرؤساء فأنزلهم من مستوى كانوا فيه يأمرون وينهون ووضعهم تحت أنظار مرؤسيهم يختبرونهم كما يشاؤن ويمتحنون مزاعمهم حسبما يحكمون ويقضون فيها بما يعلمون ويتيقنون لا بما يظنون ويتوهمون . صرف القلوب عن التعلق بما كان

عليه الآباء وما توارثه عنهم الابناء وسجل الحمق والسفاهة على الآخذين بأقوال السابقين ونبه الى أن السبق فى الزمان ليس آية من آيات العرفان ولا مسمياً لعقول على عقول ولا لأذهان على أذهان وإنما السابق واللاحق فى التمييز والفطرة سيان بل للاحق من علم الاحوال الماضية واستعداده للنظر فيها والانتفاع بما وصل اليه من آثارها فى الكون مالم يكن لمن تقدمه من اسلافه وآبائه وقد يكون من تلك الآثار التى ينتفع بها أهل الجيل الحاضر ظهور العواقب السيئة لاعمال من سبقهم وطغيان الشر الذى وصل اليهم بما اقترفه سلفهم «قل سيروا فى الارض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين» وان أبواب فضل الله لم تغلق دون طالب ورحمته التى وسعت كل شئ لن تضيق عن دائب . عاب أرباب الاديان فى اقتفائهم أثر آبائهم ووقوفهم عند ما اختطته لهم سير أسلافهم وقولهم « بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا » « انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مهتدون »

فأطلق بهذا سلطان العقل من كل ما كان قيده وخلصه

من كل تقليد كان استعبده وردّه الى مملكته يقضى فيها بحكمه وحكمته مع الخضوع مع ذلك لله وحده والوقوف عند شريعته ولا حدّ للعمل فى منطقة حدودها ولا نهاية للنظر يمتدّ تحت بنودها . بهذا وما سبقه تمّ للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما وهما استقلال الارادة واستقلال الرأى والفكر وبهما كملت له انسانيته واستعدّ لان يبلغ من السعادة ما هيأ الله له بحكم الفطرة التى فطر عليها وقد قال بعض حكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الاصلين فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير انفسهم وأن لهم حقاً فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم ولم يصل اليهم هذا النوع من العرفان الا فى الجيل السادس عشر من ميلاد المسيح وقرر ذلك الحكيم أنه شعاع سطع عليهم من آداب الاسلام ومعارف المحققين من أهله فى تلك الازمان . رفع الاسلام بكتابه المنزل ما كان قد وضعه رؤساء الاديان من الحجر على عقول

المندينين فى فهم الكتب السماوية استئثاراً من أولئك الرؤساء بحق الفهم لانفسهم وضنابه على كل من لم يلبس لباسهم ولم يسلك مسلكهم لنيل تلك الرتب المقدسة ففرضوا على العامة أو أباحوا لهم أن يقرؤا قطعاً من تلك الكتب لكن على شريطة أن لا يفهموها ولا أن يطيلوا أنظارهم الى ماترمى اليه ثم غالوا فى ذلك فحرموا أنفسهم أيضاً مزية الفهم الا قليلاً ورموا عقولهم بالقصور عن ادراك ماجاء فى الشرائع والنبوات ووقفوا كما وقفوا بالناس عند تلاوة الالفاظ تعبداً بالاصوات والحروف فذهبوا بحكمة الارسال فجاء القرآن يلبسهم عارماً فعلوا فقال « ومنهم أميون لايعلمون الكتاب الا أمانىّ وإن هم الا يظنون » « مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين » أما الامانى ففسرت بالقراآت والتلاوات أى لا يعلمون منه الا أن يتلوه . واذا ظنوا أنهم على شئ مما دعا اليه فهو عن غير علم بما أودعه وبلا برهان على ما تخيلوه عقيدة وظنوه ديناً واذا عنّ لاحدهم أن يبين شيئاً

من أحكامه ومقاصده لشهوة دفعته الى ذلك جاء فيما يقول بما ليس منه على بينة واعتسف فى التأويل وقال هذا من عند الله « فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمناً قليلا » أما الذين قال انهم لم يحملوا التوراة وهى بين أيديهم بعد ما حملوها فهم الذين لم يعرفوا منها الا الالفاظ ولم تسم عقولهم الى درك ما أودعته من الشرائع والاحكام فعميت عليهم بذلك طرق الاهتداء بها وطمست عن أعينهم أعلام الهداية التى نصبت بانزالها فحق عليهم ذلك المثل الذى أظهر شأنهم فيما لا يليق بنفس بشرية أن تظهر به مثل الحمار الذى يحمل الكتب ولا يستفيد من حملها إلا العناء والتعب وقصم الظهر وانبهار النفس وما أشنع شأن قوم انقلبت بهم الحال فما كان سبباً فى إسعادهم وهو التنزيل والشريعة أصبح سبباً فى شقائهم بالجهل والغباوة وبهذا التقريع ونحوه وبالدعوة العامة الى الفهم وتمحيص الالباب للتفقه واليقين مما هو منتشر فى القرآن العزيز فرض الاسلام على كل ذى دين ان يأخذ بحظه من علم ما اودع الله فى كتبه

وما قرّر من شرعه وجعل الناس فى ذلك سواء بعد استيفاء الشرط باعداد ما لا بد منه للفهم وهو سهل المنال على الجمهور الاعظم من المتدينين لا تختص به طبقة من الطبقات ولا يحتكر مزيته وقت من الاوقات

جاء الاسلام والناس شيع فى الدين وإن كانوا إلا قليلا فى جانب عن اليقين يتنابزون ويتلاعنون ويزعمون فى ذلك أنهم بحبل الله مستمسكون فرقة وتخالف وشغب يظنونها فى سبيل الله أقوى سبب انكر الاسلام ذلك كله وصرّح تصريحاً لا يحتمل الريبة بأن دين الله فى جميع الازمان وعلى ألسن جميع الانبياء واحد قال الله: «ان الدين عند الله الاسلام وما اختلف الذين أوتوا الكتاب إلا من بعد ما جاءهم العلم بغياً بينهم» «ما كان ابراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً وما كان من المشركين» «شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذين أوحينا اليك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم اليه» «قل يا أهل الكتاب تعالوا

الى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتخذ بعضنا بعضاً ارباباً من دون الله فان تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون » وكثير من ذلك يطول ايراده فى هذه الوريقات والآيات الكريمة التى تعيب على أهل الدين ما نزعوا اليه من الاختلاف والمشاقة مع ظهور الحجة واستقامة المحجة لهم فى علم ما اختلفوا فيه معروفة لكل من قرأ القرآن وتلاه حق تلاوته . نص الكتاب على أن دين الله فى جميع الازمان هو إفراده بالربوبية والاستسلام له وحده بالعبودية وطاعته فيما امر به ونهى عنه مما هو مصلحة للبشر وعماد لسعادتهم فى الدنيا والآخرة وقد ضمنه كتبه التى انزلها على المصطفين من رسله ودعا العقول الى فهمه منه والعزائم الى العمل به وان هذا المعنى من الدين هو الاصل الذى يرجع اليه عند هبوب ريح التخالف وهو الميزان الذى توزن به الاقوال عند التناصف وان اللجاج والمراء فى الجدل فراق مع الدين وبعد عن سنته ومتى روعيت حكمته ولوحظ جانب العناية الالهية فى الانعام على البشر به ذهب الخلاف وتراجعت

القلوب الى هداها وسار الكافة فى مراشدهم اخوانا بالحق مستمسكين وعلى نصرته متعاونين . أما صور العبادات وضروب الاحتفالات مما اختلفت فيه الاديان الصحيحة سابقها مع لاحقها واختلاف الاحكام متقدّمها مع متأخرها فمصدره رحمة الله ورأفته فى ابناء كل أمة وكل زمان بما علم فيه الخير للامة والملاءمة للزمان وكما جرت سنته وهو رب العالمين بالتدريج فى تربية الاشخاص من خارج من بطن أمه لا يعلم شيئاً الى راشد فى عقله كامل فى نشأته يمزق الحجب بفكره ويواصل أسرار الكون بنظره كذلك لم تختلف سنته ولم يضطرب هديه فى تربية الامم فلم يكن من شأن الانسان فى جملته ونوعه ان يكون فى مرتبة واحدة من العلم وقبول الخطاب من يوم خلقه الله الى يوم يبلغ به من الكمال منتهاه بل سبق القضاء بأن يكون شأن جملته فى النموّ قائماً على ما قرّرته الفطرة الالهية فى شأن افراده وهذا من البديهيات التى لا يصح الاختلاف فيها وان اختلف أهل النظر فى بيان ما تفرّع منه فى علوم وضعت للبحث فى الاجتماع البشرى

خاصة فلا نطيل الـكلام فيه هنا

جاءت أديان والناس من فهم مصالحهم العامة بل والخاصه فى طور أشبه بطور الطفولية للناشئ الحديث العهد بالوجود لا يألف منه الا ما وقع تحت حسه ويصعب عليه أن يضع الميزان بين يومه وأمســه وأن يتناول بذهنه من المعانى مالا يقرب من لمسه ولم ينفث فى روعه من الوجدان الباطن ما يعطفه على غيره من عشيره أو ابن جنســه فهو من الحرص على ما يقيم بناء شخصه فى هم شاغل عما يلقى اليه فيما يصله بغيره اللهم إلا يداً تصل الى فمه بطعام أو تسنده فى قعود أو قيام فلم يكن من حكمة تلك الاديان أن تخاطب الناس بما يلطف فى الوجدان أو يرقى اليه بسـلم البرهان بل كان من عظيم الرحمة أن تسير بالأقوام وهم عيال الله سير الوالد مع ولده فى سذاجة السن لا يأتيه الا من قبل ما يحسه بسمعه أو ببصره فأخذتهم بالأوامر الصادعة والزواجر الرادعة وطالبتهم بالطاعة وحملتهم فيها على مبلغ الاستطاعة كلفتهم بمعقول المعنى جلىّ الغاية وان لم يفهموا معناه ولم تصل مداركهم الى

مرماه وجاءتهم من الآيات بما تطرف له عيونهم وتنفعل به مشاعرهم وفرضت عليهم من العبادات ما يليق بحالهم هذه . ثم مضت على ذلك أزمان علت فيها الاقوام وسقطت وارتفعت وانحطت وجربت وكسبت وتخالفت واتفقت وذاقت من الايام آلاماً وتقلبت فى السعادة والشقاء أياماً وأياماً ووجدت الانفس بنفث الحوادث ولقن الكوارث شعوراً أدق من الحس وأدخل فى الوجدان لا يرتفع فى الجملة عما تشعر به قلوب النساء أو تذهب معه نزعات الغلمان فجاء دين يخاطب العواطف ويناجى المراحم ويستعطف الاهواء ويحادث خطرات القلوب فشرع للناس من شرائع الزهادة ما يصرفهم عن الدنيا بجملتها ويوجه وجوههم نحو الملكوت الاعلى ويقتضى من صاحب الحق أن لا يطالب به ولو بحق ويغلق أبواب السماء فى وجوه الاغنياء وما يحو نحو ذلك مما هو معروف وسنّ للناس سنناً فى عبادة الله تتفق مع ما كانوا عليه وما دعاهم اليه فلاقى من تعلق النفوس بدعوته ما أصلح من فاسدها وداوى من أمراضها ثم لم يمض عليه بضعة أجيال حتى ضعفت

العزائم البشرية عن احتماله وضاقت الذرائع عن الوقوف عند حدوده والاخذ بأقواله ووقر في الظنون أن اتباع وصاياه ضرب من المحال فهب القائمون عليه أنفسهم لمنافسة الملوك في السلطان ومزاحمة أهل الترف في جمع الاموال وانحرف الجمهور الاعظم منهم عن جادته بالتأويل وأضافوا عليه ما شاء الهوى من الاباطيل هذا كان شأنهم في السجايا والاعمال نسوا طهارته وباعوا نزاهته أما في العقائد فتفرقوا شيعاً وأحدثوا بدعاً ولم يستمسكوا من أصوله الا بما ظنوه من أشد أركانها وتوهموه من أقوى دعائمها وهو حرمان العقول من النظر فيه بل وفي غيره من دقائق الأكوان والحظر على الافكار أن تنفذ الى شيء من سرائر الخلقة فصرحوا بأن لا وفاق بين الدين والعقل وأن الدين من أشد أعداء العلم ولم يكف الذاهب الى ذلك أن يأخذوا به نفسه بل جد في حمل الناس على مذهبه بكل ما يملك من حول وقوة وأفضى الغلو في ذلك بالانفس الى نزعة كانت اشأم النزعات على العالم الانساني وهي نزعة الحرب بين أهل الدين للالزام ببعض

قضايا الدين فتقوّض الاصل ونخرّمت العلائق بين الاهل وحلت القطيعة محل التراحم والتخاصم مكان التعاون والحرب محل السلام وكان الناس على ذلك الى أن جاء الاسلام

كان سن الاجتماع البشرى قد بلغ بالانسان أشدّه وأعدّته الحوادث الماضية الى رشده . فجاء الاسلام يخاطب العقل ويستصرخ الفهم والالباب ويشركه مع العواطف والاحساس فى إرشاد الانسان الى سعادته الدنيوية والاخروية وبين للناس ما اختلفوا فيه وكشف لهم عن وجه ما اختصموا عليه وبرهن على أن دين الله فى جميع الاجيال واحد ومشيئته فى اصلاح شؤونهم وتطهير قلوبهم واحدة وأن رسم العبادة على الاشباح انما هو لتجديد الذكرى فى الارواح وأن الله لا ينظر الى الصور ولكن ينظر الى القلوب وطالب المكلف برعاية جسده كما طالبه باصلاح سرّه ففرض نظافة الظاهر كما أوجب طهارة الباطن وعدّ كلا الامرين طهراً مطلوباً وجعل روح العبادة الاخلاص وان ما فرض من الاعمال انما هو لما أوجب من التطبع بصالح الملكات « ان الصلاة تنهى

عن الفحشاء والمنكر » « ان الانسان خلق هلوعاً اذا مسه الشر جذوعاً واذا مســه الخير منوعاً الاّ المصلين » ورفع الغنيّ الشاكر الى مرتبة الفقير الصابر بل ربما فضله عليه وعامل الانسان فى مواعظه معاملة الناصح الهادى الرجل الرشيد فدعاه الى استعمال جميع قواه الظاهرة والباطنة وصرح بما لا يقبل التأويل أن فى ذلك رضا الله وشكر نعمته وان الدنيا مزرعة الآخرة ولا وصول الى خير العقبى الا بالسعى فى صلاح الدنيا . التفت الى أهل العناد فقال لهم : قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين وعنف النازعين الى الخلاف والشقاق على ما زعزعوا من أصول اليقين ونص على أن التفرق بغى وخروج عن سبيل الحق المبين ولم يقف فى ذلك عند حد الموعظة بالكلام والنصيحة بالبيان بل شرع شريعة الوفاق وقررها فى العمل فأباح للمسلم أن يتزوّج من أهل الكتاب وسوّغ مؤاكلتهم وأوصى أن تكون مجادلتهم بالتى هى أحسن ومن المعلوم ان المحاسنة هى رسول المحبة وعقد الالفة والمصاهرة انما تكون بعد التحابّ بين أهل الزوجين

والارتباط بينهما بروابط الائتلاف ثم أخذ العهد على المسلمين ان يدافعوا عمن يدخل فى ذمتهم من غيرهم كما يدافعون عن أنفسهم ونص على ان لهم ما لنا وعليهم ما علينا ولم يفرض عليهم جزاء ذلك الا زهيداً يقدمونه من مالهم ونهى بعد ذلك عن كل إكراه في الدين وطيب قلوب المؤمنين فى قوله: يا أيها الذين آمنوا عليكم انفسكم لا يضرّكم من ضل اذا اهتديتم فعليهم الدعوة الى الخير بالتى هى أحسن وليس لهم ولا عليهم ان يستعملوا أىّ ضرب من ضروب القوّة فى الحمل على الاسلام فان نوره جدير أن يخترق القلوب وليست الآية فى الامر بالمعروف بين المسلمين فانه لا اهتداء الا بعد القيام به ولو أريد ذلك لكان التعبير «على كل واحد منكم بنفسه» لا «عليكم أنفسكم» كما هو ظاهر لكل عربى كل ذلك ليرشد الناس الى أن الله لم يشرع لهم الدين ليتفرقوا فيه ولكن ليهديهم الى الخير فى جميع نواحيه . رفع الاسلام كل امتياز بين الاجناس البشرية وقرر لكل فطرة شرف النسبة الى الله فى الخلقة وشرف اندراجها فى النوع الانسانى بالجنس

والفصل والخاصة وشرف استعدادها بذلك لبلوغ أعلى درجات الكمال الذى أعدّه الله لنوعها على خلاف ما زعمه المنتحلون من الاختصاص بمزايا حرم منها غيرهم وتسجيل الخسة على أصناف زعموا أنها لن تبلغ من الشأن أن تلحق غبارهم فأماتوا بذلك الارواح فى معظم الأمم وصيروا أكثر الشعوب هياكل واشباحاً . هذه عبادات الاسلام على مافى الكتاب وصحيح السنة تتفق على ما يليق بجلال الله وسموّ وجوده عن الاشباه وتلتئم مع المعروف عند العقول السليمة فالصلاة ركوع وسجود وحركة وسكون ودعاء وتضرع وتسبيح وتعظيم وكلها تصدر عن ذلك الشعور بالسلطان الالهى الذى يغمر القوّة البشرية ويستغرق الحول فتخشع له القلوب وتستخذى له النفوس وليس فيها شئ يعلو على متناول العقل الا نحو تحديد عدد الركعات أو رمى الجمرات على انه مما يسهل التسليم فيه لحكمة العليم الخبير وليس فيه من ظاهر العبث واستحالة المغنى مايخل بالاصول التى وضعها الله للعقل فى الفهم والتفكير أما الصوم فحرمان يعظم به أمر

الله فى النفس وتعرف به مقادير النعم عند فقدها ومكانة الاحسان الالهى فى التفضل بها «كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون» أما أعمال الحج فتذكير للانسان بأوّليات حاجاته وتمهد له بتمثيل المساواة بين أفراده ولو فى العمر مرة يرتفع فيها الامتياز بين الغنى والفقير والصعلوك والامير ويظهر الجميع فى معرض واحد عراة الابدان متجردين عن آثار الصنعة وحدت بينهم العبودية لله رب العالمين كل ذلك مع استبقائهم فى الطواف والسعى والمواقف ولمس الحجر ذكرى ابراهيم عليه السلام وهو أبو الدين وهو الذى سماهم المسلمين واستقرار يقينهم على أن لا شئ من تلك البقايا الشريفة يضر أو ينفع وشعار هذا الاذعان الكريم فى كل عمل «الله اكبر» أين هذا كله مما تجد فى عبادات أقوام آخرين يضل فيها العقل ويتعذر معها خلوص السر للتنزيه والتوحيد. كشف الاسلام عن العقل غمة من الوهم فيما يعرض من حوادث الكون الكبير «العالم» والكون الصغير «الانسان» فقرر أن آيات الله الكبرى فى صنع

العالم انما يجرى أمرها على السنن الالهية التى قدّرها الله فى علمه الازلى لا يغيرها شئ من الطوارئ الجزئية غير أنه لا يجوز أن يغفل شأن الله فيها بل ينبغى ان يحيي ذكره عند رؤيتها فقد جاء على لسان النبي صلى الله عليه وسلم «إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا يخسفان لموت أحد ولا لحياته فاذا رأيتم ذلك فاذكروا الله » وفيه التصريح بأن جميع آيات الكون تجرى على نظام واحد لا يقضى فيه الا العناية الازلية على السنن التى أقامته عليها ثم أماط اللثام عن حال الانسان فى النعم التى يتمتع بها الاشخاص أو الامم والمصائب التى يرزؤن بها ففصل بين الامرين فصلا لا مجال معه للخلط بينهما فاما النعم التى يمتع الله بها بعض الاشخاص فى هذه الحياة والرزايا التى يرزأ بها فى نفسه فكثير منها كالثروة والجاه والقوة والبنين أو الفقر والضعة والضعف والفقد قد لا يكون كاسبها أو جالبها ما عليه الشخص فى سيرته من استقامة وعوج او طاعة وعصيان وكثيراً ما أمهل الله بعض الطغاة البغاة أو الفجرة الفسقة وترك لهم متاع الحياة الدنيا إنظاراً

لهم حتى يتلقاهم ما أعدّ لهم من العذاب المقيم فى الحياة الاخرى وكثيراً ما امتحن الله الصالحين من عباده وأثنى عليهم فى الاستسلام لحكمه وهم الذين اذا أصابتهم مصيبة عبروا عن إخلاصهم فى التسليم بقولهم : « إنا لله وإنا اليه راجعون » فلا غضب زيد ولا رضا عمرو ولا إخلاص سريرة ولا فساد عمل مما يكون له دخل فى هذه الرزايا ولا فى تلك النعم الخاصة اللهم الا فيما ارتباطه بالعمل ارتباط المسبب بالسبب على جارى العادة كارتباط الفقر بالاسراف والذل بالجبن وضياع السلطان بالظلم وكارتباط الثروة بحسن التدبير فى الاغلب والمكانة عند الناس بالسعى فى مصالحهم على الاكثر وما يشبه ذلك مما هو مبين فى علم آخر. أما شأن الامم فليس على ذلك فان الروح الذى أودعه الله جميع شرائعه الالهية من تصحيح الفكر وتسديد النظر وتأديب الاهواء وتحديد مطامح الشهوات والدخول الى كل أمر من بابه وطلب كل رغيبة من اسبابها وحفظ الامانة واستشعار الاخوة والتعاون على البر والتناصح فى الخير والشر وغير ذلك من أصول

الفضائل ذلك الروح هو مصدر حياة الامم ومشرق سعادتها في هذه الدنيا قبل الآخرة «من يرد ثواب الدنيا نؤته منها» ولن يسلب الله عنها نعمته ما دام هذا الروح فيها يزيد الله النعم بقوّته وينقصها بضعفه حتى اذا فارقها ذهبت السعادة على أثره وتبعته الراحة الى مقره واستبدل الله عزة القوم بالذل وكثرهم بالقل ونعيمهم بالشقاء وراحتهم بالعناء وسلط عليهم الظالمين أو العادلين فأخذهم بهم وهم في غفلة ساهون «واذا أردنا ان نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً» أمرناهم بالحق ففسقوا عنه الى الباطل ثم لا ينفعهم الانين ولا يجديهم البكاء ولا يفيدهم ما بقي من صور الاعمال ولا يستجاب منهم الدعاء ولا كاشف لما نزل بهم الا ان يلجؤا الى ذلك الروح الاكرم فيستنزلوه من سماء الرحمة برسل الفكر والذكر والصبر والشكر «ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم» «سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلاً» وما أجلّ ما قاله العباس بن عبد المطلب في استسقائه «اللهم إنه لم ينزل

الغارم وتحريراً لرقاب المستعبدين وتيسيراً لابناء السبيل ولم يحث على شئ حثه على الانفاق من الاموال فى سبيل الخير وكثيراً ما جعله عنوان الايمان ودليل الاهتداء الى الصراط المستقيم فاستلّ بذلك ضغائن أهل الفاقة ومحص صدورهم من الأحقاد على من فضلهم الله عليهم فى الرزق وأشعر قلوب أولئك محبة هؤلاء وساق الرحمة فى نفوس هؤلاء على أولئك البائسين فاستقرت بذلك الطمأنينة فى نفوس الناس أجمعين وأىّ دواء لامراض الاجتماع أنجع من هذا « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم » . أغلق الاسلام بابى الشر وسدّ ينبوعى فساد العقل والمال بتحريمه الخمر والمقامرة والربا تحريماً باتاً لا هوادة فيه لم يدع الاسلام بعد ما قرّرنا أصلاً من أصول الفضائل الا أتى عليه ولا أماً من أمهات الصالحات الا أحياها ولا قاعدة من قواعد النظام الا قرّرها فاستجمع للانسان عند بلوغ رشده كما ذكرنا حرية الفكر واستقلال العقل فى النظر وما به صلاح السجايا واستقامة الطبع وما فيه إنهاض العزائم الى العمل وسوقها فى سبل

والى الله ترجع الامور » ثم بعد هـذا الوعيد الذى يزعج المفرّطين ويحق به كلمة العذاب على المختلفين والمقصرين أبرز حال الامارين بالمعروف الناهين عن المنكر فى أجل مظاهر يمكن أن تظهر فيه حال أمة فقال: «كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله» فقدّم ذكر الامر بالمعروف والنهى عن المنكر على الايمان فى هذه الآية مع ان الايمان هو الاصل الذى تقوم عليه أعمال البر والدوحة التى تتفرع عنها أفنان الخير تشريفاً لتلك الفريضة واعلاء لمنزلتها بين الفرائض بل تنبيهاً على أنها حفاظ الايمان وملاك أمره ثم شدّ بالانكار على قوم أغفلوها وأهل دين أهملوها فقال: « لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » فقذف عليهم اللعنة وهى أشد ماعنون الله به على مقته وغضبه.

فرض الاسلام للفقراء فى أموال الاغنياء حقاً معلوماً يفيض به الآخرون على الاوّلين سدّاً لحاجة المعدم وتفريجاً لكربة

العربية من أدناها الى اقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربي وجدار الصين فى أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب . ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان ولقى من أعداء أنفسهم اشد ما يلقى حق من باطل أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى انفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المقصود على أيدى الاطباء الحاذقين « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون » تألبت الملل

السمى ومن يتلو القرآن حتى تلاوته يجد فيه من ذلك كنزاً لا ينفد وذخيرة لا تفنى هل بعد الرشد وصاية وبعد اكتمال العقل ولاية كلا قد تبين الرشد من الغى ولم يبق الا إتباع الهدى والانتفاع بما ساقته أيدى الرحمة لبلوغ الغاية من السعادتين لهذا ختمت النبوّات بنبوّة محمد صلى الله عليه وسلم وانتهت الرسالات برسالته كما صرّح بذلك الكتاب وأيدته السنة الصحيحة وبرهنت عليه خيبة مدّعيها من بعده واطمئنان العالم بما وصل اليه من العلم الى أن لا سبيل بعد لقبول دعوة يزعم القائم بها أنه يحدّث عن الله بشرع أو يصدع عن وحيه بأمر هكذا يصدق نبأ الغيب « ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليماً »

انتشار الاسلام بسرعة لم يعهد لها نظير فى التاريخ

كانت حاجة الأمم الى الاصلاح عامة فجعل الله رسالة خاتم النبيين عامة كذلك لكن يندهش عقل الناظر فى أحوال البشر عند ما يرى أن هذا الدين يجمع اليه الامة

العربية من أدناها الى اقصاها فى أقل من ثلاثين سنة ثم يتناول من بقية الامم ما بين المحيط الغربى وجدار الصين فى أقل من قرن واحد وهو أمر لم يعهد فى تاريخ الاديان ولذلك ضل الكثير فى بيان السبب واهتدى اليه المنصفون فبطل العجب . ابتدأ هذا الدين بالدعوة كغيره من الاديان واتى من أعداء أنفسهم اشد ما يلقى حق من باطل أوذى الداعى صلى الله عليه وسلم بضروب الايذاء وأقيم فى وجهه ما كان يصعب تذليله من العقاب لولا عناية الله وعذب المستجيبون له وحرموا الرزق وطردوا من الدار وسفكت منهم دماء غزيرة غير أن تلك الدماء كانت عيون العزائم تتفجر من صخور يثبت الله بمشهدها المستيقنين ويقذف بها الرعب فى انفس المرتابين فكانت تسيل لمنظرها نفوس أهل الريب وهى ذوب ما فسد من طباعهم فتجرى من مناحرهم جرى الدم الفاسد من المفصود على أيدى الاطباء الحاذقين « ليميز الله الخبيث من الطيب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله فى جهنم أولئك هم الخاسرون » تألبت الملل

المختلفة ممن كان يسكن جزيرة العرب وما جاورها على الاسلام ليحصدوا نبتته ويخنقوا دعوته فما زال يدافع عن نفسه دفاع الضعيف للاقوياء والفقير للاغنياء ولا ناصر له الا انه الحق بين الاباطيل والرشد فى ظلمات الاضاليل حتى ظفر بالعزة وتعزز بالمنعة وقد وطئ أرض الجزيرة أقوام من أديان أخر كانت تدعو اليها وكانت لهم ملوك وعزة وسلطان وحملوا الناس على عقائدهم بأنواع من المكاره ومع ذلك لم يبلغ بهم السعى نجاحاً ولا أنال لهم القهر فلاحاً . ضم الاسلام سكان القفار العربية الى وحدة لم يعرفها تاريخهم ولم يعهد لها نظير فى ماضيهم وكان النبى صلى الله عليه وسلم قد أبلغ رسالته بأمر ربه الى من جاور البلاد العربية من ملوك الفرس والرومان فهزؤا وامتنعوا وناصبوه وقومه الشر وأخافوا السابلة وضيقوا على المتاجر فبعث اليهم البعوث فى حياته وجرى على سنته الأئمة من صحابته طلباً للامن وابلاغاً للدعوة فاندفعوا فى ضعفهم وفقرهم يحملون الحق على أيديهم وانهالوا به على تلك الامم فى قوتها ومنعتها وكثرة عددها واستكمال أهبها وعددها فظفروا

منها بما هو معلوم وكانوا متى وضعت الحرب أوزارها واستقر السلطان للفاتح عطفوا على المغلوبين بالرفق واللين وأباحوا لهم البقاء على أديانهم واقامة شعائرها آمنين مطمئنين ونشروا حمايتهم عليهم يمنعوهم مما يمنعون منه أهلهم وأموالهم وفرضوا عليهم كفاء ذلك جزءًا قليلاً من مكاسبهم على شرائط معينة كانت الملوك من غير المسلمين اذا فتحوا مملكة اتبعوا جيشها الظافر بجيش من الدعاة الى دينها يلجون على الناس بيوتهم ويغشون مجالسهم ليحملوهم على دين الظافر وبرهانهم الغلبة وحجتهم القوّة ولم يقع ذلك لفاتح من المسلمين ولم يعهد فى تاريخ فتوح الاسلام ان كان له دعاة معروفون لهم وظيفة ممتازة يأخذون على أنفسهم العمل فى نشره ويقفون مسعاهم على بث عقائده بين غير المسلمين بل كان المسلمون يكتفون بمخالطة من عداهم ومحاسنتهم فى المعاملة وشهد العالم بأسره أن الاسلام كان يعدّ مجاملة المغلوبين فضلاً وإحساناً عند ما كان يعدّها الاروبيون ضعة وضعفاً . رفع الاسلام ما ثقل من الاتاوات وردّ الاموال المسلوبة الى اربابها وانتزع

الحقوق من مغتصبيها ووضع المساواة فى الحق عند التقاضى بين المسلم وغير المسلم . بلغ أمر المسلمين فيما بعد ان لا يقبل اسلام من دخل فيه الا بين يدى قاض شرعى باقرار من المسلم الجديد أنه أسلم بلا اكراه ولا رغبة فى دنيا . وصل الامر فى عهد بعض الخلفاء الامويين ان كره عمالهم دخول الناس فى دين الاسلام لما رأوا أنه ينقص من مبالغ الجزية وكان فى حال أولئك العمال صد عن سبيل الدين لا محالة عرف خلفاء المسلمين وملوكهم فى كل زمن ما لبعض أهل الكتاب بل وغيرهم من المهارة فى كثير من الاعمال فاستخدموهم وصعدوا بهم الى أعلى المناصب حتى كان منهم من تولى قيادة الجيش فى اسبانيا . اشتهرت حرية الاديان فى بلاد الاسلام حتى هجر اليهود أوربا فراراً منها بدينهم الى بلاد الاندلس وغيرها . هذا ما كان من أمر المسلمين فى معاملاتهم لمن أظلوهم بسيوفهم لم يفعلوا شيئاً سوى أنهم حملوا الى أولئك الاقوام كتاب الله وشريعته وألقوا بذلك بين أيديهم وتركوا الخيار لهم فى القبول وعدمه ولم يقوموا بينهم

بدعوة ولم يستعملوا لاكراههم عليه شيئاً من القوة وما كان من الجزية لم يكن مما يثقل أداؤه على من ضربت عليه فما الذى أقبل بأهل الاديان المختلفة على الاسلام واقنعهم أنه الحق دون ما كان لديهم حتى دخلوا فيه أفواجاً وبذلوا فى خدمته ما لم يبذله العرب أنفسهم . ظهور الاسلام على ما كان فى جزيرة العرب من ضروب العبادات الوثنية وتغلبه على ما كان فيها من رذائل الاخلاق وقبائح الاعمال وسيره بسكانها على الجادّة القويمة حقق لقراء الكتب الالهية السابقة أن ذلك هو وعد الله لنبيه ابراهيم واسماعيل وأن هذا الدين هو ما كانت تبشر به الانبياء أقوامها من بعدهما فلم يجد أهل النصفة منهم سبيلاً الى البقاء على العناد فى مجاحدته فتلقوه شاكرين وتركوا ما كان لهم بين قومهم صابرين. اوقع ذلك من الريب فى قلوب مقلديهم ما حركهم الى النظر فيه فوجدوا لطفاً ورحمة وخيراً ونعمة لا عقيدة ينفر منها العقل وهو رائد الايمان الصادق ولا عمل تضعف عن احتماله الطبيعة البشرية وهى القاضية فى قبول المصالح والمرافق. رأوا

ان الاسلام يرفع النفوس بشعور من اللاهوت يكاد يعلو بها عن العالم السفلى ويلحقها بالملكوت الاعلى ويدعوها إلى إحياء ذلك الشعور بخمس صلوات فى اليوم وهو مع ذلك لا يمنع من التمتع بالطيبات ولا يفرض من الرياضات وضروب الزهادة ما يشق على الفطرة البشرية تجشمه ويعد برضا الله ونيل ثوابه حتى فى توفية البدن حقه متى حسنت النية وخلصت السريرة فاذا نزت شهوة أو غلب هوى كان الغفران الالهى ينتظره متى حسنت التوبة وكملت الاوبة. تبدّت لهم سذاجة الدين عند ما قرؤا القرآن ونظروا فى سيرة الطاهرين من حامليه اليهم وظهر لهم الفرق بين مالا سبيل الى فهمه وما تكفى جولة نظر فى الوصول الى علمه فتراموا اليه خفافاً من ثقل ما كانوا عليه كانت الأمم تطاب عقلاً فى دين فوافاها وتطلع الى عدل فى ايمان فأتاها فما الذى يحجم بها عن المسارعة الى طلبتها والمبادرة الى رغيبتها كانت الشعوب تئن من ضروب الامتياز التى رفعت بعض الطبقات على بعض بغير حق وكان من حكمها ان لا يقام وزن لشؤن الادنين متى عرضت دونها

شهوات الاعلين فجاء دين يحدّد الحقوق ويسوّى بين جميع الطبقات فى احترام النفس والدين والعرض والمال ويسوّغ لامرأة فقيرة غير مسلمة أن تأبى بيع بيت صغير بأية قيمة لامير عظيم مطلق السلطان فى قطر كبير وما كان يريده لنفسه ولكن ليوسع به مسجداً فلما عقد العزيمة على أخذه مع دفع اضعاف قيمته رفعت الشكوى الى الخليفة فورد أمره برد بيتها اليها مع لوم الامير على ما كان منه. عدل يسمح ليهودى ان يخاصم مثل على بن أبى طالب أمام القاضى وهو من نعلم من هو ويستوقفه معه للتقاضى الى ان قضى الحق بينهما!! هذا وما سبق بيانه مما جاء به الاسلام هو الذى حببه الى من كانوا اعداءه وزد اليه اهواءهم حتى صاروا انصاره واولياءه. غلب على المسلمين فى كل زمن روح الاسلام فكان من خلقهم العطف على من جاورهم من غيرهم ولم تستشعر قلوبهم عداوة لمن خالفهم الا بعد ان يخرجهم الجار فهم كانوا يتعلمونها ممن سواهم ثم لا يكون الا طائفاً يحل ثم يرتحل فاذا انقطعت اسباب الشغب تراجعت القلوب الى سابق ما ألفته من اللين

والمياسرة ومع ذلك بل وغفلة المسلمين عن الاسلام وخذلانهم له وسعى الكثير منهم فى هدمه بعلم وبغير علم لم يقف الاسلام فى انتشاره عند حد خصوصاً فى الصين وفى افريقيا ولم يخل زمن من رؤية جموع كثيرة من ملل مختلفة تنزع الى الاخذ بعقائده على بصيرة فيما تنزع اليه لا سيف وراءها ولا داعى أمامها وانما هو مجرد الاطلاع على ما أودعه مع قليل من حركة الفكر فى العلم بما شرعه ومن هذا تعلم أن سرعة انتشار الدين الاسلامى واقبال الناس على الاعتقاد به من كل ملة انما كان لسهولة تعلقه ويسر أحكامه وعدالة شريعته وبالجملة لان فطر البشر تطلب ديناً وترتاد منه ما هو أمس بمصالحها وأقرب الى قلوبها ومشاعرها وأدعى الى الطمأنينة فى الدنيا والآخرة ودين هذا شأنه يجد الى القلوب منفذاً والى العقول مخلصاً بدون حاجة الى دعاة ينفقون الاموال الكثيرة والاوقات الطويلة ويستكثرون من الوسائل ونصب الحبائل لاسقاط النفوس فيه . هذا كان حال الاسلام فى سذاجته الاولى وطهارته التى أنشأه الله عليها ولا يزال على جانب عظيم منها

فى بعض أطراف الارض الى اليوم. قال من لم يفهم ماقدمناه أو لم يرد أن يفهمه ان الاسلام لم يطف على قلوب العالم بهذه السرعة الا بالسيف فقد فتح المسلمون ديار غيرهم والقرآن باحدى اليدين والسيف بالاخرى يعرضون القرآن على المغلوب فان لم يقبله فصل السيف بينه وبين حياته! سبحانك هذا بهتان عظيم!! ما قدمناه من معاملة المسلمين مع من دخلوا تحت سلطانهم هو ماتواترت به الاخبار تواتراً صحيحاً لايقبل الريبة فى جملته وان وقع اختلاف فى تفصيله وانما شهر المسلمون سيوفهم دفاعاً عن أنفسهم وكفاً للعدوان عنهم ثم كان الافتتاح بعد ذلك من ضرورة الملك ولم يكن من المسلمين مع غيرهم الا أنهم جاوروهم وأجاروهم فكان الجوار طريق العلم بالاسلام وكانت الحاجة لصلاح العقل والعمل داعية الانتقال اليه. لو كان السيف ينشر ديناً فقد عمل فى الرقاب للاكراه على الدين والالزام به مهدداً كل أمة لم تقبله بالابادة والمحو من سطح البسيطة مع كثرة الجيوش ووفرة العدد وبلوغ القوّة أسمى درجة كانت تمكن لها وابتدأ ذلك العمل قبل ظهور

الاسـلام بثلاثة قرون كاملة واستمرّ في شدّته بعد مجيء الاسلام سبعة أجيال أو يزيد فتلك عشرة قرون كاملة لم يبلغ فيها السيف من كسب عقائد البشر مبلغ الاسلام في أقل من قرن !! هذا ولم يكن السيف وحده بل كان الحسام لا يتقدّم خطوة الا والدعاة من خلفه يقولون ما يشاؤن تحت حمايته مع غيرة تفيض من الافئدة وفصاحة تتدفق عن الالسـنة وأموال تخلب ألباب المستضعفين! ان في ذلك لآيات للمستيقنين! بجلت حكمة الله في أمر هذا الدين سلسبيل حياة نبع في القفار العربية أبعد بلاد الله عن المدنية فاض حتى شملها فجمع شملها فأحياها حياة شعبية ملية. علا مدّه حتى استغرق ممالك كانت تفاخر أهل السماء في رفعتهـا وتعلو أهل الارض بمدنيتها. زلزل هديره على لينه ما كان استحجر من الأرواح فانشقت عن مكنون سر الحياة فيهـا. قالوا كان لا يخلو من غلب «بالتحريك» قلنا تلك سنة الله في الخلق لا تزال المصارعة بين الحق والباطل والرشد والغي قائمة في هذا العالم الى أن تقضي الله قضاءه فيه. اذا ساق الله ربيعاً الى أرض جدبة ليحيي

ميتها وينقع غلتها وينمي الخصب فيها أفينقض من قدره ان أتى في طريقه على عتبة فعلاها أو بيت رفيع العماد نووى به .؟ سطع الاسلام على الديار التي بلغها أهله فلم يكن بين أهل تلك الديار وبينه الا أن يسمعوا كلام الله ويفقهوه. اشتغل المسلمون بعضهم ببعض زمناً وانحرفوا عن طريق الدين أزماناً فوقف وقفة القائد خذله الانصار وكاد يتزحزح الى ما وراء لكن الله بالغ أمره فانحدرت الى ديار المسلمين أمم من التتارية ودها جنكيزخان وفعلوا بالمسلمين الافاعيل وكانوا وثنيين جاؤا لمحض الغلبة والسلب والنهب ولم يلبث أعقابهم أن اتخذوا الاسلام ديناً وحملوه الى أقوامهم فعمهم منه ما عم غيرهم! جاؤا لشقوتهم فعاجوا بسعادتهم . ! حمل الغرب على الشرق حملة واحدة لم يبق ملك من ملوكه ولا شعب من شعوبه الا اشترك فيها واستمرت المجالدات بين الغربيين والشرقيين أكثر من مائتي سنة جمع فيها الغربيين من الغيرة والحمية للدين ما لم يسبق لهم من قبل وجيشوا من الجند وأعدّوا من القوّة ما بلغته طاقتهم وزحفوا على ديار المسلمين وكانت فيهم

بقية من روح الدين فغلب الغربيون على كثير من البلاد الاسـلامية وانتهت تلك الحروب الجارفة بأجلائهم عنها . لم جاؤا وبماذا رجعوا؟ ظفر رؤساء الدين فى الغرب باثارة شعوبهم ليبيدوا ما يشاؤن من سكان الشرق أو يستولى سلطان تلك الشعوب على ما يعتقدون لانفسهم الحق فى الاستيلاء عليه من البلاد الاسلامية. جاء من الملوك والامراء وذوى الثروة والاعلياء جم غفير وجاء ممن دونهم من الطبقات ما قدّروه بالملايين استقر المقام بكثير من هؤلاء فى أرض المسلمين وكانت فترات تنطفئ فيها نار الغضب وتثوب العقول الى سكينتها تنظر فى أحوال الجاورين وتلتقط من أفكار المخالطين وتنفعل بما ترى وبما تسمع فتبينت أن المبالغات التى أطاشت الاحلام وجسمت الآلام لم تصب مستقر الحقيقة ثم وجدت حرية فى دين وعلماً وشرعاً وصنعة مع كمال فى يقين وتعلمت أن حرية الفكر وسعة العلم من وسائل الايمان لا من العوادى عليه ثم جمعت من الآداب ما شاء الله وانطلقت الى بلادها ريرة العين بما غنمته من جلادها هذا الى ما كسبه السفار

من أطراف الممالك الى بلاد الأندلس بمخالطة حكمائها وأدبائها ثم عادوا به الى شعوبهم ليذيقوهم حلاوة ما كسبوا وأخذت الافكار من ذلك العهد تتراسل والرغبة فى العلم تتزايد بين الغربيين ونهضت الهمم لقطع سلاسل التقليد ونزعت العزائم الى تقييد سلطان زعماء الدين والاخذ على أيديهم فيما تجاوزوا فيه وصاياه وحرفوا فى معناه ولم يكن بعد ذلك الا قليل من الزمن حتى ظهرت طائفة منهم تدعو الى الاصلاح والرجوع بالدين الى سذاجته وجاءت فى اصلاحها بما لا يبعد عن الاسلام الا قليلاً بل ذهب بعض طوائف الاصلاح فى العقائد الى مايتفق مع عقيدة الاسلام الا فى التصديق برسالة محمد صلى الله عليه وأن ما هم عليه إنما هو دينه يختلف عنه اسما ولا يختلف معنى الا فى صورة العبادة لاغير . ثم أخذت أمم أوروبا تفتك من أسرها وتصلح من شؤنها حتى استقامت أمور دنياها على مثل ما دعا اليه الاسلام غافلة عن قائدها لاهية عن مرشدها وتقررت أصول المدنية الحاضرة التى تفاخر بها الاجيال المتأخرة ما سبقها من أهل الازمان الغابرة

هذا طل من وابله أصاب أرضاً قابلة فاهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج جاء القوم ليبيدوا فاستفادوا وعادوا ليفيدوا. ظن الرؤساء ان فى إهاجة شعوبهم شفاء ضغنهم وتقوية ركنهم فباؤا بوضوح شأنهم وضعضعة سلطانهم . وما بيناه فى شأن الاسلام — ويعرفه كل من تفقه فيه — قد ظفر به كثير من أهل النظر فى بلاد الغرب فعرفوا له حقه واعترفوا أنه كان أكبر أساتذتهم فيما هم فيه اليوم والى الله عاقبة الامور



(تنبيه)

وقع غلط مطبعى فى صحيفة ١٧٤ من هذا الكتاب فقد جاء فى السطر الثامن منها ان نهاية مدة تولي ابرهة سنة ٥٨٩ والصحيح ٥٧١ وكذلك يجب التنويه بانه اختلف فى زمن ولاية يكسوم فالبعض جعلها كما هو مذكور بالصحيفة المذكورة فى السطر الخامس عشر منها والبعض — وإظنه الارجح — جعله قبل ذلك بدليل ما جاء فى مروج الذهب من أن آخر ولاة الحبشة على اليمن هو مسروق اخو يكسوم وقد قتله وهرز الديلمى الذى جاء مع ابن ذى يزن من عند كسرى انوشروان لخمس واربعين سنة من حكم انوشروان وذلك يوافق سنة ٥٧٥ . والله تعالى أعلم .

فهرست الجزء الاول

من كتاب تاريخ دول العرب والاسلام

صحيفة

(تمهيد)

﴿ الباب الاول ﴾

الفصل الاول

صحيفه

صحيفة

(الفصل الثالث)

(طبقة العرب الباقية)

العرب المتعربة

صحيفة

﴿ الفصل الرابع ﴾

(طبقة العرب الباقية)

العرب المستعربة

﴿ الباب الثانى ﴾

(فى العرب بعد الاسلام)

صحيفة

(الفصل الاول)

الفصل الثانى